مصطفى أمين

سنة ثالثة سجن

الطبعة الثالثة ١٩٨٩

الناشر ـ المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
القاهرة : ٢ شارع شريف ت : ٣٩٣٤١٢٧
الاسكندرية : ٧ شارع نوبار ت : ٤٨٢٦٦٠٢

مصطفى أمين

سنة ثالثة سجن

المكتب المصري الحديث

الهزيمة .. فى سنة أولى !

هذه سنة ثالثة سجن ، بدأت عقب الأيام التالية للهزيمة ، اعصاب الحكام مشدودة . أرواحهم محطمة . شعاراتهم ممزقة وملقاة فى صحراء سيناء مع الجثث المشوهة والاسلحة المبعثرة . البطش يشتد داخل السجن ، كأن الحكام المهزومين لم يستطيعوا ان يهزموا عدوهم الحقيقى فاستداروا إلى خصومهم يقهرونهم وينتصرون عليهم بلا معركة . ويعتبرون المسجونين السياسيين أسرى . . أسروهم فى لا حرب ، ويعتبرون زنازينهم قلاعا استولوا عليها بلا معارك :

كل شبح يحسبونه رجلا ، وكل صفقة باب يتوهمونها فرقعة قنبلة . وكل همسة مسجون يسمعونها زئير أسد ، وكل كلمة حق يخافون أن تكون مقدمة مؤامرة لقلب نظام الحكم . تشعر وأنت داخل السجن بأن كل شيء خائف يهتز . الأوامر تجيء كل يوم إلى السجن بأن يزيد قبضته على المسجونين السياسيين . يراقب خطواتهم . يستمع إلى همساتهم . يفتش جيوبهم . يقلق منامهم . أوامر متوالية تحض على العنف والشدة والبطش والقمع وهذه دائما هى لغة الخائفين لا لغة الواثقين .

هذا الرعب يظهر بجلاء فى منعهم للزيارات الا من السلك . فى تأخيرهم لتسليمنا خطاباتنا ، فى تلكئهم فى الموافقة على ارسال خطابات لأهلنا . فى منعهم السجائر والأطعمة . كأن علبة السجائر هى منشورات تحرض على الثورة ، وكأن طعام المسجونين هو قنابل وديناميت !

واطاعة الأوامر الظالمة هى نوع من رياضة النفس ، وامتحان لقدرة المرء على الاحتمال . وكلما وجد المسجون السياسى نفسه قادرا على احتمال ما لا يحتمل

شعر بسعادة غريبة . فليست القوة أن يصرخ الانسان عندما يشعر بمطرقة تنهال على رأسه ، وانما القوة ان يحتمل الضربة ولا يكف عن الابتسام . وعندما يصبح الانسان قادرا على أن يحتمل الضربة الضخمة تصبح الضربات التالية نوعا من الدعابة والهزار ! وفى هذه السنة كثرت الضربات فوق رؤوسنا ولم تكن ضربات قاتلة لان المطارق كانت فى أيد مهزوزة خائفة مهزومة . الهزيمة البشعة ، وما حدث للطغاة الصغار من شلة المشير عبد الحكيم عامر جعل بقايا الفراعين الصغار تضرب وهى خائفة . . تبطش وهى ترتعش رعبا ، ترتدى أثواب الجبابرة وتطل من داخلها الفئران !

هذه الرسائل كتبتها وهربتها فى السنة الاولى للهزيمة ، وقد تميزت هذه السنة بأن الحكام بدأوا يمشون فى طريق الضعف والهزال ، والشعب يمشى فى طريق الشجاعة . أصبح الناس أكثر جرأة مما كانوا وأقل خوفا وهلعا . سقط الديكور الذى كان يغطى خرائب الحكم ولا يظهر إلا الألوان الزاهية البراقة . أصبحنا لأول مرة نسمع الجنود والضباط ينتقدون الحكام علنا ، يهاجمونهم ، يسخرون منهم ، ينقلون إلينا النكت والنوادر التى تقال عنهم ، يهملون فى تنفيذ الاوامر الصارمة اليومية التى كانت تطالب بالبطش بنا وتنكيد الحياة علينا !

ولقد زاد عدد الذين يشاركوننى فى تهريب هذه الرسائل ، إلى خارج السجن ، ثم إلى خارج الحدود فتسلم إلى على أمين فى لندن . . وتضاعف عدد الذين يتشجعون ويحملون إلى رسائل من جميع أنحاء العالم ، ويقتحمون الحصار المفروض . .

وكنا نلعب مع حراسنا كل يوم لعبة عسكر وحرامية !
ولا أعرف من كانوا العسكر ومن كانوا الحرامية .
كل الذى أعرفه انهم لم يمسكوا خطابا واحدا !

مصطفى أمين

عبد الناصر ساعة الهزيمة

ليمان طرة ٢٤ يوليو سنة ١٩٦٧

ياعزيزتى . .

أن أصدقائى وتلاميذى خارج السجن يريدون أن أشعر وأنا فى زنزانتى أننى مازلت فى مكتب رئيس تحرير أخبار اليوم . أعرف كل ما يجرى من أحداث وأسرار . وهم يتبارون فى تهريب الرسائل لى عما يدور وراء الكواليس ، وكأنهم يبحثون عن خبطات صحفية تنشر فى صدر الصفحة الأولى فى مانشيتات !

وللأسف فانني لا استطيع ان أنشر كل ما يصلنى ، فأنا الآن القارىء الوحيد !

كتب لى أحد أصدقائى يقول : قابلت السيد عبد اللطيف بغدادى فترة طويلة . قال لى أنه لما أحس أن أزمة سحب البوليس الدولى من شرم الشيخ واحتلالها سوف يؤدى إلى حرب ، كتب مع حسن إبراهيم مذكرة « تقدير موقف » ارسلها إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، وحذره من عواقب اشتراك الجيش المصرى فى معركة مع اسرائيل ، واقترح عليه ان تتحرك بعض قوات الطيران وحدها دون باقى الجيش . وأبدى الاثنان استعدادهما لوضع نفسيهما تحت تصرف القوات المسلحة أو فى أى مكان يعتقد عبد الناصر أنهما يستطيعان فيه خدمة بلدهما .

وحدث ان قابل الدكتور عبد الرحمن البزاز ، السياسى العراقى الكبير ، بعد ذلك الرئيس عبد الناصر ، فأشاد الرئيس أمامه بموقف بغدادى وحسن إبراهيم ، وشكا من أن كمال الدين حسين لم يبد أى استعداد للمساهمة فى المعركة .

وذهب الدكتور عبد الرحمن البزار إلى كمال الدين حسين ، وروى له حديثه

مع عبد الناصر ، فكتب كمال الدين حسين خطابا إلى عبد الناصر يرجو فيه إعادته إلى الجيش ، واسناد أى عمل له حتى يساهم فى المعركة .

واستدعى عبد الناصر الثلاثة . .

ولاحظ بغدادى أن عبد الناصر يتطلع طويلا إلى رأسه فسأله :

ـ لماذا تتطلع إلى رأسى ؟ هل أدهشك المشيب الذى علاه ؟

قال عبد الناصر : نعم . .

قال بغدادى : عجزنا .

قال عبد الناصر : أنا لسه ما عجزتش .

قال بغدادى : أنا أصلى « خرع » زى ايدن (وكان هذا هو الوصف الذى أطلقه عبد الناصر على أيدن رئيس الوزارء البريطانية فى عدوان ١٩٥٦) .

وضحك عبد الناصر طويلا ، وشكرهم على موقفهم ، وقال أنه لم يدهش لهذا الموقف ، لأنه يعرف وطنيتهم وحبهم لبلادهم .

وهنا سأله بغدادى : أحب أن أعرف ما هى معلوماتك عن دخول اسرائيل الحرب ؟

فقال عبد الناصر : المعلومات المؤكدة التى عندنا هى أن اسرائيل لا تفكر فى الهجوم ، وانها لا تستطيعه قبل ٨ أشهر على الاقل .

وسأل بغدادى : وما هو موقف روسيا ؟

قال عبد الناصر : أن شمس بدران وزير الحربية عاد منذ يومين من موسكو ، وقد أكد له الروس انهم سيؤيدوننا على طول الخط ، ولو أدى ذلك قيام الحرب العالمية الثالثة .

واستطرد السيد عبد اللطيف بغدادى يقول :

ـ ثم بدأت المعركة فى ٥ يونيو .

وكنت مع الرئيس عبد الناصر فى مركز القيادة ، وابلغنا عبد الحكيم عامر ان اسرائيل حطمت كل الطائرات المصرية .

والتفت إلى عبد الناصر وقلت له :

ـ وما هو موقف الروس اليوم ؟

فأجاب عبد الناصر : انهم فى فزع من أمريكا ! ولا يريدون ان يقوموا بأى عمل يعرضهم للاشتباك مع الامريكان .

وقلت لعبد الناصر : ولكنهم قالوا لشمس بدران أنهم سيؤيدوننا على طول الخط ، حتى ولو أدى ذلك إلى قيام الحرب العالمية الثالثة .
وسكت عبد الناصر ولم يرد .

وهنا سألت الرئيس عبد الناصر : ولماذا لم يرسل الروس لنا طائرات بدل الطائرات التى فقدناها ؟

قال عبد الناصر : قالوا إنهم يخشون من الاسطول السادس ولذلك لا يستطيعون ارسال الطائرات إلى مصر . واقترحوا أن يسلموها لنا فى يوغسلافيا ، بشرط أن يوافق تيتو ، فأبرقنا إلى تيتو الذى وافق على هبوط الطائرات فى بلاده . واستدعى السفيرين المصرى والروسى فى بلغراد معا وأبلغهما هذا القرار . . ولكن روسيا عادت وخافت وقالت انها تريد أن تسلمنا الطائرات فى الجزائر ! ومعنى ذلك أننا لن نستلم الطائرات إلا بعد أشهر .

وقال بغدادى : انه من الممكن ان ترسل روسيا إلى مصر الطائرات الحربية داخل طائرات اليوشان ، وأن كل طائرة اليوشان تتسع لأربع طائرات ميج .

فسأل عبد الناصر : وكم يستغرق تركيب كل طائرة ؟

فأجاب بغدادى : ٨ ساعات . وإذا أرسلوا لنا عشر طائرات اليوشان محملة بالطائرات كل يوم فسيصبح عندنا ٤٠ طائرة كل يوم و ٤٠٠ طائرة فى ظرف عشرة أيام . . أننا نستطيع بهذه الطائرات أن نقلب المعركة على رأس اسرائيل .

فأجاب عبد الناصر : ان الروس يرتعشون من الامريكان .

وذكر لى بغدادى بالحرف الواحد :
ـ بعد ان تأكدت الهزيمة لاحظت ان عبد الحكيم عامر كان يتطلع بكراهية وحقد نحو عبد الناصر . وكانت نظراته تقول له : أنت الذى أوصلتنا إلى هذه الكارثة !

وبقى عبد الناصر فى مركز القيادة فترة طويلة ، ومع ذلك لم ينتقل اليه عبد الحكيم عامر مرة واحدة ، تظاهر طول الوقت بأنه مشغول . كان يتلقى تليفونيا أنباء الهزيمة ولا يهتم بابلاغها إلى الرئيس عبد الناصر الذى كان يجلس معه فى الغرفة .

وكان عبد الناصر يضطر إلى سؤال الضباط الموجودين حول عبد الحكيم عامر عن آخر الاخبار .
وحدث ان سمع عبد الناصر ان الجنود المصريين فقدوا كل بنادقهم فى المعركة ولم يبق عند الجيش المصرى سوى ٢٥٠٠ بندقية . .

فسأله بغدادى : ولماذا لم نطلب بنادق من الروس ؟

وأجاب زكريا محيى الدين : الروس أرسلوا لنا سفينة عليها ٦٠ ألف بندقية ، ولكنها راسيه خارج ميناء الاسكندرية وترفض أن تدخل الميناء خشية أن تضربها الطائرات .

وكان اليأس يملأ وجه عبد الناصر فى هذه اللحظات .

وفجأة وقف وقال : ليس لنا مكان هنا . . لقد ضاع كل شيء . فقد الجيش كل شيء . تعال نخرج !

وخرجنا من مركز القيادة ، ولم يتحرك عبد الحكيم من مكانه لوداعنـا . .

وقال عبد الناصر وهو يودع بغدادى :

ـ مفيش فايده . . فقد الجيش المصرى كل أسلحته !

* * *

وقال عبد اللطيف بغدادى :

ـ اننى سألت عبد الناصر أيام كنا معا فى مركز القيادة لماذا لم نوافق على وقف القتال فى يوم ٥ يونيو كما اقترح مجلس الأمن . وعدت بعد يوم ووافقت ، وافقت بدون قيد ولا شرط .

فأجاب عبد الناصر : فى يوم ٥ يونيو تلقيت معلومات ان الجيش المصرى يجمع قواته ،وأنه لم ينهزم . ولكن بعد ٢٤ ساعة علمت ان هذه المعلومات كاذبة وأن الجيش المصرى فقد كل أسلحته فوافقت على اقتراح وقف القتال .

وذكر عبد الناصر ان محمود رياض وزير الخارجية اتصل تليفونيا يوم ٥ يونيو بالسفير محمد القونى مندوب مصر فى الأمم المتحدة ، وقال له أن الجيش المصرى مسيطر على الموقف ، وأمره بأن يرفض وقف القتال . وأعد السفير محمد القونى خطابه على اساس تعليمات وزير الخارجية ، وقبل ان يلقى خطابه بنصف ساعة اتصل به محمود رياض تليفونيا من القاهرة للمرة الثانية وطلب منه ان يوافق على وقف القتال !

ولما أبلغ القونى هذه المحادثة إلى رؤساء الوفود العربية فى الامم المتحدة ثاروا ، وقالوا ان محمود رياض دسيسة ، وطلبوا من السفير القونى ان يتصل بالرئيس شخصيا بالتليفون ليسأله هل هو موافق على وقف القتال .

وطلب القونى الرئيس عبد الناصر فى التليفون .
ورد عليه سامى شرف

وقال السفير القونى أنه يريد ان يتحدث مع الرئيس عبد الناصر شخصيا ليسأله : هل هو موافق على وقف القتال ؟
فسأله سامى شرف : ماذا قال لك محمود رياض ؟
أجاب القونى : قال لى أن أعلن موافقة مصر على وقف القتال .
قال سامى شرف : نفذ تعليمات محمود رياض !
ولما سمع رؤساء الوفود العربية بهذه المحادثة التليفونية اغرقوا فى البكاء !

هل يعيش الحب فى الزنزانة ؟

ليمان طرة فى ٢٨ يوليو ١٩٦٧ .

عزيزتى . .

عرفت هنا مسجونا أسمه فرحات . قص على قصته العجيبة . انه محكوم عليه بأنه قاتل وهو لم يقتل أحدا ! ان المثل الذى يقول « ياما فى السجن مظاليم » هو حقيقة واقعة أكثر مما هو مثل شعبى ولنبدأ القصة من أولها . .

كان أبو على يعمل خفيرا لزراعة أحد الاعيان . وكان يملك فدانا واحدا ، يزرعه فى وقت فراغه بمساعدة ابنه عويس . واختلف عويس مع جيرانه فى الأرض على الرى . وحاول الحاج موسى جاره فى الأرض ان يشتريها من عويس ، لكى يتخلص منه . ولكى يستطيع ان يقطع الماء على من يشاء من الفلاحين دون حسيب أو رقيب . ولكن عويس كان شابا مفتول الذراعين . جريئا فى الحق . لا يخاف الاقوياء . كان يحب الارض ويرفض أن يبيع حبه لمخلوق . . وكان يجد متعة فى تحدى الظالمين . وطالما قال له أبوه أبو على « وإحنا ما لنا ياعويس » . وكان عويس يرد قائلا : « وما قيمة الحياة ياأبى إذا لم ندافع عن المظلومين » .

وكان أهل القرية يعجبون بشجاعة عويس وبطولته ، ويشيدون بفروسيته ، ويحمدون الله أن ظهر من بينهم شاب يقاوم طغيان الحاج موسى واستبداده .

وتضاعفت مرارة الحاج موسى عندما تقدم إلى الشيخ عليوه مأذون القرية يطلب يد ابنته شلبية ، وليجعلها الزوجة الرابعة إلى جانب زوجاته الثلاث . وأبت شلبية ان تتزوج ، وقالت انها تحب الشاب عويس بطل القرية ، ولا ترضى بزوج سواه . . وألح المأذون على ابنته شلبية أن تتزوج الحاج موسى ، وتساءل كيف ترفض ابنته هذا الشرف الرفيع . كيف ترفض الزواج من الحاج موسى

صاحب الجبروت فى القرية ، والذى يخافه الفلاحون ويحسبون له ألف حساب . كيف ترفض رجلا يملك عشرين فدانا من أجل أبن خفير يملك هو وأسرته كلها فدانا واحدا ! وهددها بقطع رقبتها فقالت شلبية أنها تفضل الموت على أن تتزوج الحاج موسى الجبار !

وجن جنون الحاج موسى . كيف تجرؤ هذه الابنة العاقة على مخالفة أبيها ؟ كيف تهزأ القرية بالعريس المرفوض الذى كان يعتقد ان كل فلاحة فى القرية تحلم به وتتمناه ؟ وعندما عرف ان الشاب عويس هو العقبة التى فى طريقه قرر أن يزيل هذه العقبة من الطريق . ودبر مؤامرة مع معاونيه لقتل البطل الشاب . ورفض ان يقتله أحد معاونيه ، فصمم ان يقتله بيده ليشفى غليله من دم خصمه العنيد ، وأختبأ الحاج موسى فى زراعات الذرة وانتظر حتى مر عويس وأطلق عليه ثلاث رصاصات وسقط عويس قتيلا .

وخرج شهود يدعون أنهم رأوا القاتل بعيونهم التى سيأكلها الدود ، ويقسمون أن القاتل هو الشاب فرحات ، زميل عويس وصديقه الحميم ، وأحد الذين كان يعتمد عليهم عويس فى صراعه مع الحاج موسى وعصابته من الاشرار !

وجاءت الشرطة والنيابة ، واكتشفت ان البندقية التى قتلت عويس مدفونة فى أرض حديقة فرحات . الادلة كاملة . عشرة شهود رأوا القاتل . سلاح الجريمة موجود . كل شيء يؤكد ان القاتل فرحات . .

ولكن الأب ابو على لم يصدق ان القاتل فرحات . كان يعرف القاتل . كان واثقا ان الحاج موسى هو الذى قتل ابنه الحبيب . انه يذكر ان الحاج موسى هدد ابنه ونصحه ان يترك القرية كلها « والا فلن يحصل طيب » وسفر عويس من تهديد الحاج موسى وقال له أن ورائى رجالاً ها هو ذا أخرجه من الحياة كلها ، تخلص منه لينفرد بالأرض وبشلبية !

وتشجع الاب ابو على ، وذهب إلى عمدة القرية وقال له انه يتهم الحاج موسى بقتل ابنه . وسخر منه العمدة وطرده !

وذهب إلى ضابط النقطة وقدم إليه البلاغ ، فهاج فيه الضابط وقال له : لقد شكرني الحكمدار لانني أمسكت بالقاتل ، فكيف تجيء الآن لكي تنسف خطاب شكر سيادة الحكمدار ؟ !

ولجأ الاب إلى وكيل النيابة ، فاستدعى الحاج موسى ، الذى احضر شهودا يقسمون على المصحف بأنه كان فى قرية أخرى عندما وقعت الجناية ، وأقسم شهود آخرون بان الحاج موسى امتلأت عيناه بالدموع عندما سمع بمصرع عويس !

وأصر الاب على ان القاتل الحقيقى هو الحاج موسى . .

وبدأ التحقيق من جديد . . وإذا بالاب يفاجأ بان الشاب فرحات صديق ابنه الحميم قد اعترف بأنه القاتل ! وانه قتله لانه كان ينافسه على حب شلبية ! ولم يكن الاب يصدق هذا الاعتراف . .

وجاءوا له بفرحات امامه فإذا به يقول فى مواجهته انه فعلا قتل عويس . لأنه نافسه على قلب شلبية

ولكن قلب الأب لم يصدق هذا الاعتراف الصريح . قلبه يحدثه ان فرحات برىء ، شلبية نفسها قالت له ان فرحات كاذب ، وأنه على العكس كان يبارك هذا الحب ويؤيده ويشجعه ويتستر عليه .

وتصور الاب ان أهل القرية الذين طالما وقف إلى جوارهم عويس ودافع عن حقوقهم سوف يقفون معه ضد القاتل الحقيقى .

ولكنه فوجىء بهم جميعا يتخلون عنه . . لقد غربت شمس عويس . . لم يعد فى استطاعته ان يهب لنجدتهم . . ان يحارب معاركهم . ان يمنع الحاج موسى من أن يقطع عنهم المياه . انهم عادوا كما كانوا قبل ظهور عويس . يرهبون الحاج موسى . يخشون طغيانه . يرتعدون من جبروته . وهم بينهم وبين أنفسهم يرفضون ان يعترفوا بأنهم جبناء يخافون من بطش الحاج عويس ، وإنما يوهمون

أنفسهم ان الحاج موسى مظلوم ، وأن الأب أبو على مجنون . . ان الكارثة هى التى جعلت الاب يفقد عقله ، وهو لهذا يريد أن يبرىء القاتل الحقيقى فرحات ، ويتهم الحاج موسى البرىء الطيب الذى حج الى بيت الله الحرام !

وأصبح ابو على يتطلع فى وجوه أهل القرية فى دهشة وذهول !

هل يمكن ان يكون هؤلاء الذين كان يراهم كل يوم فى جامع القرية يؤدون الصلاة ، ويتجهون بعيونهم الخائفة إلى الله ، ماذا جرى لهم ؛ كيف نسوا الله فجأة ! إن الحى أبقى لهم من الميت . الظالم الحى أنفع من المظلوم تحت التراب : ولكن كيف يتبدل الناس بين يوم وليلة ؟ كيف تحولهم القوة إلى عبيد ، ويحولهم الخوف إلى شهود زور ؟ كان ابنه عويس يتباهى بأن وراءه رجالا . أين هم هؤلاء الرجال . لم يبق فى القرية من الرجال سوى شلبية ، انها وحدها هى التى لا تزال تصرخ وتقول ان الحاج موسى هو القاتل !

القرية كلها تخلت عنه . لم يعد أحد يصدقه . كل القرية نسيت ما فعله عويس من أجلها بل انهم بدأوا يؤلفون عنه القصص والاقاويل والاشاعات . بدأوا يقولون ان عويس لم يكن بطلا . انه لم ينتصر للفلاحين الضعفاء . ان المسألة كلها كانت خناقة غرامية على حب شلبية أجمل فتيات القرية ! إن الحاج موسى هو البطل الحقيقى . . هو الذى اعترض على أن يغرى عويس شلبية . ان الحاج موسى كان يدافع عن عرض كل امرأة فى القرية ضد عويس لص الاعراض .

وذهبت شلبية إلى بيت ابو على تبكى وتنتحب . أن أباها يرفض ان تقيم مأتما للرجل الذى أحبته . يرفض ان تزور قبره كل يوم . وهى فى فجيعتها تلوم هى الاخرى حبيبها عويس وتقول :

ـ لو أن عويس ترك الحاج موسى يعتدى على باقى الفلاحين ، ويقطع عنهم المياه ، ويسرق مواشيهم ، وينهب محصولاتهم ، لبقى حيا مثل باقى الفلاحين ! لو أنه أغمض عينيه لنال حقه وأكثر من حقه ، ولكنه فتح عينيه ، وجعل كل

فلاحى القرية يفتحون عيونهم . . وماذا كسبنا الآن من فتح عيونهم .

انه ما كاد يموت حتى عادت القرية تغمض عيونها من جديد ! حتى هذه التضحية ذهبت هباء ! ليته أغلق عينيه وعاش !

ولم يهتم أحد بما تقوله شلبية . القرية أصرت على أن هذا كلام مجانين . شهود الزور أنفسهم تصوروا أنهم شهود حق . ألم يعترف فرحات انه القاتل . حتى الذين خبأوا البندقية فى أرض فرحات أصبحوا مع تكرار ترديد الاكذوبة ينسون انهم شركاء القاتل الحقيقى . . فعندما يمشى موكب الضلال فى زفة ، تتوارى الحقيقة خجلا ، وتخفى وجهها ، كأنها أصبحت فضيحة . الاكذوبة عندما تركب حصانا ، وتتقدمها الطبول والمزامير ، تركع الحقيقة أمامها ، لانها تتحول الى أسيرة ، إلى عبد رقيق ، جارية لا قوة لها ولا سلطان . ينكرها الذين يعرفونها ، كما تنكر الاغنياء لأقاربهم المعدمين .
وعرضت القضية على محكمة الجنايات . وتقدم شهود الزور يدلون بأقوالهم ، واقترب الأب أبو على من القفص وهمس فى أذن المتهم فرحات : لماذا اعترفت كذبا ؟ وتلفت فرحات حواليه ، وقال بصوت مرتعش : ضربونى فى المركز ، وقالوا لى يجب أن تعترف بأنك القاتل ، والا فسوف تفسد خطاب الشكر الذى ارسله سعادة الحكمدار إلى حضرة الضابط .

واقتحم ابو على القفص وعانق فرحات وهو يصرخ بأعلى صوته :

ـ فرحات مظلوم . والله مظلوم . القاتل هو . . . .

وقبل ان ينطق باسم القاتل أطبق عليه رجال الشرطة ، وصاح أهل القرية الذين يملأون قاعة المحكمة :

ـ مجنون . . . مجنون ! هل رأيتم قبل الآن أبا يعانق قاتل ابنه الوحيد ؟ القاتل الذى قتل ابنه من أجل شلبية !

وصاح رئيس المحكمة : اخرجوا هذا المجنون من قاعة الجلسة .

وأصدرت المحكمة حكمها على فرحات بالسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة .

وعاد أبو على إلى القرية يتعثر فى دموعه . عاد يكلم نفسه .
أطفال القرية يزفونه فى أزقتها : المجنون أهه . المجنون أهه .
أليس المجانين يحدثون أنفسهم ، الا يمشون ذاهلين مثله .
يتخبطون فى سيرهم مثله . من يعلم . . لعل مستشفى الأمراض العقلية ملىء بألوف مثله . ظلموا كما ظلم وأغلقت فى وجوههم كل أبواب العدالة كما حدث له . . ودخل بيته وهو يلطم وجهه وفزعت زوجته مبروكة لمنظر زوجها وسألته ما به :

قال لها : ابنى عويس . . . مات .

قالت : نعم مات من تسعة شهور .

قال : لا إنه مات اليوم فقط . . اليوم رأيته قتيلا فى المحكمة . . الذى قتله قتله امامى فى ساحة المحكمة . . كل هذه الشهور لم أشعر أنه مات . كنت اعتقد انه سيعيش ما عاشت العدالة . عندما تمسك العدالة بالمجرم الحقيقى سوف اشعر ان ابنى لم يمت . المبادىء التى حارب من أجلها لم تمت . ولكن اليوم فقط عندما حكمت المحكمة بالسجن على البرىء وتركت القاتل حرا رأيت ابنى شهيدا ، ورأيت العدالة قتيلا أمامه .

وجلس ابو على على الأرض . دفن رأسه بين يديه . أشعل سيجارة . راح يتفرج على حلقات الدخان . ان حياة ابنه عويس مثل هذا الدخان ، طارت . لم يبق منها أى شىء . حتى قصص البطولة تطايرت فى الهواء . .

ووقف على قدميه كأنه اعتزم أمرا . اتجه إلى بندقيته المعلقة فى الحائط . . تقدم نحوها . . لمسها . ثم تردد وسحب يده ، وفتح المصحف وراح يقرأ بعض الصفحات ، ثم قام وصلى صلاة المغرب .

وجلس على الأرض من جديد ، ودفن رأسه بين يديه . ثم سمع دق

الطبول ، وأصوات الفلاحين ينشدون من بعيد :

البنت السمرة . . شلبية

الحلوة ام عيون عسلية

قمورة . . . وخفة . . . وغندورة !

والقلب ما حبش غير هيه !

وتذكر ابو على ان اليوم هو يوم زفاف حبيبة ابنه شلبية إلى قاتل ابنه عويس ! ان جرائم الحاج موسى لا تنتهى . لا يكفيه انه قضى على ابنه عويس . لم يكفه أنه قضى على صديق ابنه فرحات . ولكنه الليلة يرتكب جريمة قتل اخرى . قتل شلبية . . . انه يعرف أن شلبية لا تزال تحب ابنه عويس . . حتى بعد ان دفنه فى التراب . اننا أحيانا نشعر أن الموتى أحياء ، والأحياء موتى .

ويجز أبو على على شفتيه ويتساءل : ولكن لماذا لم تقاوم شلبية أكثر مما قاومت ؟ لماذا لم تصر على الرفض . فى الماضى نجحت فى المقاومة لان عويس كان بجانبها . كان الدرع الذى يحميها . كان السلاح الذى تشهره . كان عمودها الفقرى ولكنها أصبحت بغير درع وبغير عمود فقرى . كانت قلعة يصعب اقتحامها لان عويس كان سور القلعة وأبوابها . والآن هى بغير سور ولا أبواب . اننا نستطيع ان نصمد فى المحن إذا وجدنا قلبا نستند إليه ، أو حبا نركن إليه . ولكن يوم نفقد الحب ويضيع منا الحب نتهاوى ويسهل كسرنا . الذين لا عمود فقرى لهم يمشون منحنين لانهم لا يستطيعون أن يصلبوا قامتهم ، أو يرفعوا رؤوسهم .

نعم لقد قاومت شلبية ولكنها قاومت وحيدة فركعت ، ثم انكفأت على وجهها ، ثم داستها قوة أبيها الذى كان يعرف جيدا ان الحاج موسى هو القاتل ، وكان يخشى لو صمدت ابنته ان يقتلها ويقتله معها . ومن هنا لم يرحم دموعها .

فضل أن يدفنها حية فى منزل الحاج موسى مع زوجاته الثلاث ، على أن يدفنها جثة فى إحدى مقابر القرية . .

وعاد ابو على يتساءل : ولكن أين أهل القرية الذين أحبوا عويس ، وأحبهم عويس ؟ هل انشقت الارض وابتلعتهم ؟ اين كان الذين يشجعون عويس وهو يقاوم ، ويهنئونه وهو ينتصر ويشيدون به كلما استطاع أن يوصل إليهم المياه بعد ان قطعها عنهم الحاج موسى ؟ كيف مشوا فى زفة القاتل ، وتركوا جنازة القتيل ؟ كيف زغردوا فى فرح الظالم ولم يبكوا فى مأتم المظلوم ؟ صدقت شلبية . لو أن ابنه لم يحارب من أجل هؤلاء المظلومين لكان الآن هو العريس . ولكان الأب أبو على يستقبل المهنئين ويوزع عليهم أكواب الشربات ؟ هل كان يجب على عويس ان يسكت . أن يترك زراعة مئات الفلاحين تموت من أجل ان يعيش هو ؟ هل كان يجب على عويس أن يسد أذنيه بالامس فلا يسمع أنين المظلومين ، ليسمع فى يوم ما زغاريد فرحه هو ؟ هل كان يجب على عويس ـ لكى يعيش ـ أن يموت ضميره ؟ ولكن كيف ينسى أهل القرية كل ما فعله عويس ؟ انهم يذكرون الجبناء الذين لم يدخلوا المعركة ، وينسون الشهداء الذين ماتوا من أجلهم . المجد للذين بقوا والعار للذين ذهبوا ! . .

ولكن لماذا يلوم أهل القرية لانهم لم يفعلوا شيئا ؟ ماذا فعل هو ؟ وتطلع ابو على إلى بندقيته المعلقة إلى الحائط ، وكأنه يتحدث إليها . ثم اتجه إليها وضمها إلى صدره وكأنه يعانقها ومشى فى خطوات بطيئة فى الظلام إلى الفرح . . . وأصوات الدفوف والزغاريد تمزق اذنيه .

وتعالت أصوات الدفوف . وارتفعت أصوات الزغاريد ، وفهم أبو على انها لحظة الدخلة وقد اعتاد الفلاحون ان يرفعوا أصواتهم بالزغاريد فى هذه اللحظة ليخفوا صراخ العروس لحظة إزالة بكارتها !

ولكنه لم ير منديل البكارة تلوح به أم العروس . . بل رأى شلبية وهى تحمل سكينا كبيرا تلوح به . والدم يتساقط من السكين . . وما كادت ترى ابو على

حتى ارتمت فى صدره وهى تقول :

ـ موش أنا اللى قتلته ياعم ابو على . . . دى البلد هى اللى قتلته ! . . .

وعرف أبو على ان شلبية أرادت ان تغسل عار القرية ، التى لم تتحرك لتثأر للشاب الذى دافع عنها ، فقررت ان تتحرك هى نيابة عن القرية . . . واغمدت فى صدره السكين فى اللحظة التى أراد أن يدخل بها ! قتلته وهو يترنح من السكر ومن نشوة الانتصار . . .

وحكمت المحكمة بالسجن المؤبد على شلبية ، وأودعت فى سجن القناطر . .

وانتهى المسجون فرحات من رواية القصة الغريبة ثم قال لى :

ـ انا سيفرج عنى . بعد ١٤ سنة ، وشلبية سيفرج عنها بعد ١٥ سنة طبقا للعفو عن المسجون المحكوم عليه بالمؤبد بعد ١٥ سنة

ثم نظر إلى وفى عينيه توسل غريب .

ـ أريد منك خدمة : أريد ان تكتب باسمى خطابا إلى شلبية تعرض عليها الزواج ، بعد أن يفرج عنها بعد ١٥ سنة .

قلت : اذن كان صحيحا إنك كنت تحبها ؟

قال : ابدا . . انى احببتها الآن بعد أن أعادت إلى قريتنا شرفها وكتبت الخطاب الذى طلبه فرحات ، ووقع عليه ببصمته لانه لا يعرف القراءة والكتابة . .

ودهشت بعد أسبوعين عندما جاء فرحات إلى زنزانتى متهللا وقدم لى ورقة مكتوبا فيها ما يأتى :

« سأنتظرك ١٥ سنة »

الامضاء : شلبية

ترى هل سيعيش الحب فى الزنزانة ١٥ سنة ؟

لست ادرى !

فاطمة رشدى فى السجن !

ليمان طرة فى ٢ أغسطس سنة ١٩٦٧

عزيزتى

اخشى ما أخشاه أن تجىء خطاباتى إليك كليالى الشتاء ولكنى أعرف قيمة خطابى لكم ، لاننى أعرف قيمة خطاباتكم لى .

لو رأيت عيون المسجونين وهم يستقبلون المسجون الذى يوزع الخطابات ، كأنه ملاك نزل عليهم من السماء . كل مسجون يسرع إليه ، ويسأله هل يحمل له خطابات جديدة ؟ سحنة المسجون السائل تنقلب من السعادة إلى البؤس ، ومن الأمل إلى اليأس ، مع كل كلمة تخرج من فم هذا الملاك الذى يحمل خطابات المسجونين . وهذا المسجون لا يشبه الملائكة . ليس له أجنحتها . وليس فيه ملامحها . انه مسجون محكوم عليه بتهمة القتل ، ومع ذلك فالخطابات التى يحملها تحوله فى عيون المسجونين إلى ملاك جاء من السماء ! انه يحمل فى يده عواطف الزوجات ودموع أمهات وأشواق أبناء ولوعة عاشقات . والمسجون ينتظر من أهله أن يقولوا له أشياء كثيرة لا يقولونها ومع ذلك يسعد بهذه التحيات الساذجة . يقرأ أسماء اولاده وكأنه يقبلهم . ويلتهم تحيات زوجته وكأنه يعانقها . ويحس من سلامات معارفه وأهله أنهم يزورونه ويتحدث اليهم .

بعض الخطابات أشبه بالتلغرافات ، ولكن المسجون يقرأها كأنها . مجلدات يقرأ فيها كلمات لم تكتب ، ويفهم عبارات لم تدون ، ويتصور أشياء لم تخطر على بال الكاتب العمومى الذى كتب لأهله الخطاب ! هذه الخطابات حوار . وكثيرا ما يكون هذا الحوار من طرف واحد ، لان المسجون لا يستطيع ان يكتب إلا مرتين كل شهر . انهم أحيانا يحدثونه عن أشياء نسيها . أو ينسون أن يجيبوا على أسئلة سألها . وعندما يكتب المسجون خطابا يتمنى أن يطير هذا الخطاب إلى أعزائه بجناحين ، فهو يتتبع خطواته وخطوات الخطاب . هل وقع عليه

الضابط ؟ هل خرج من العنبر ؟ هل خرج من البريد ؟ هل خرج من الليمان ؟ انهم يشعرون ان الخطاب هو ولد من أولادهم يخشون عليه من زحام الطريق . يخافون ان يدوسه أوتوبيس . يجزعون ان يتوه ويضل العنوان . ومن هنا فإن بعضهم يكتب خطاباته مسجلة حتى يضمن وصولها إلى أهله . وبعضهم لا يملك ثمن طوابع بريد الخطاب المسجل ، ويبيع طعامه ، أو يحرم نفسه من شراء طعام يشتهيه ليشترى طوابع كافية ، يضعها على الخطاب المسجل أو الخطاب بعلم الوصول .

وبعض ضباط السجن قساة القلوب غلاظ الاكباد يتعمدون تأخير إمضاء الخطابات أياما وأحيانا أسابيع بحجة أنهم مشغولون فيما هو أهم ، أو يقولون إنهم وضعوا نظاما ألا يوقعوا الخطابات الا فى يوم ١٥ ويوم ٣٠ كل شهر ، فإذا كتب المسجون خطابا فى أول الشهر بقى الخطاب مسجونا فى مكتب الضابط إلى يوم ١٥ فى الشهر !

وبين المسجونين فريق المنتظرين . هؤلاء الذين ينتظرون بغير جدوى وصول خطابات أحبائهم . يسألون عن الخطابات فى الصباح والظهر ، فى الأيام العادية وفى الاجازات والاعياد ، ولكن الخطابات لا تجىء . وترى فى عيونهم الحسرة . انهم جوعى الى خطاب . إلى كلمة . إلى شىء يربطهم بالحياة . أعرف واحدا منهم كان يكتب لنفسه خطابات وهمية ، يعرضها على زملائه مفاخرا مباهيا ، يحاول ان يخدعهم ان له أهلا يسألون عنه ويهتمون به ويتشوقون إليه . وزملاؤه يعرفون من خط الخطابات أنها بخطه هو ، ولكنهم يشفقون عليه ان يخرجوه من الجنة الموهومة إلى جهنم الحقيقة .. جهنم النسيان .

انتهز ضابط انسان فرصة مبيته أمس فى الليمان وسمح للمسجونين فى العنبر ان يتفرجوا على التليفزيون . كان يعرض فيلما قديما منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ، واسمه الصراط المستقيم بطلته فاطمة رشدى ويوسف وهبى . بدت فيه الطرابيش التى اختفت ، وموضات الفساتين التى تغيرت ، والدنيا التى تبدلت . ولاحظت أن المتفرجين من المسجونين الشباب كانوا يسخرون من فاطمة

رشدى ، ويهزأون من تمثيلها ، ويضحكون من دموعها ، وكثيرون منهم راح يسأل من هى فاطمة رشدى ؟

ولم يعرف هؤلاء ، انهم قبل أن يولدوا ، كانت هذه المرأة التى يسخرون منها هى ممثلة المسرح الأولى فى الشرق . كانت الجماهير تهتف لها فى الشوارع وكأنها أحد الزعماء السياسيين ! كانت تدخل العواصم العربية فى مواكب الغزاة الفاتحين . كانت فتاة أحلامنا ونحن تلاميذ .

أذكر أننى وأخى كنا نصدر ، وعمرنا ١٤ سنة ، مجلة اسمها « التلميذ » وكانت فاطمة رشدى هى فتاة الغلاف فى كل عدد من أعداد المجلة ! وكانت تقيم للطلبة حفلات نهارية بأسعار مخفضة . وأطلقت عليها أنا اسم « صديقة الطلبة » وأعجبها الاسم فكانت تضعه تحت اعلانات مسرحها التى كانت تغطى جدران كل الشوارع . ورأت فاطمة المجد والشهرة ، ورأت الغنى الباذخ والفقر المدقع . وكانت فى وقت من الاوقات تنزل فى الجناح الملكى فى فندق جورج سانك فى باريس ، ثم جاءت أيام كانت تعيش فى غرفة فى بدروم وتعجز ستة أشهر عن دفع ايجارها الزهيد . كانت صاحبة أكبر فرقة مسرحية فى مصر . وكانت تدفع عشرات الألوف من الجنيهات مرتبات لأكبر الممثلين والممثلات ثم أصبحت تعمل ممثلة مع فرق تلاميذ المدارس وتتقاضى خمسين قرشا فى الليلة . هاجمها يوما ناقد مسرحى هجوما ظالما ، وخلعت حذاءها وضربته فى شارع عماد الدين . ووقفت كل صحف مصر ومجلاتها ضدها ، تهاجمها وتلعنها وتسخر منها ، ولكنها انتصرت عليها كلها . وكان مسرحها يمتلىء بالمتفرجين ، وكأنهم يردون على الصحف التى كانت تلعنها كل يوم !

وذات مرة اهداها أحد أصحاب الملايين سوارا ثمنه ألف جنيه ذهبا ، ورفضت ان تضع السوار فى يدها ، وفضلت أن تبيعه وتنفق ثمنه على مسرحها ، ليستمتع جمهورها بمسرحيات ممتازة . ضحت بكل شىء من أجل الفن حتى سعادتها الشخصية حتى اسرتها داست عليها ، حتى حبها . وأذكر انها قالت لى مرة انها تفكر فى الانتحار ونصحتها ألا تنتحر ، وأن تعيش وتقاوم . واستمعت

فاطمة لنصيحتى وعاشت . . ولعلها الآن تلعننى ، لو أنها ماتت فى تلك الايام لشيعت فى جنازة رسمية ، لمشى مئات الألوف وراء جثمانها . لاشترك فى الموكب الكبراء والوزراء . . . ولنشر نعيها بالعناوين الضخمة فى الصفحة الاولى . وعندما ستموت اليوم لن تجد ثمن الكفن . ولن تجد القبر الذى تدفن فيه .

وسيحمل نعشها فاعل خير ، فى موكب ليس فيه سوى النعش . وسيتساءل المارة من هى المرحومة ؟ وسيقول قائل هى فاطمة رشدى . ويستغرب الكثيرون ويسألون من هى فاطمة رشدى ؟

هكذا كانت أفكارى وأنا أشهد الفيلم فى التليفزيون ، كنت اتفرج على رواية أخرى لم يشهدها الذين يجلسون معى ، وكنت أرى خاتمة للقصة قد لا يراها سواى !

من سوء حظ النجوم انهم لا يعرفون الموعد المناسب لاسدال الستار !

زئير الصامتين

٨ أغسطس سنة ١٩٦٧

عزيزى
أنت ساخط . . وزملاؤك الصحفيون ساخطون .

فى حياتى اليومية فى السجن أسمع زملائى المسجونين الساخطين على الحياة الذين طلقتهم زوجاتهم ، والذين تنكر لهم أقاربهم ، والذين نسيهم أصدقاؤهم . كل واحد من هؤلاء يمسك فى يده ميكروسكوبا يضخم له عذر من أحبهم فى يوم من الأيام . مثل هؤلاء أحاول أن أقنعهم بوجهة نظرى فى الحياة . لا يجوز أن نحكم على كل الناس بجريمة فرد واحد . أنا أومن ان الاغلبية العظمى للناس طيبون ، ولا يجوز أن يحكم الواحد منا على ملايين البشر لان عشرة أشخاص أساءوا اليه . تماما كأن تركب طائرة إلى ستوكهلم عاصمة السويد ، وتنزل فى بيت أسرة زنجية ، ثم تعود إلى القاهرة متصورا ان كل أهل السويد من الزنوج !

تجربتى مع الحياة أكدت لى أن الارض مليئة بالناس الطيبين . رأيتهم فى كل مكان ، وفى كل مستوى ، وفى كل بلد . الذين أحسنوا إلى أضعاف أضعاف الذين أساءوا إلى . حتى الذين اساءوا إلى أحاول أن أجد لهم المبررات والاعذار .

ليس معنى اننى بذرت بذرة ولم تنبت أن أترك الأرض كلها صحراء ولا أزرع فيها شيئا . أننى أحيانا أبذر بذرة فى أرض ، فتخرج الثمرة في مكان آخر غير مكان البذرة الذى زرعتها فيه , لولا إيمانى بأن الخير فى الاغلبية الساحقة للناس لكرهت الحياة . ولكنى أحب الحياة لاننى أحب الناس ، كل الناس ، بمزاياهم وعيوبهم . وعندما يسيء إنسان إلى لا ألومه . بل أحاول أن أعرف سر ما فعل ،

أحاول أن أفلسف الاساءة . ثم أتذكر انني مدين إلى ألوف لم أعرفهم ، ولم أخدمهم . المثل يقول « أعمل الخير وارمه فى البحر » وهو مثل جميل . الخير لن يغطس ابدا فى البحر ولن يغوص فى الاعماق . أنه مثل قطعة الفلين يعوم . إذا غرق الواحد منا فى بحر الزمن . فسوف يجد قطعة من هذا الفلين يتعلق بها . قد لا تكون قطعة الفلين التى ألقاها هو فى البحر . لعلها قطعة فلين ألقاها شخص آخر . لم يجدها عندما سبح فى البحر وبحث عنها فى نفس المكان الذى رماها فيه ! حبى للناس يجعلنى أحس أننى لست محروما من شيء . نعم حرمت من أسرتى الصغيرة ، وعوضنى الله فجعل كل المسجونين حولى ، هم أسرتى الصغيرة ، أمنحها حبى وأهتمامى . أفرح لفرحها وأشقى لشقائها . وليس مهما أن أتقاضى من الناس حبا يساوى الحب الذى أعطيه لهم ، فالحب ليس تجارة ، تأخذ ثمن ما تدفع . إنما الحب عاطفة لذتها أن تعطى .

وفى بعض الاحيان أتصور أننى أطلب من بعض الناس أكثر مما يستطيعون أو يتخيلون ، ذلك أن الله أعطانى حبا عظيما هو حب الناس ، وهو شيء قد أكون استمتعت به وحدى ، ربما أضعاف ما تمتع به الذين لم يعرفوا حلاوة حب الناس كما ذقتها ، ولم يلمسوا وفاء الشعب كما لمسته . وعندئذ أعذر من لا يعرفون قيمة الحب . . كيف تطلب من الذى لم يذق طعم الخوخ أن يصف حلاوته ، ومن لم ير شكله أن يصف جماله ! كل واحد منا أمسك فى يده وردة وجرحه شوكها . بعضنا نسى الشوك ولم ينس جمال الوردة وعبيرها . وبعضنا نسى كل شيء عن الوردة ولم يذكر سوى الدم الذى سال من أصابعه !

ويبدو ان نظرتى إلى الحياة تختلف عن نظرة كثير من الناس . بعض الناس يتصور اننا محكوم علينا جميعا بالاعدام ، ولا نعرف موعد تنفيذ الحكم . وأرى أنه من الخطأ ان تنظر إلى الدنيا هذه النظرة المتشائمة . الحياة جميلة جدا . ونحن نصنع حياتنا بأيدينا ، وإيماننا وحده هو الذى يجعل حياتنا جنة . . فاذا لم نعرف الله عرفنا الجحيم .

تقول لى فى خطابك أنك وتلاميذى تعيشون فى ظلام . ليل ليس له نهار .

سجن بغير باب . حياة بلا أمل . تكتبون كآلات الكتابة يدق عليكم الحاكم بأصابعه . فتتحرك حروفكم وتكتب ما يريد أنا متفق معكم فى أن هذا أسوأ ما يحدث لكتاب وصحفيين عندما يتحولون من حملة أقلام إلى حملة مباخر ، ومن قادة رأى إلى قادة مظاهرات تهتف بحياة الحاكم فوق صفحات الصحف . ولكنى لا أحاسبكم وإنما أحاسب الذين وضعوا السلاسل التى فى أيديكم . لا ألوم ألسنتكم البكماء وانما ألوم الذى قطعها . لا استنكر أيديكم المرفوعة استسلاما فى الهواء ، وإنما استنكر المسدسات التى يصوبها الطغاة على رؤوسكم .

أنا أعرف أن أعصابكم مرهقة ، فان الدوامة التى تعيشون فيها قادرة على أن تتلف أقوى الاعصاب . أعرف ان كل شيء قاحل حولكم . وأنكم تعيشون فى صحراء قفراء ليس فيها واحة واحدة من الحرية . وأن كل ما يقال غير ذلك هو سراب لخداع السذج وأطفال الصحافة . ولكنى مؤمن أن الله لن يتخلى عنكم . انى اشتريت ورقة يانصيب هى المستقبل ! . . الجائزة الاولى فى هذا اليانصيب هى الحرية الكاملة ! قد لا تكسب « البريمو » . . ولكنى مؤمن أننا لابد ان نكسب بعض الحرية ، ثم نكسب بعد ذلك كل الحرية ! المهم ألا تيأس ولا تتصور ان صراخ الطغاة هو زئير الاسود ، وانما هى أضوات الذئاب فى الغابة ! لا تصدق أن الاستبداد كسب معركته الاخيرة ، فهذه الحرب سوف تستمر ، بين خصوم الحرية وأنصارها ، إلى أن ترتفع اعلام الحرية وتنكس اعلام الاستبداد . إيمانى هذا لا يتزعزع . لا يستطيع ان يحطمه السجن ولا الوحدة ولا سوء المعاملة ولا النهار الحزين ، ولا الليل المليء بالهموم . أنا أعرفكم . انكم تشعرون جميعا فى أخبار اليوم كأنكم لا تقيمون فى أى مكان . كأنكم واقفون فى محطة تنتظرون قطارا لا يجيء . تسائلون انفسكم هل أنتم تقفون فى محطة الانتظار أم هى محطة الوصول . تنظرون حولكم فتجدون أن كل شيء كئيب . مظلم . معتم . الاقلام فى أيديكم قيود ، الصحف فى أعينكم جثث ، الأعمدة مشانق تعلق فيها الكلمات . الاخبار نشرات العلاقات العامة فى كل وزارة . الآراء هى رأى الحاكم وحده بلا شريك . المانشيتات هى اسمه يتكرر فى كل صباح كأنه واجب مفروض على كل من يشترى جريدة . الصور كلها

لرجل واحد هو الذى يبتسم ويفكر ويقف ويجلس ، ويسافر ويجىء .

هذا يحدث دائما فى كل بلد تذهب فيه صحافة الشعب وتجىء صحافة الحاكم .

انني على ثقة أن أزمة الصحافة مؤقته . هذه القيود تزعجنا ولكنها لن تقتلنا : ستبقى أصابعنا تأكلنا لنحمل الاقلام التى تتحول فى يوم من الأيام إلى مشاعل للحرية . ايماننا بالغد لا يجوز أن يضعف ابدا . الصحافة لابد ان تبعث حية . لو قطعوا لسانها فسوف يولد لها ألف لسان . يجب ان نشعر جميعا اننا أقوى من الازمات أقوى من المحن . أقوى من قيودنا وأغلالنا . ثقتى بكم تجعلنى أعتقد أنكم قادرون على أن تمشوا فوق الشوك . لقد مشيتم فى السنوات الاخيرة فوق النار . النار جعلت جلودكم أكثر احتمالا . . المشى فوق الشوك أصبح أسهل كثيرا !

اكتبوا بأقلامكم « المقصوفة » . . . اذا انتزعوا منك الاقلام فاكتبوا بأصابعكم . . لو قطعوا أصابعكم فألقوا بالنكت ! لو انتزعوا ألسنتكم فاخرجوا صامتين . . ربما يكون الصمت أعلى صوتا من الزئير !

لابد أن تنتصر الحرية !

إذا لم تستطع ان تكتب الآن فى السياسة فاكتب فى الجريمة !

كم من الجرائم ترتكب فى السياسية الآن !

اذا لم تستطع ان تكتب عن الجرائم اكتب قصصا للأطفال !

قد يفعل الاطفال فى الغد ما عجز عنه الرجال بالامس !

على بلاج ليمان طره !

فى ١٢ أغسطس سنة ١٩٦٧

صديقى . . .

لا أشعر فى هذه الايام برغبة فى الكتابة . الحبر جف فى قلمى . روحى أصابها الصدأ . كأننى كنت أسبح فى البحر . وواجهت العواصف والانواء ، وأنا لا أكف عن السباحة . ثم فجأة توقفت . هل تجمدت يداى فلا تتحركان ؟ هل شعرت أننى اقتربت من الشاطىء فتركت جسمى للتيار يحمله معه ؟ لست أدرى . هل أفرغت كل ما عندى ولم يعد لدى ما أقوله . على العكس ، ففى قلبى ورأسى وروحى أشياء كثيرة ، أكثر مما قلتها ، أريد أن أقولها ، ولا أعرف لماذا لا أقولها . لماذا لا أمسك القلم وأكتب . القلم كان دائما حبيبى . كان حضن « الأم » فى نفسى . كلما شعرت بضيق أو فرح أسرعت إلى هذا الحضن أدفن فيه رأسى . الآن لا أفعل ذلك . ربما لان الطفل قد كبر وشاخ . ولكن لم أشعر بعد بالكبر والشيخوخة . المحن والآلام جددت شباب روحى . أعيش فى السجن شبابى المبكر الذى حرمت منه . حياة ليس فيها مسئولية ولا كفاح شاق . ولا عرق مستمر . أجازة طويلة . طويلة جدا . روحى أشبه بجسد متسلق على شاطىء الزمن . أرقب مياه البحر وأمواجه فى استرخاء . استمتع بالشمس وهى تسبح فى البحر وتغرق فيه . بذلة السجن فى المايوه الذى أرتديه وأنا أرقد على الشاطىء ! عشت طول حياتى فى العواصف . فى البحار الهائجة الغاضبة . كنت أشبه بقبطان باخرة كبيرة . كبيرة جدا . تسع ملايين الركاب . كنت أشعر طول عمرى كأننى المسئول الوحيد عن هذه الباخرة . كل عطل فيها . كل ثقب . وهكذا لم استطع ان أنام أو استريح أو أهدأ . كل حياتى كانت قلقا . لا أخرج من عاصفة إلا لأدخل فى عاصفة أخرى . ثم هأنذا الآن راقد على البلاج . بلاج ليمان طره . . أرقب البواخر وهى تمشى أمامى ، وتختفى وتغيب . كرهت البطالة طول حياتى . لم استمتع يوما بمقعد المتفرج . كنت اتمنى أن أموت فوق

سفينتى ، أو أغرق معها . ولكن الظروف شاءت أن أجد نفسى مسترخيا على رمال بلاج الزمن ، مثلى مثل ألوف الكسالى الذين يمضون أجازاتهم راقدين على رمال بلاج المعمورة والمنتزة .

أرقد على البلاج وأرى بلدى يغرق !

وأنا مقيد بالسلاسل لا استطيع أن اشترك فى انقاذها !

التقيت هذا الاسبوع بأولادى . لقاء السلك حطم أعصابنا . بكاء ابنتى هزنى . تماسكت حتى لا أبكى معها . خرجت سريعا من الغرفة . احسست بأن أولادى يشعرون بالهوان لان الأوامر جاءت بأن تتم زيارة المسجونين السياسيين من وراء السلك شأن القتلة واللصوص ! الذين يضربوننا بالسياط لا يعرفون كم تؤلمنا . لعلهم يتصورون انهم يربتون بسياطهم على ظهورنا ! آثرت ان ألا أكتب اليك حتى تهدأ نفسى ويخف عذابى . الذين عاشوا طول حياتهم فى حب وحنان وفى دنيا من الرحمة والعاطفة يرتعشون فى جو أوامر الحكام الصارمة التى لا قلب لها . ما أصعب الانتقال من دفء الانسانية اللذيذ إلى برودة الوحشية القاتلة ! هل يجىء يوم يذوق فيه هؤلاء القساة معنى السجن وقسوة الزنزانة وعذاب لقاء الاولاد فى الليمان ؟

الحياة فى السجن ليست فترة للتكفير ، بل هى فترة للتفكير . لا عمل لنا إلا أن نفكر . خلايا عقولنا تتحرك بين القضبان أسرع مما تتحرك فى الحياة العادية . دوى الحياة خارج السجن يجعل خلايا عقولنا تبطىء ، ننشغل بأمور الدنيا وحركتها السريعة حولنا . والذين يمشون على أقدامهم يفكرون أكثر من الذين يركبون سيارة . والذين يركبون سيارة يفكرون أكثر من الذين يركبون طائرة . والذين يركبون صاروخا لا يفكرون الا فى الصاروخ . ونحن فى السجن لا نمشى ، وانما نتوقف والزمن يمر أمامنا . وأحداث الزمن لا تجرى بسرعتها العادية ، فهى عندما تمر أمامنا تبطىء . تتعثر . تتمهل . كأنها موكب المسجونين المقيدين بالسلاسل يمشى فى طابور . ويتوقف المسجون أمامنا لنفتشه .

لنتحسس كل جزء فى جسده . لنعرف ما يخفيه . ذكرياتنا تمشى أمامنا كهذه الطوابير . طوابير لا تنتهى . تذهب وتجىء . ومن هنا لا ننسى الاحداث . لانها تمر أمامنا عدة مرات . عرفنا اسماءها . عرفنا وجوهها . عرفنا ما تخفيه من ممنوعات فى طيات اسرارها . كلما حاولت أن أنسى زادت حدة ذاكرتى . أشياء كثيرة فى حياتى كنت نسيتها ، فإذا بها تعود . بكل تفاصيلها وكل دقائقها . كل كلمة قيلت . كل لفتة . كل ابتسامة . كل دمعة . كل حركة . كل لحظة صمت . لم تعد الحياة تحسب بالسنين . أصبحت تحسب بالأيام ، ثم بالساعات ثم بالدقائق ثم بالثوانى . كل كلمة تقود إلى كلمة أمور تافهة لم أتصور أننى اتذكرها . تفاصيل طواها الزمن . أحاديث عابرة . كل هذا أصبح يتوقف أمامى . كما يحدث فى السينما عندما يثبتون صورة فى الفيلم بلا حراك . فيترك لى هذا فرصة أكبر لاتبين أشياء لم أتبينها وحياتى تنطلق بسرعة الصاروخ .

الجعان يحلم بسوق العيش ، والمحروم من الحرية يحلم بحريات لا حدود لها . مصيبتى أنه لا يعيش فى داخلى شخص واحد كباقى الناس . فى داخلى اشخاص كثيرون : الصحفى والمسجون والكاتب والسياسى والفنان . كل واحد من هؤلاء له شخصية ، وله تاريخ حياة ، وله ماض وحاضر ومستقبل . وله أفكار وأحلام . وهم يتناقشون ويتعاركون داخل روحى . . يختلفون باستمرار ، ولكنهم يعيشون معا . أسمع أصواتهم كأن كل واحد منهم يريد أن يربحنى لنفسه ، ولكنى مقسم بينهم جميعا . تائه . حائر . عزائى أنهم جميعا يحبون شيئا واحدا هو الحرية .

عندما تمر أمامى ذكريات حياتى أتصور أننى أشبه بامرأة فى استعراض أزياء . عارضات الازياء يمشين أمامها . كل شىء فيهن جذاب وجميل ورائع . كل ثوب أنيق وفتان . وهى حائرة أى فستان تختار . تتمنى لو استطاعت ان تأخذ الاثواب كلها .

وهكذا أنا لا أعرف ما أريد أن اخذ من ذكريات أيامى ولياليى وما أدع . اريدها كلها . بكل ما فيها من ألوان وأشكال وأنواع . أثواب الصباح وبعد

الظهر والسهرة ! الاثواب الطويلة والقصيرة . المغلقة والمفتوحة . المايوه وفستان السواريه .

كل ذكرياتى فى حياة الحرية حلوة حتى دموعى . ليالى القلق ، والارق والسهاد ! ما أحلى طعم الاشياء التى كانت توجعنى فى الحرية ، وما أمر الأشياء التى أصبحت تسعدنى فى زنزانتى !

ذكرياتى فى الحرية تبدو أحيانا كالبلسم يشفى جراحى ، وتبدو أحيانا كالخنجر يغمد فى صدرى . . ولكن طعنة الخنجر تبدو لذيذة رائعة مثيرة . هذه الذكريات تقاوم الوحدة والسجن والموت . هى نوافذ اطل منها على الماضى وأطل منها على المستقبل . وهى قوى خفية تمنحنى قدرة على المقاومة والصمود أمام المحن . اننى لا أنوء بما احمل من ذكريات الماضى . هذه الذكريات لا تجعلنى اسقط تحت ثقلها وضخامتها ، بل انطلق إلى احلام المستقبل .

اخيرا صرحت لى مصلحة السجون اليوم بقراءة جريدة مصرية واحدة ومجلة أسبوعية واحدة . وقد كان منع الصحف عن المسجونين السياسيين عقب الهزيمة كارثة ما بعدها كارثة . . وكانت عملية تهريب الصحف إلى داخل السجن اشبه بتهريب الحشيش والافيون .

بينى وبينك . . أن الصحف المصرية فى هذه الأيام هى حشيش وهى أفيون . ولا أعرف متى « نفوق » ؟

جحيم التعذيب

ليمان طرة فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٦٧

عزيزتى . . .

كنت أول مسجون رأى الاستاذ الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين ، عندما أتوا به إلى عنبر واحد بليمان طرة . رأيته فى غرفة ضابط العنبر يرتدى بذلته العادية ، ثم طلب منه الضابط أن يخلع بذلته العادية ليرتدى ملابس السجن . لم يعترض الهضيبى . لم يطلب اخلاء الغرفة من المسجونين . خلع ملابسه ببساطة . وأرتدى ملابس السجن . كانت بذلة السجن كبيرة عليه . كانت ممزقة قذرة . ولم يتأفف الهضيبى ولم يحتج . نزعوا منه الساعة وقلم الحبر والمصحف ! وكنت أنا المسجون السياسى الوحيد الذى يعرفه الهضيبى من قبل ، فقد حقق معى وهو رئيس نيابة الاستئناف فى بلاغ قدمته الحكومة ضدى فى عام ١٩٣٩ وكانت التهمة عجيبة وهى أننى هاجمت هتلر والحكم النازى ، ومن سخرية القدر أن الحكومة أعلنت على هتلر الحرب بعد ذلك بشهور ! . . وكان الهضيبى يفيض رقة وأدبا وهو يحقق معى ، وكان يبتسم ساخرا من التهمة ، وقال لى أن الحكومة أمرت بالتحقيق لان سفير ألمانيا احتج وإنها أرادت ارضاءه بالتحقيق !

وكان من الطبيعى ان اتصل به فى زنزانته التى كانت تبعد عن زنزانتى فى الطابق الرابع بزنزانتين . وكانت التعليمات مشددة بألا أكلمه ولا يكلمنى . وألا اقترب منه ولا يقترب منى . وكنا نستطيع دائما ان نلتقى سرا فى غفلة من ضابط العنبر ومن الحراس .

ورفض وزير الداخلية أن يضع الهضيبى فى مستشفى السجن . على الرغم من أنه فى السبعين من عمره ، وأنه مريض بعدة أمراض ، ورفضوا أن يصرفوا له مرتبة . فنام على البلاط ، واعطوه بطانيتين ممزقتين قذرتين وتعاون المسجونون

السياسيون فاشتروا له بطانيتين نظيفتين !

وفوجئت بقرار من وزير الداخلية يمنع تحويل أمانات باسمه ، فلائحة السجون تسمح بأن تحول الاسرة خمسة جنيهات أو عشرة جنيهات شهريا للقاتل أو اللص أو تاجر المخدرات ليشترى ما يحتاج إليه من سجائر ومأكولات . . ولكن الهضيبى المستشار السابق بمحكمة النقض والابرام لم يسمحوا له بمليم واحد !

وتعاون المسجونون السياسيون واشتروا للهضيبى صابونة ليستحم بها ! واشتروا له بعض علب سجائر بلمونت ليدخن ، وليدفع أجر النوبتجى الذى حمل له جردل البول من الطابق الرابع إلى دورة المياه فى الطابق الاول . وكان الهضيبى يريد أن يحمل بنفسه جردل البول ، ولكننا أشفقنا عليه وعلى صحته من هذا الهوان .

وكانت المأساة الكبرى أن جميع المحكوم عليهم من الاخوان المسلمين وفى قضية حسين توفيق ممنوعون من كتابة خطابات إلى أسرهم أو تلقى خطابات من أسرهم ، وممنوعون من زيارتهم . . ومكثوا ثلاث سنوات لا يعرفون عن أسرهم أى شىء !

وكان الهضيبى مهتما بأن يسأل عن اسرة كل مسجون من الاخوان المسلمين ولم يكن يسأل عن أسرته هو . . .

وسألته لماذا لا تحاول ان تتصل بأسرتك ؟

فقال : أنا آخر واحد . . .

ورتبت مع اصدقائى خارج السجن الاتصال مع السيدة الفاضلة زوجة الهضيبى بواسطة احدى كريماته الدكتورة سعاد الهضيبى

وكانت المهمة صعبة . . فقد كان بيت الهضيبى مراقبا ، وتليفونه مراقبا . وكل فرد من أفراد أسرته تحت الرقابة الشديدة .

ومع ذلك استطعنا أن نقيم شبكة اتصالات سرية مستمرة ، واستطاع الهضيبى أن يرسل رسائل مستمرة إلى زوجته ويتلقى أنباءها باستمرار ، ويحصل على ما يحتاج إليه من أدوية وبعض الملابس الداخلية ، فقد كانت ملابس السجن الداخلية التى صرفت له ممزقة وخشنة كملابس المتسولين !

وقال لى الهضيبى أن أسرته كلها كانت فى السجن ، ولم يكن يضيق بأن أولاده أحمد أسامه الهضيبى المهندس ومحمد مأمون الهضيبى المستشار بمحكمة الاستئناف واسماعيل حسن الهضيبى المحامى وابن عمه محمد سليمان الهضيبى وأولاد شقيقه أمين الهضيبى ونجيب الهضيبى فى السجن ، ولكنه كان يضيق بأنهم وضعوا زوجته فى زنزانة فى السجن الحربى ، ووضعوا فى زنزانة ثانية السيدة خالدة الهضيبى والسيدة علية الهضيبى . وكانت عليه عند القبض عليها فى أيام حملها الاخيرة . ولم يهتموا بذلك ، ولكن عندما اقترب الوضع حاروا هل يتركونها تلد فى الزنزانة ولم يجدوا فى السجن الحربى مكانا لولادة النساء ، وخافوا من الفضيحة لو نقلوها لتضع فى مستشفى عسكرى ، وعندئذ افرجوا عنها . . .

وذكر لى الهضيبى انه تقرر القبض على الطيار يحيى حسين ، وتسرب إليه الخبر ، فاستقل طائرة وهرب إلى السودان ، وعندما جاءوا ليقبضوا عليه لم يجدوه ، فقبضوا على زوجته السيدة غادة عمار ، وطلبت هى عند القبض عليها أن تأخذ معها طفلتها الرضيع التى كان عمرها خمسة أشهر لتتم رضاعتها فى السجن ، ورفضوا ووضعوها فى زنزانة بالسجن الحربى رهينة إلى أن يسلم زوجها نفسه ! وقال انهم قبضوا على شقيقته بهية الهضيبى حرم الحاج محمد سليمان الهضيبى وهى فلاحة ريفية وقبضوا على زوجها وابنها . وذكر الهضيبى انهم قبضوا على الحاجة زينب الغزالى ، وهى فى الستين من عمرها وأنهم مشوا بها فى ساحة السجن الحربى بين المسجونين من الاخوان المسلمين الذى كانوا معلقين كالذبائح ، وأنها خاضت فى جثث المسجونين السياسيين ، وفى أشلائهم الممزقة والتى كانت مفروشة على رمال السجن الحربى ! وأنها كانت تسمع صراخهم وتقول لهم : صبرا ياأبنائى أن موعدكم الجنة . . صبرا آل ياسر ان موعدكم الجنة .

وذكر الاستاذ المرشد أنهم ضربوا زينب الغزالى وأهانوها ووضعوها فى زنزانة مظلمة مع أكثر من عشرة كلاب .

وروى بعض حراس السجن الحربى للمرشد ان اللواء حمزة البسيونى قائد السجن الحربى أمر أحد الحراس بأن يدخل زنزانة الحاجة زينب الغزالى ويغتصبها ، وصدع السجان بالامر ودخل الزنزانة وحاول ان ينفذ الامر فصرخت فيه الحاجة زينب :

ـ انا مثل أمك !

وعندئذ تراجع السجان ، وذهب إلى اللواء البسيونى واخبره أنه رأى امرأة فى السبعين من عمرها ، ولما صرخت فيه « أنا مثل أمك » لم يقو على تنفيذ الامر ، وعندئذ أمر اللواء حمزة البسيونى بقطع جهاز السجان التناسلى . . وتولى أحد أطباء السجن تنفيذ هذا العقاب الذى لا مثيل له فى العالم !

وكان الاستاذ الهضيبى يروى هذه القصة وهو يبكى !

وقص على الاستاذ الهضيبى ان بين نزيلات السجن الحربى عروسا قبض عليها بعد أن مضى على زفافها ثلاثة أيام . . وهذه السيدة هى عروس سيد نزيلى العواضة من كرداسة ولها قصة عجيبة ، فقد ذهب البوليس الحربى إلى قرية كرداسة بمحافظة الجيزة ليقبض على سيد نزيلى العواضة من شبان الاخوان المسلمين ، ولم يجدوه ، ووجدوا عروسه فقبضوا عليها ، وصرخت وولولت ! . . ولم يجدوه ، وسمع الأهالى صوت صراخها فتصوروا أن عصابة جاءت تخطفها ، وأجتمعت القرية كلها رجالا ونساء وضربوا ضابط الشرطة العسكرية وجنوده فولوا هاربين . وفى اليوم التالى جاءت فرقة من الجيش برياسة الفريق أول محمد فوزى والجنود بملابس الميدان والمدافع وحاصروا القرية وقبضوا على جميع من فيها من نساء ورجال ونقلوهم الى السجن الحربى ، وأوقفوهم فى ساحة السجن الحربى ، وامروا كل زوجة بأن تركب فوق زوجها وتبصق على وجهه . ومن ترفض ينهالون عليها بالسياط . ثم راحوا يضربون الرجال بالسياط أمام زوجاتهم وبناتهم وأمهاتهم . واستمر هذا التعذيب اليومى أكثر من شهر ! ثم

حلقوا « فردة » حاجب من عين كل رجل فى كرداسة وتركوا الحاجب الآخر .
وحلقوا « فردة » شنب من الناحية الأخرى . وتركوا فردة الشنب الآخر .
وأطلقوا اسم امرأة على كل رجل فى القرية وضربوا بالسياط كل رجل لا يجيب اذا نودى باسم امرأة !

وبين العرائس المقبوض عليهن فى السجن الحربى حميدة قطب وقد تمت خطبتها وهى مسجونة لمسجون معنا فى الليمان من الاخوان المسلمين . وعروس زميلى المسجون معنا فى الليمان الطيار محمد ضياء الطوبجى . وجميع سيدات أسرة سيد قطب والسيدة أم أحمد وهى فى الثمانين من عمرها .

واحضروا عبدالحميد البورديني وطلبوا منه أن يعترف بأنه عضو فى المؤامرة فلم يعترف ، فقبضوا على زوجته وابنته وعذبوهما أمامه حتى يعترف ولم يعترف .

وأمروا الزوجة بأن تمسك السوط وتضرب زوجها . . فرفضت . . فانهالوا على عبد الحميد بالسياط أمام زوجته حتى أسلم الروح .

وروى بعض اخوان محافظة الدقهلية للاستاذ الهضيبى قصة مأذون قرية البيضا الشيخ محمد عبد المقصود العزبى الذى بلغ من العمر فوق السبعين عاما ، وكيف قبضوا عليه هو وأولاده الاربعة وزوج ابنته . . وبدأوا يضربون الاولاد أمام أبيهم ويعذبونهم فلم يعترف . .

وقبضوا على ابنته وجاءوا بها إلى السجن الحربى . .

وقال له أحد ضباط التعذيب :

ـ سأستمتع الليلة بابنتك الكبرى !

وقال الضابط الثانى : لا . . أنا الذى سأبدأ !

وقال الثالث : أنا دورى بعدكما . .

وقال الرابع : أنا سأستمتع بالصغرى .

وصرخ المأذون : انني مستعد أن أوقع لكم على كل ما تريدون .

وكانت الابنة الصغرى المقبوض عليها عمرها ١٣ سنة !

وكان المنظر فى السجن الحربى يفتت الاكباد . شبان من خريجى الجامعات لا يستطيعون السير على اقدامهم من شدة الضرب فيزحفون على بطونهم . رجال يتوكأون على آخرين . مقعدون يحملهم زملاؤهم إلى دورات المياه . وجوه مشوهة ومخصبة بالدم . . كأنهم مئات من الجرحى والقتلى والاشلاء بعد معركة حربية رهيبة .

وروى بعض الاخوان للاستاذ الهضيبى كيف أمروهم بأن يلعقوا أسفلت السجن الحربى بألسنتهم . . وينظفوه بلعابهم لانه لا توجد مياه للنظافة فى السجن .

واضطروا أن يخضعوا ـ وبينهم أستاذ فى الجامعة ـ لهذا الهوان !

وفقد بعض المسجونين السياسيين عقولهم . وأصيب آخرون بانهيار عصبى . . والسعداء منهم أصيبوا بالشلل أو بالصمم أو بالعمى .

وكان كثيرون من المسجونين يذهبون الى رئيس النيابة الذى يحقق معهم محمولين فوق نقالات .

وقال الاستاذ الهضيبى أنه يعتقد ان كل هذه الجرائم سوف تتكشف فى يوم ما على الرغم من أن المسئولين فى السجن الحربى يقولون لكل مسجون يخرج من السجن سوف نذبحك اذا فتحت فمك وتكلمت عن التعذيب .

وقال أنه يعتقد أنه سيجىء يوم تنتصر فيه العدالة . ويصدر أمر بالتنقيب فى الجبل بجوار مدينة نصر عن جثث عشرات من المسجونين السياسيين ماتوا أثناء التعذيب ، وأعلنت الحكومة أنهم هربوا من السجن .

وقال لى انه كقاض يؤمن بأن هذه القضايا لا يمكن ان تسقط بالتقادم . .

وسوف يجيء يوم تتكلم فيه أشلاء الضحايا المدفونة فى الصحراء اذا لم يتكلم الشهود الذين رأوا هذه الجرائم .

وقال الاستاذ المرشد ان شابا اسمه محمد الفيومى كان من حرس الرئيس عبد الناصر ، وكان من الاخوان المسلمين ، وكان احد أبطال الرماية . .

وأنه اتهم كذبا بأنه سيقتل عبد الناصر . بينما كان الفيومى على بعد أمتار قليلة من عبد الناصر لمدة أربع سنوات كاملة ، ولو كان يريد قتله لقتله بسهولة وأراد البوليس الحزبى أن يرغمه على الاعتراف بأنه كان سيقتل عبد الناصر . .

وأصر الشاب على أن هذا كذب . . وقال انه من الاخوان المسلمين فعلا ، ولو كان الاخوان طلبوا منه أن يقتل عبد الناصر لقتله ، ولكن احدا منهم لم يطلب ذلك . . واستمر التعذيب والضرب بالسياط والتعليق ، والضرب بالاحذية حتى اسلم محمد الفيومى الروح ، ولفوه ببطانية ووضعوه فى سيارة ودفنوه فى صحراء مدينة نصر وأعلنوا أنه هرب من السجن الحربى .

ومن الطريف انهم قدموه الى الدجوى وهو ميت فحكم عليه بالسجن ١٥ سنة وهو ميت !

وروى الاخوان قصة محمد منيب عبد العزيز امين مكتبة كلية العلوم بجامعة اسيوط . لقد ضبط الشرطة العسكرية عنده خطابا فيه جملة « خذ بالك من الكتاكيت » !

وأصر المحققون الاذكياء على أن المقصود بالكتاكيت هم أعضاء الجهاز السرى فى أسيوط .

وطلبوا من منيب ان يذكر لهم اسماء الكتاكيت .

وحاول منيب أن يثبت لهم أنه يربى فى بيته كتاكيت فعلا ولم يصدقوه واستمروا يضربونه إلى ان أسلم الروح ، ولفوه فى بطانية وحملوه فى سيارة بوكس فورد إلى صحراء مدينة نصر ، ودفنوه فى رمال الجبال .

انني اشك كثيرا فى أن الشعب يعرف واحدا من ألف من هذه الحقائق البشعة .

كل الاشاعات وكل المبالغات لم يخطر ببالها ان بعض المصريين يفعلون بالمصريين كل ما فعلوه . .

وأنا أعتقد أنه لو كانت الصحافة حرة لعرف الناس كل شيء ولظهر ما أسدلوا عليه ستار الصمت .

بل لو أنه كانت هناك حرية صحافة لما جرؤ احد على أن يرتكب واحدا من ألف من هذه الجرائم .

ولكنى متفق مع الاستاذ الهضيبى فى أن الحقيقة لا يمكن أن تضيع ، وأن الظلام لن يستمر الى الابد ، وسوف يجىء يوم يعرف الناس فيه بعض ما جهلوه . . ان لم يعرفوا كل ما جهلوه !

صديقى القاتل

٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٧

عزيزتى . . .

صدر أمر وزير الداخلية بألا أقابل أولادى وأسرتى فى مكتب الضابط كما جرت العادة ، وإنما تتم المقابلة من خلال السلك ! فأقف فى غرفة تشبه قفص القرود فى حديقة الحيوانات ، وتقف أسرتى بعيدة عنى نصف متر ويفصلنا عن بعضنا سلك غليظ .

وصدرت هذه التعليمات المشددة بعد هزيمة ٥ يونيو . كأنهم يعاقبوننا نحن عن الهزيمة التى أرتكبوها هم .

اننى سعدت بزيارة أولادى ، بالرغم من أننى لم ألمسهم بسبب السلك الغليظ . لم أضع شفتى على خدودهم بسبب السلك الغليظ لم أتبين أصواتهم بسبب بعد المسافة . ولكنى أحسست بهم تحت جلدى . لم أشعر اننى فى قفص فى حديقة الحيوانات . لم أجد فارقا بين الوقوف فى هذا المكان الضيق الخانق ، وبين الجلوس معهم فى فوتيل ضخم فى شقتى فى الزمالك . كنت اشعر أننى استرخى وأنا واقف . الضوضاء التى حولى لم أسمعها . الاسلاك لم تفصلنا . لم أكن أراها . نحن الذين نضع الاسلاك بيننا وبين الناس . ان هذه الأسلاك من أوهامنا وليست من الحديد . اننى رأيتها أشبه بخيوط وهمية مثل خط الاستواء .

لقد فقدت اليوم محمدا أحد زملائى فى العنبر . .

انه مسجون لا يقرأ ولا يكتب . هو فلاح . فيه شهامة الفلاح المصرى ورجولته . أنه من أكثر الذين عرفتهم أمانة واخلاصا . .

انه قاتل وهو صديقى .

ولقد اخترته لاخفى عنده الورق والقلم لاننى ممنوع من الورق والقلم .

ووثقت به لانه مظلوم ، وقد اخترته لاننى حرصت على أن تكون العصابة التى الفتها هنا لتهريب الخطابات من المظلومين ، المظلوم له قضية ، وهو عندما يدافع عن مظلوم آخر يشعر أنه يدافع عن نفسه . .

ولهذا فليس من السهل ان نشترى مظلوما ، أو أن يخون مظلوم زميله المظلوم .

وقصة محمد عجيبة . . .

كان يعمل خفيرا فى احدى العزب ، ثم قتل بعض الناس ابنه الشاب وقبض على القاتل ، ثم ظهر أنه صاحب نفوذ وسلطان فى القرية ، ولم يجرؤ أحد فى القرية على أن يشهد ضده فبرأت المحكمة القاتل . .

وفى كل ليلة كانت زوجة محمد تقول له : انتقم من الذى قتل ابنك . اقتله كما قتل ابنك .

وكان يهدىء ثورتها ويقول لها أن الله هو المنتقم .

وفى كل ليلة كانت الام الثكلى تحرض محمد على أن ينتقم لابنه . . وهو يرفض ويطلب منها ان تهدأ أو تنام . . .

وذات ليلة لم تنم الأم . قامت من فراشها فى منتصف الليل ، وأخذت بندقية محمد وخرجت من البيت .

وسمع محمد وهو فى فراشه دوى طلق نارى ، ثم رأى باب بيته يفتح وتدخل زوجته حاملة بندقيته ، وبعد دقائق سمع أصواتا تدق على باب بيته وتصيح : القاتل دخل إلى هذا البيت . . اننا رأيناه وهو يدخل حاملا بندقية . . .

وفتح محمد الباب وهو يحمل بندقيته وقال :

ـ أنا القاتل . .

ولم يكن هو القاتل . أنما أراد ان يترك الأم لترعى باقى أولاده وتربيهم .

وحكمت عليه محكمة الجنايات بالسجن ١٠ سنوات . قبلها راضيا سعيدا . . .

وهذا هو السبب الذى جعلنى اختار محمدا ليكون المخبأ الذى أخفى فيه أوراقى ، ولا يخطر ببال أحد أن يبحث فى زنزانته عن أوراق لانه لا يقرأ ولا يكتب .

وقد خرج من السجن فى العفو لمناسبة انقضاء نصف العقوبة ، وبقدر أسفى على فراقه كان فرحى بالافراج عنه . لقد كان يعيش يحسب كل ساعة باقية للأفراج عنه ، وعندما تأخر قرار الافراج كاد يفقد عقله . كان لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . تحول إلى شبح يائس .

ومن الطريف أن كل مسجون نوبتجى يعمل معى يفرج عنه ! حدث هذا لأربعة نوبتجية فى سجن الاستئناف ، ولاثنين فى سجن القناطر ، وسابعهم فى سجن ليمان طره . . ولو استمرت هذه القاعدة مطردة فسوف اطلب من كل مسجون نوبتجى يعمل معى عدة علب سجائر فى مقابل عمله عندى !

اننى امضى اغلب وقتى فى الزنزانة . اننى استريح الى صمتها , , الجدران صامته . إن الصمت يطل من كل مكان حتى من النافذة المفتوحة . الصمت له رائحة غريبة . انها تشبه احيانا رائحة الموت ، وتشبه أحيانا رائحة الحياة . ولكن مع ذلك استريح فى هذا الصمت . اننى فى صمتى هذا اسمع صوت دوى الدنيا . ان السكون الذى اعيش فيه لا يجعلنى انسى ان الدنيا تسير بسرعة هائلة . سرعة تجعلنى ادوخ فى بعض الاحيان ، وأنا أحاول أن أتابع الاحداث وهى تمضى متلاحقة . وفى هذا الصمت أسمع حياتى تتكلم . ان الاشياء الضخمة فيها لا تثيرنى ، والاحداث الهائلة فيها لا تهزنى . ان تاج الصحافة الذى كان فوق جبينى كان ثقيلا على رأسى . وضربات المطارق على جبهتى لم تجعلنى اترنح . انتصاراتى لم تبهرنى . وهزائمى لم ترعبنى . ان أشياء صغيرة كانت تسعدنى وتشقينى . كانت تفرحنى ابتسامة استطيع ان ارسمها على شفاه

محرومة . كانت تعذبني دمعة لا استطيع ان أمسحها من عين مظلوم ، لم أنس أبدا يدا امتدت إلى بالخير . وأنسى كل يد امتدت نحوى بالاساءة . انني دائما اجد اعذارا للناس . واذا لم اجد لهم اعذارا اختلقت لهم الاعذار والمبررات ! ولا أشعر فى وحدتى داخل الزنزانة أننى منبوذ . ان متاعبى وآلامى لا تدخل معى إلى الزنزانة . انها لم تسجنى وانما انا الذى اسجنها خارج زنزانتى . أتجول بعينى أحيانا داخل الزنزانة فأجد أن كل ما فيها يتنهد . الكرسى يتنهد . الترموس يتنهد . كوب الماء يتنهد ويخيل لى أن السرير الذى يحتوينى يتنهد أيضا . وأتطلع إلى السرير الحديدى الأبيض ، وأحاول أن أترجم تنهداته . أحاول أن أجعل سريرى يحدثنى عن الذين ناموا فيه قبلى . كم ظالما منهم وكم مظلوماً ؟ كم بريئا وكم مجرما ؟ كم مريضا وكم متمارضا ؟ كم عاش منهم وكم مات ؟ كم ناموا ملء أجفانهم وكم بقيت عيونهم سهرانة لا تنـام كم أغمضوا عيونهم ليحلموا وكم فتحوها وتخيلوا الاحلام ؟ كم عدد الذين ارتعشوا من البرد القارص وكم الذين عرقوا فى الصيف اللعين ؟

من حسن الحظ ان السرير ليس له لسان ، فسوف تكون كارثة لو كانت كل السراير لها ألسنة تحكى وتتكلم وتذيع الاسرار . ان سريرى هو أقرب صديق لى فى السجن اننى أعيش معه أضعاف ما أعيش مع أى صديق آخر .

أننى أنام فيه ، واستعمله كمقعد ، واستعمله كسرير ، واستعمله كمائدة طعام ، واستعمله كمكتب ، فأننى اقرأ فيه الكتب المهربة والرسائل المهربة والصحف والمجلات المهربة . وهذا السرير أشبه ببساط الريح . انه يحملنى الى أنحاء العالم . وأشعر أحيانا أنه تعب معى . ان من عادتى ان اتعب الذين أحبهم واستريح اليهم . أنا مثلا فى بيتى توجد عشرات المقاعد . ولكن مقعدا واحدا فى غرفة المكتب كنت استريح فيه . كنت أشعر انه أحن على من أى مقعد آخر . كان فى مسنديه الخشبيين وفى وسادته القطنية عواطف وحنان وحب اكثر من أى مقعد آخر فى البيت كله .

والناس اشبه بالمقاعد والأسرة . فنحن لا نجلس فى اجمل مقعد ولا فى أغلى

مقعد ولكننا نحب المقعد الذى نستريح فيه .

بعض الناس اشبه بالأم فى لعبة الاستغماية التى كنا نلعبها ونحن أطفال . عندما كنا نعدو إلى مكان الأم يتوقف الاطفال الذين يحاولون امساكنا عن اللحاق بنا . ان هذا هو مكان الامان . عندما نصل إليه يذهب الخوف .

وأنا أشعر أن أصدقائى وتلاميذى هم الأم التى أجد فيها الامان . . هم المقعد الذى يريحنى ، وأنجعص فيه ، وأمد ساقى واسترخى .

ولكن هذا المقعد اصبح بعيدا عنى . لا استطيع ان المسه . الا أننى مع ذلك أحس براحة لان هذا المقعد موجود . لم يؤمم . لم يوضع تحت الحراسة . لم يدخل السجن . أشعر أن روحى تجلس فيه ، تنجعص ، تستريح ، تشعر أنها فى أمان .

وأحيانا أحس اننى لا أزال ألعب الاستغماية ، لا أزال اجرى والظلم يجرى خلفى ، ومع ذلك أشعر باطمئنان إلى أن الام موجودة . الغريب أننى كثيرا ما أشعر ان هذه الأم ليست اصدقائى وحدهم ولا تلاميذى وحدهم . . بل الشعب كله .

وأحس ان هذا المقعد المريح الكبير سوف يحتوينى فى يوم من الايام وسوف يحمينى .

وفى أحيان اخرى احس اننا نلعب لعبة عسكر وحرامية وان التغيير الوحيد هو ان الحرامية هم الذين يجرون وراء العسكر . وان اللصوص هم الذين يطاردون الاشراف . وانه سيجىء يوم يعتبرون كل رجل شريف خارجا على النظام ، كما اعتبروا قبل ذلك كل رجل يؤدى الصلوات الخمس بانتظام متآمرا لقلب نظام الحكم !

الهضيبى مع الكلاب
فى زنزانة واحدة

ليمان طره أول سبتمبر ١٩٦٧

عزيزتى . . .

فى حوالى الساعة الثامنة صباحا يفتح السجان باب زنزانتى . انها مغلقة الباب منذ الساعة الرابعة مساء أمس . أخرج اتمشئ بعض الوقت إلى أن يتم اعداد افطارى . وهو مكون عادة من البيض والجبن والعيش الناشف . وقد عودت نفسى على عيش السجن . كان من أكبر الازمات التى صادفتنى منع الثلج عنى . مع الوقت عودت نفسى على الماء الفاتر . كنت أتصور أن الحياة مستحيلة من غير ماء مثلج ، ثم اكتشفت انه بعد أن تحرم من الحرية تستطيع أن تحرم من أى طعام أو شراب دون أن تشعر بضيق . بعد الافطار أعود إلى التمشى مع المسجونين العاديين .

كان قد صدر أمر لا أختلط ولا أتحدث مع أى مسجون . وألا أغادر الطابق الرابع . وبقيت أسبوعين فى داخل زنزانتى لا أخرج منها . ومع ذلك لم أشك ولم أحتج ولم أتذمر ثم صدر أمر وزير الداخلية بأن أمشى مع المسجونين العاديين ولا أمشى مع المسجونين السياسيين .

وصدر أمر آخر بناء على الحاح الاطباء بأن أذهب يوميا لعمل تحليل البول ، وعمل أشعة على العمود الفقرى مرتين فى الأسبوع . وكانت هذه الرحلة اليومية تريحنى كثيرا . ثم صدر الامر بألا أذهب إلى المستشفى سوى ثلاث مرات فى الاسبوع . ثم صدر الامر بأن أذهب مرتين فقط . ثم أصدر وزير الداخلية أمرا بألا أذهب إلى المستشفى على الاطلاق . ثم احتج الاطباء وقالوا أنه كان يجب على وزير الداخلية ان يصدر قرارا وزاريا بشفائى من أمراضى قبل أن يصدر قرارا بمنعى من الذهاب إلى مستشفى السجن . وتردد ان الصحف الاجنبية

ستكتب عن هذا القرار العجيب ، وعندئذ صدر أمر وزير الدخلية بأن أذهب إلى مستشفى السجن كل يوم .

وأخرج من المستشفى وأعود إلى العنبر ، ولا أتضايق من صعودى درجات سلم الطوابق الاربعة ، رغم مرضى بالنقرس والروماتيزم ، فاننى أذكر فى كل مرة ، كيف كنا نصعد معا سلالم أخبار اليوم إلى الطابق التاسع . ثم يغلق باب زنزانتى عند الظهر لمدة ساعتين ويسمون هذه الفترة التمام . وفى هذه الفترة اقرأ ما عندى من كتب مهربة أو صحف مهربة ، ثم يفتح باب الزنزانة فأعود إلى التمشى أمامها إلى أن يجىء موعد فسحة العصر فأنزل إلى فناء العنبر لأتمشى نصف ساعة ، إلى أن تحين الساعة الرابعة بعد الظهر فأعود إلى الزنزانة ، وتقفل أبوابها ، وعندئذ أتناول غدائى الذى هو عشائى فى نفس الوقت . وكم تمنيت فى الماضى أن ألغى طعام العشاء حتى يخف وزنى ، وكنت قبل دخولى السجن أفشل فى هذه المحاولة . ونجحت فى الغاء العشاء وأنا فى السجن تطبيقا لمبدأ ضرورة الاستفادة من الكوارث .

وعندما انتهى من غدائى ارقد فى فراشى واستمع لاذاعة السجن فاسمع بعض الموسيقى والتعليق على مباريات الكرة . ونشرة الاخبار والتعليق السياسى . وأنا أهتم بالتعليق السياسى لاننى أعلم ان الرئيس عبد الناصر هو الذى يكتبه بنفسه ، إذ يضع خطوطه العريضة . وطبعا أشعر بضيق بسبب قرار وزير الداخلية بمنع الصحف والمجلات العربية والاجنبية عنى ، ولهذا ألجأ إلى عملية التهريب المضنية ، وعملية إخفاء هذه الممنوعات الخطيرة حتى لا يضبطوها أثناء التفتيش اليومى . . ومع ذلك لا يمر الوقت بسرعة . وكنت أمضى بعض الوقت فى إعادة قراءة خطاباتكم . ولكن صدرت تعليمات ألا احتفظ الا بخطاب واحد فى زنزانتى وسوف أسلم أسرق الخطابات التى عندى . لاننى أعتبرها خطابات تاريخية ، وسوف أعود إليها فى يوم من الأيام . وأننى أطلب منكم أن ترتبوها وتنظموها بحيث يطلع عليها المؤرخون . فانها تشرح فترة خطيرة فى تاريخ مصر . إعتقد ان مئات الكتب سوف تؤلف عنها . ولا أعتقد ان كثيرين يجرؤون على أن يكتبوا مذكرات صريحة عنها . وعندما أضطر

إلى تمزيق خطاب من خطابات تلاميذى وأصدقائى أشعر كأننى أمزق قطعة من قلبى . ولقد فكرت أن أكتب قصة جارى المسجون فى زنزانة بجوارى الاستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين . وهى قصة شائقة لا أظن أن أحدا يعرفها .

قال لى :

عندما كنت طالبا فى مدرسة الحقوق كنت أعيش وحدى فى مدينة القاهرة . كان ذلك فى أوائل القرن الحالى . وكنت أبحث عن بيت أسكنه ، ولكنى كنت أضطر أن أعزل من كل شقة أسكنها ، لان ساكنات البيت كن يطاردننى ! وكنت شابا مؤمنا عفيفا أخشى الله . ومضيت إلى حى السيدة زينب أبحث عن شقة خالية فى بيت ليس فيه نساء . وكنت أمر على حارة اسمها حارة الشيخ سليم . ولا أدخلها . لاننى لم أتصور أن فيها شققا خالية . وفجأة رأيت رجلا على ناصية حارة الشيخ سليم فسألت : هل توجد هنا شقق خالية ؟

فقال الرجل : نعم يوجد هنا شيخ طيب مؤمن مدرس عنده شقه فاضية .

وذهبت إلى هناك . وطرقت الباب ، ففتحت لى فتاة الباب ، فاستغفرت الله وقررت أن أعود أدراجى . وأحرجت من نظرتها البريئة فقلت : هل عندكم شقة خالية ؟ قالت : نعم .

فقلت : ومن هو صاحب البيت . قالت : أنا . . .

وأردت أن اتراجع ، ولكن رفعت عينى واكتشفت أن البنت صغيرة ولا خوف من الفتنة منها .

ثم أقبل والدها الشيخ ، واستأجرت منه سلاملك البيت . وإذا بى اكتشف اننى أحببت هذه الفتاة الصغيرة من أول نظرة ولكن لم أقابلها ، ولم أكلمها . ومكثت ست سنوات أسكن فى هذا البيت ، وأنا سعيد بأننى بقرب هذه الفتاة

التى لم أكن ألمحها إلا طيفا .

وكان يعجبنى فى هذه الفتاة انها تصلى ، وأمها تصلى ، ووالدها يصلى . وكنت أنا ضد سفور المرأة .

ثم حدث أن أصدر قاسم أمين كتابه الذى يدعو فيه إلى السفور . ولم أقرأ هذا الكتاب .

وإنما قرأت الاتهامات التى انصبت على قاسم أمين فى الصحف وتحمست ضد الكتاب وضد السفور .

وأقيمت مناظرة فى مدرسة الحقوق على السفور . ووقفت أنا فى المناظرة اعارض السفور بعنف .

وبعد ذلك سألنى أحد زملائى الطلبة : هل قرأت كتاب قاسم أمين . . . ؟

فقلت : لا . . .

فنصحنى أن أقرأ الكتاب ، وقرأته وذهلت ، ووجدت أنه ليس فى كتاب قاسم أمين أى خروج عن الشرع ولا عن الدين .

ثم سافرت إلى بلدى ، وإذا بأخى يقول لى أن فلانة بنت صاحب البيت الذى تقيم فيه فى القاهرة قد تقدم لخطبتها الدكتور محجوب ثابت .

فانزعجت ، وأسرعت اتقدم إلى خطبتها ، وقبل والدها . وتمت الخطبة ، وكان أول ما فكرت فيه أن أرسل لها كتاب قاسم أمين لتقرأ فيه .

ثم أصدر قاسم أمين كتابه الثانى « المرأة الجديدة » فأهديته لها ، وأهديت لها كتاب التربية الاستقلالية الذى ترجمه عبد العزيز محمد .

واستمرت خطبتنا ست سنوات ، لا أراها ولا ترانى ، ثم حصلت على الليسانس وتزوجتها .

وفى يوم الزفاف لاحظت انها وضعت على وجهها قليلا من البودرة .

فقلت لها : ليس هذا هو الوجه الذى أحببته .

فذعرت . . فقلت لها : انني أحببت وجهك كما خلقه الله .

فأسرعت وغسلت وجهها ، ولم تضع بودرة أو مساحيق على وجهها منذ ذلك اليوم .

وقبل أن أدخل بها دعوتها أن نصلى معا شكرا على هذا الزواج .

وعادة يبدأ العروسان ليلة زفافهما بالقبلات ، ولكنها بدآها بالصلاة .

وقال لى الاستاذ الهضيبى انه وهو طالب دخل الجمعية السرية التى تألفت سنة ١٩١٠ للاغتيالات ، وأقسم اليمين الخاصة بعضويته للجمعية ، ثم قتل إبراهيم الوردانى رئيس الوزراء بطرس غالى باشا . وقبض على عدد من أعضاء الجمعية وتفرق أعضاؤها . وترك حسن الهضيبى الأعمال السياسية ، وتفرغ للمحاماة ، وأختار أن يكون محاميا فى مدينة سوهاج .

وعاد الهضيبى يقول لى :
ـ كان من رأيى أن تكشف زوجتى عن وجهها ، ولكن زوجتى قالت لى أنها مؤمنة بالسفور ولكنها لا تستطيع أن تسفر وحدها عن وجهها . .

وقامت ثورة ١٩١٩ وإذا بالصحف تنشر أن سعد زغلول كان فى أحد الاجتماعات الشعبية ورأى ابنة الشيخ على يوسف وعلى وجهها الحجاب ، فمد سعد يده ونزع الحجاب . .

واعتبر المصريون ان هذا أمر من زعيم الثورة بنزع حجاب المرأة ، وعندئذ نزعت زوجتى حجابها . .

وروى لى الهضيبى التعذيب الذى تعرض له فى السجن الحربى عام ١٩٦٥ :

ـ وضعونى فى زنزانة فى السجن الحربى . وكانوا يعلمون أننى رجل يصلى ويخشى النجاسة ، فوضعوا معى فى الزنزانة ١٥ كلبا ، وأمضيت فى هذه الزنزانة ستة أيام ، وكانت الكلاب تقفز فوقى ، وتشد ملابسى ، وتتبول على رأسى ، وترمى قاذوراتها على بذلتى . وكانت الكلاب تتشاجر فيما بينها . كان عدد الكلاب الاناث أقل من عدد الكلاب الذكور ، فكانت الكلاب الذكور تتشاجر على الانثى وتتضارب ، ثم يخطف أقوى الكلاب الكلبة التى اختارها ، يحدث كل ذلك وأنا أصلى !

وفى أول الأمر كنت أشعر بالذعر من هذه الكلاب ، ثم أسلمت أمرى إلى الله وتركتها تفعل بى ما تشاء ، وأنا منزو فى ركن الزنزانة وكانت الكلاب تشاركنى فى الطعام الذى يقدمونه لى ، وأنتظر حتى تشبع ، ثم أتقدم لآكل بقايا الكلاب !

وبعد ستة أيام جاء جندى وصحبنى إلى وكيل النيابة المحقق .

وأشار وكيل النيابة إلى كرسى أمامه وقال :

ـ تفضل أجلس .

فاعتذرت وقلت له : أخشى أن يتسخ الكرسى .

فدهش وكيل النيابة وقال : لماذا ؟

قلت له : لان الكلاب تركت كل قاذوراتها على ملابسى .

وأمر وكيل النيابة بإرسالى إلى الحمام ، وذهبت إلى الحمام لأستحم ، وأرتديت ملابس أخرى ثم بدأ التحقيق . .

ورفض وكيل النيابة أن يسجل فى التحقيق ما قاله حسن الهضيبى عن التعذيب الذى تعرض له وعن الخمسة عشر كلبا التى تعيش معه فى زنزانة واحدة .

واستطرد الهضيبى يقول :

ـ بعد التحقيق أعادونى إلى زنزانتى فوجدت فيها ثمانية كلاب فقط وتصورت أن وكيل النيابة طلب تحسين معاملتى فأنقصوا عدد الكلاب من خمسة عشر كلبا إلى ثمانية فقط ، ثم سألت أحد الحراس عن الكلاب السبعة الاخرى التى شاركتنى الزنزانة فقال لى أنهم قبضوا على مسجون سياسى آخر واحتاجوا إلى الكلاب السبعة لتشاركه زنزانته .

وذات يوم أقبل على أحد الحراس وقال لى :

ـ ياابن الشرموطة !

وانتفضت فى زنزانتى وكأن عقربا لذعتنى ، وقلت للحارس

ـ حرام عليك . . ان أمى رحمها الله كانت سيدة طيبة . . . واقتحم حارس آخر الباب ، وفى يده كرباج يلوح به وقال :

ـ قل أن أمك شرموطة . . والا فسأضربك بالكرباج إلى أن تموت .

وفجأة خيل إلى أننى أرى طيف أمى يخرج لى من جدار الزنزانة وسمعت صوتها يقول لى :

ـ قل لهم ياحسن اننى شرموطة . . ولا تدعه يقتلك .

قلت والدموع فى عينى وأنا أنظر إلى الكرباج :

ـ نعم . . نعم كانت أمى شرموطة .

وقهقه الجندى وأغلق باب الزنزانة .

وبقيت أنظر إلى الكلاب الثمانية وأنظر إلى نفسى وأتساءل : هل كان هذا هو صوت أمى فعلا ، أم أن هذا هو صوت الفزع والرعب ؟ هل كان أشرف لى أن

أموت بالكرباج على أن أنطق بهذه الكلمة بفمى .

وأحسست بعد ذلك أن عدد الكلاب فى الزنزانة لم يعد ثمانية فقط ، انما أصبحت تسعة وأنا هو الكلب التاسع .

وحاولت أن أبكى فلم أجد دموعا فى عينى . حاولت أن أصرخ فلم يخرج صوتى . ولم أجد ما أفعله سوى أن أقوم وأصلى . .

وطلبت من الله أن يغفر لى الكلمة النابية التى نطقت بها . ويظهر أنه كان يبدو على التعاسة والعذاب والهم والألم ، لان الكلاب وقفت تنظر إلى فى دهشة . لأول مرة صمتت الكلاب عن نباحها وعوائها وشجارها ، ووقفت تنظر إلى فى اشفاق . .

وانتهى الهضيبى من رواية ما حدث له والدموع تملأ عينيه .

ولم أجد ما أقوله له سوى أنه عندما تغيب العدالة والحرية والديموقراطية عن بلد يصبح كل أهلها كالكلاب .

حتى ولو كان أحد هؤلاء رئيس جماعة كبيرة كالاخوان المسلمين وكان قبل ذلك مستشارا بمحكمة النقض والابرام .

قال باسما لأول مرة :

ـ يعامل عندئذ كأنه أكبر الكلاب .

السر الذى أخفاه
المرشد العام

ليمان طره فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٧

عزيزتى . . .

أمضيت وقتا طويلا مع الاستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين وجارى فى الزنزانة . وتحدث عن رأيه فى الاغتيال السياسى ، فقال أنه من حق الشعب عندما يحتله جيش أجنبى أن يقاومه بالرصاص . ولكنه لا يوافق على أن يقتل الناس خصومهم فى الرأى .

وروى لى أنه دخل الأزهر ومكث فيه سنة واحدة ولم يستفد شيئا . ثم دخل مدرسة باب الشعرية الابتدائية ، ثم مدرسة الخديوية الثانوية ، وكان فى أول الأمر تلميذا منْطويا على نفسه ، يتفرج على الأحداث ، ولا يشترك فيها .

وبعد أن حصل على شهادة البكالوريا التحق بمدرسة الحقوق الخديوية ، وقد سميت كذلك نسبة إلى الخديو عباس . وذات يوم اتصل به زميله الطالب أمين صدقى وحدثه عن دخوله جمعية سرية تعمل ضد الانجليز . ورحب بأن يدخل الجمعية ، وأقسم على القرآن والمسدس ألا يفشى أسرارها لاى مخلوق . وكانت هذه الجمعية تنقسم إلى عدة خلايا . وكانت الخلايا لا تعرف بعضها . وكانت الخلية السرية مؤلفة من خمسة أشخاص : رئيس وأربعة أعضاء . وكان زملاء الهضيبى فى الخلية الطالب حسن مختار رسمى الذى أصبح فيما بعد وكيلا لوزارة المالية ورئيسا لمجلس ادارة شركة غزل المحلة . والطالب مغازى البرقوقى الذى أصبح بعد ذلك قاضيا ونائبا وفديا ووكيلا لمجلس النواب ، وأمين صدقى الذى أصبح بعد ذلك محاميا وحصل على دكتوراه فى الحقوق ، والطالب عبد الخالق عطيه الذى أصبح وكيلا لمجلس النواب . وكان الزعيم محمد فريد هو رئيس الجمعية السرية .

وكان كل عضو من أعضاء الجمعية السرية مكلفا بأن يجند عضوا آخر . وكان لحسن الهضيبى زميل فى الفصل يأتمنه ويثق به ، فعرض عليه ان ينضم للجمعية السرية ، فوافق بعد ان سأل عن غرضها ، فقال له الهضيبى أن غرضها قتل الانجليز وعملاء الانجليز . ورحب الصديق بالفكرة . ولكنه فى اليوم التالى عاد يقول أنه رأى نفسه فى المنام فى الليلة السابقة يخنق أخته ففزع ، ولهذا فهو عدل عن الانضمام إلى الجمعية السرية ، وأسقط فى يد الهضيبى ، وأسرع إلى رئيس خليته يبلغه ما حدث ، وأسرع رئيس الخلية إلى قيادة الجمعية يبلغها بما جرى . وعقدت القيادة محكمة لمحاكمة حسن الهضيبى . أخذوه إلى شقة فى بيت مهجور ، فى حى سحيق ، وأدخلوه غرفة مظلمة . وجلس ثلاثة شبان إلى مائدة فوقها قرآن ومسدس ، وكان الشبان الثلاثة يخفون وجوههم بأقنعة سوداء . وبدأ القضاة السريون يحاكمون حسن الهضيبى يوجهون له اسئلة ويجيب عليها . ثم أصدروا حكمهم بأنهم تبينوا من التحقيق الذى أجروه ان حسن الهضيبى لم يفش لصاحبه سر الجمعية وأنهم لو كانوا شعروا من المحاكمة بأنه أفشى أسرارها لقتلوه على الفور رميا بالرصاص . وأنهم لهذا يصدرون عليه حكم البراءة .

وتنفس الهضيبى الصعداء ، وكان من حسن حظه أن زميله كان كتوما . فلم يفش سر صاحبه لاحد ، ولكن الهضيبى تعلم من هذا درسا لم ينسه طوال حياته ، أن يكون حذرا ، وأن يكون كتوما . . . .

وذات يوم أصدرت قيادة الجمعية أمرا إلى الخلية السرية بأن تستعد للقيام بعملية هامة ، وهى الهجوم على قسم شرطة السيدة زينب ، والاستيلاء على كل ما فيه من أسلحة . وتسليمها إلى قيادة الجمعية .

وعقدت الخلية السرية اجتماعا وضعت فيه خطة الهجوم على قسم الشرطة ، ووزعت على أفرادها الادوار التى سيقوم بها كل واحد منهم . وذهب أعضاء الخلية وعاينوا مكان القسم . وأختاروا الوقت الملائم للهجوم ، وهى الساعة التى عرفوا فيها أن عدد الجنود فى القسم يقل إلى حده الادنى . وتحددت ساعة

وقالت لهم قيادة الجمعية إنها عملية إنتحارية قد يموتون فيها جميعا .

وعاد الهضيبى ليلتها إلى بيته فى حارة سليم بالسيدة زينب ، وأحرق كل أوراقه ، وبدأ يصلى استعدادا لكى يموت شهيدا ، وألقى نظرة على ابنة صاحب البيت التى كان يحبها ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكانت نظرة طويلة ، لانها كانت فى شعوره النظرة الأخيرة ، ثم أغلق نافذة السلاملك الذى كان يقيم فيه ، وعاد يصلى لله وللوطن من جديد .

وعند منتصف الليـــل دق الباب . وتصور الهضيبى ان المؤامرة انكشفت ، وأن البوليس جاء ليقبض عليه ، وتقدم إلى الباب يفتحه ، وإذا بأحد زملائه أعضاء الخلية السرية يبلغه أن قيادة الجمعية قررت تأجيل العملية الانتحارية ، وسأل عن السبب فقيل له أنه ليس من حقه ان يسأل عن السبب . وسأل عن موعد التنفيذ القادم ، فقال صاحبه ان الأوامر ستصدر فى الوقت المناسب .

وبعد ذلك أطلق إبراهيم الوردانى الرصاص على بطرس باشا غالى رئيس الوزراء لانه اتفق مع الانجليز على الحكم الثنائى فى السودان وأراد تجديد اتفاقية قناة السويس .

وسقط رئيس الوزراء قتيلا . وقبض على عدد من أعضاء الجمعية . . وعرف الهضيبى عندئذ أن جمعيته هى التى اغتالت بطرس غالى . فهل كانت الفكرة فى أول الامر هى مهاجمة قسم السيدة زينب والاستيلاء على أسلحته ليستعملها أعضاء الجمعية فى هجوم جماعى على مجلس الوزراء يقتلون فيه رئيس الوزراء . ثم رأى إبراهيم الوردانى أن يقوم بهذه العملية وحده بغير شركاء . وأن يقتل رئيس الوزراء عند خروجه من رياسة مجلس الوزراء وحده بدل عشرة أشخاص كان المفروض ان يقوموا معا بهذه العملية . ان حسن الهضيبى لم يعرف هذا السر أبدا . كل ما يعرفه ان أحد أعضاء جمعيته قتل رئيس الوزراء ، وأن العملية الانتحارية التى كان مكلفا بها لم تتم .

ولم يقبض البوليس على حسن الهضيبى بين عشرات من أعضاء الجمعية الذين قبض عليهم للاشتباه . ولم يتطرق الشك إلى أحد أن هذا التلميذ المنزوى الطيب المطيع هو عضو فى الجمعية السرية التى أمر الانجليز بالقبض على جميع أعضائها .

وانفرط عقد الجمعية . ولم يعرف الهضيبى كيف انفرطت ولماذا انفرطت ولكنه عرف أن خليته لم تعد تتلقى أوامر أو تعليمات .

ثم حدث ان حكمت المحكمة بالسجن لمدة ستة أشهر على الزعيم محمد فريد لأنه كتب مقالا هاجم فيه الخديو والانجليز . وهرب محمد فريد إلى أوربا . وأختلف رأى الشبان فى قرار الزعيم الوطنى . كان من رأى فريق أنه بعد أن قيدت الصحافة عقب مصرع بطرس غالى . وبعد أن بدأت مطاردة الوطنيين . أصبح مجال العمل ضيقا أمام محمد فريد . فهو سوف يكون فى أوربا مطلق اليدين يهاجم الاحتلال البريطانى والخديو كما يشاء ويقلب العالم ضد الاحتلال والفساد فى مصر . وفريق آخر كان يرى ان واجب محمد فريد كان يقضى عليه ان يدخل السجن ، ولا يتخلى عن مكانه داخل المعركة ، وأن يبقى ليقاوم ويؤلب الشعب على الاحتلال . وكان الهضيبى يؤيد هذا الرأى الاخير . . . فقد شعر أن الجيش أصبح بلا قائد ، وأن العلم الذى كان يجمعهم اختفى فجأة ، وزاد فى إيمانه أنه رأى أفراد خليته السرية حيارى تائهين . ثم لم يلبث أن رآهم تفرقوا . لا يجتمعون ، ولا يتناقشون ، كأن محمد فريد عندما خرج من مصر أخذ مع حقائبه روح مصر !

وفى سنة ١٩١٤ أعلن الانجليز الحماية على مصر . وخلعوا الخديو عباس حلمى وأعلنوا الأمير حسين كامل سلطانا على مصر .

وشعر الهضيبى كأن خنجرا أغمد فى ظهره . ثم ما لبث أن أحس بخنجر أكبر يغمد فى قلبه . أعلن الانجليز الحماية على مصر ، ولم يتحرك أحد من المصريين . لم تقم مظاهرة واحدة . لم يلق حجر واحد على الجنود الانجليز الذين

ساروا فى موكب من قشلاق قصر النيل الى قصر عابدين يزفون السلطان الجديد إلى عرش مصر ، على أسنة حراب الاحتلال . .

وأسرع الهضيبى الى زملائه اعضاء الخلية السرية ، واذا بالفجيعة تمزق قلوبهم . العمل الوحيد الذى قام به بعض المتحمسين منهم أن وضعوا فى عنقهم أربطة سوداء ! . . كانت الكرافتة السوداء هى العلم الوحيد الذى رفعوه . شعر الشباب المصرى فى تلك الايام المريرة بالشقاء والذل والخزى والعار . أحسوا أن شرف كل واحد منهم لطخ بالوحل والطين . أحذية الجيش البريطانى داست على رؤوسهم جميعا . أحسوا أكثر بالحاجة الى القائد . راحوا يقولون : لو كان محمد فريد موجودا فى مصر لعرف كيف ينظم المقاومة ، وكيف يرد على صفعة الاحتلال . وأوقف أمين الرافعى اصدار جريدته فضل أن يحطم قلمه على أن ينشر فى جريدته نبأ ان مصر أصبحت تحت الحماية البريطانية . . . أما جريدة المقطم التى كان يصدرها الدكاترة فارس نمر ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، فقد أصدرت ملحقا بعناوين ضخمة فى الصفحة الاولى « بشرى للأمة المصرية . أعلان الحماية البريطانية على مصر » !

وكان هذا العنوان المخزى أشبه بكفن وضعت فيه جريدة المقطم جثة الشباب الوطنى فى مصر . ولكن شباب مصر دفن ولم يمت . الصدمة المفاجئة جعلته يتسمر فى مكانه بلا حراك . واختفاء محمد فريد من مصر كان أشبه باختفاء المنارة التى كانت تضىء للسفن الهائمة فى أثناء العاصفة .

وأعلن السلطان الجديد تغيير اسم مدرسة الحقوق الخديوية إلى اسم مدرسة الحقوق السلطانية .

وأذاع قصر عابدين أن عظمة السلطان قرر أن يشرف مدرسة الحقوق السلطانية بزيارته .

وكان بناء مدرسة الحقوق مجاورا لقصر عابدين . وتحدد يوم الزيارة . .

وفرشت ممرات المدرسة بالرمل الاحمر . ورفعت الاعلام استعدادا لمقدم السلطان .

وفى يوم الزيارة تلقى طلبة مدرسة الحقوق بطاقة مطبوعة بأن فلانا الطالب بالمدرسة توفى إلى رحمة الله وستشيع جنازته من منزله رقم ١١ شارع المناخ فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، وعلى جميع طلبة مدرسة الحقوق الاشتراك فى تشييع الجنازة .

وكانت الساعة الحادية عشرة هى الموعد المحدد لزيارة السلطان .

وكان العنوان المكتوب فى البطاقة هو عنوان محل جروبى فى شارع عدلى الآن .

وترك الطلبة المدرسة ، وذهبوا لتشييع الجنازة الوهمية . وفى جروبى تناولوا الجاتوه والحلوى على روح الفقيد المزعوم !

ودخل السلطان حسين الى المدرسة فلم يجد فيها طالبا واحدا .

وجن جنون السلطان . هاج وماج وثار . وعرف أن طلبة اكبر مدرسة عالية فى مصر فى ذلك الحين ارادوا أن يلطموا السلطان لطمة علنية عقابا له على توليه عرش مصر فى ظل الحماية البريطانية .

وقام السلطان ولم يقعد ، وقام الانجليز ولم يقعدوا ، وقامت الحكومة ولم تقعد . هذه ثورة ضد السلطان وضد الانجليز وضد الحكومة . وقبض على عدد كبير من طلبة مدرسة الحقوق ، وقبض على صاحب المطبعة الذى طبع بطاقة الدعوة لحضور الجنازة .

وعرض النائب العام على صاحب المطبعة كل طلبة مدرسة الحقوق ليتعرف على الطالب الذى طبع بطاقة الجنازة .

ولم يتعرف صاحب المطبعة على واحد منهم ، وقال ان الشخص الذى جاء لطبع البطاقة كان اكبر عمرا من هؤلاء الطلبة .

وهنا عرضت النيابة اساتذة مدرسة الحقوق على صاحب المطبعة . فقال ان المجرم الاثيم ليس واحدا منهم .

والواقع ان المجرم الاثيم لم يكن طالبا ولا مدرسا فى مدرسة الحقوق وانما كان عربجيا ! . . كان العربجى الذى يقود العربية الحانطور التى تملكها اسرة الطالب فؤاد حمدى . وتحمله كل يوم الى المدرسة .

ولم يخطر ببال النائب العام أن يعرض على صاحب المطبعة جميع العربجية الذين يحملون طلبة الحقوق الى المدرسة .

وأصدرت الحكومة قرارا بفصل عدد من طلبة الحقوق نهائيا ، وعدد آخر لمدة عامين ، وعدد ثالث لمدة سنة واحدة .

وكان حسن الهضيبى أحد الذين فصلوا لمدة سنة واحدة . .

وحاول الطلبة ان يتظلموا فوجدوا أن كل الأبواب مغلقة فى وجوههم . لا أحد يجرؤ على أن يتوسط لهم والسلطان ثائر ، والانجليز حانقون ، والحكومة غاضبة . . ثم سمع الهضيبى من زملائه المفصولين أن سعد زغلول باشا وكيل الجمعية التشريعية التى عطلها الانجليز يتعاطف معهم . وذهب مع بعض زملائه وقابلوه ، فإذا به يهنئهم لانهم أعادوا الاعتبار للشعب المصرى عندما لطمه السلطان ! واذا به يقول أنه سيبذل كل ما يستطيع لرفع الظلم عنه ، وأنه لا يملك أى سلطة ، ولكنه يعتبر نفسه ممثل الشعب الذى انتزعت سلطاته باعلان الحماية . ودهش الهضيبى لان رجلا فى الستين من عمره يتكلم بلغة الشباب . . وبعد خروجه من بيت سعد زغلول قال لزميل له :

ـ هذا الرجل يستطيع أن يقود مصر بدلا من محمد فريد .

قال له زميله :

ـ مستحيل . . مستحيل

وبعد أربع سنوات قامت ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول . وصدقت نبوءة الهضيبي .

وكان طلبة الحقوق المفصولون هم أول الذين مشوا وراء سعد زغلول وأشعلوا الثورة .

***

وروى لى الهضيبي سرا خطيرا وهو أن عبد الرحمن السندى رئيس الجهاز السرى للاخوان المسلمين زاره فى بيته بعد قيام الثورة بفترة غير قصيرة ، وأخبره ان الرئيس جمال عبد الناصر استدعاه إلى بيته فى منشية البكرى ، وطلب منه أن يسافر إلى ايطاليا ، ومعه عدد من زملائه ويقتلوا الملك فاروق .

وأنه أعطاه الاسلحة اللازمة والمبلغ الكافى لمصاريف الاقامة والسفر .

فقال عبد الرحمن السندى : لا استطيع ان اقوم بهذه المهمة قبل أن استأذن المرشد العام .

فقال الرئيس عبد الناصر : يمكنك ان تستأذنه كما تشاء .
واستطرد الاستاذ الهضيبي وقال لى :

ـ قلت لعبد الرحمن السندى بالحرف الواحد : لا تقتله ! انك اذا قتلته فكأنك قتلت مسلما بلا جريمة . افهم ان نقاتل اعداءنا ونحن فى معركة . اما أن نقتلهم بعد ان استسلموا فهذا ضد الشرع والدين , والملك فاروق استسلم للثورة , , وتنازل عن العرش . وترك البلاد ، ولم يعد خطرا على مصر فلماذا تقتلونه الآن . . أنا أرفض الموافقة على جريمة قتل .

وذهب السندى وابلغ حديثى الى عبدالناصر ، واعاد له الاسلحة والفلوس .

لماذا إنتحر عبد الحكيم عامر ؟

١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٧

عزيزتى . . .

كم كنت اتمنى لو كنت بجانبى فى هذه الأيام لنشهد الأحداث معا ، وأسمع تعليقاتك وملاحظاتك ، القدر شاء أن يعيش الصحفى الأول فى مصر بعيدا عن أحداث مصر المتلاحقة التى تبدو أشبه بشريط سينمائى وبسرعة فائقة تجعل المشاهدين يلهثون وكأنهم يعدون وراء الاحداث بسرعة الصاروخ . اننى أتصور نفسى لو كنت خارج السجن فى هذ الأيام . . لو كنت جالسا فى مكتبى في أخبار اليوم . كان من المؤكد أن أصاب بالذبحة الصدرية . كنت سأبقى فى مكتبى وآكل فى مكتبى وأعيش فى مكتبى . حتى أسقط مغشيا على . ويظهر أن الله شاء أن يحرم بلادى التعسة من فكرى ورأيى وجهودى ، ولهذا وضعنى فى هذا المخبأ . ربما شاء القدر ان يضعنى فى ثلاجة حتى لا أصاب بالعفونة . .

اننى فى دهشة من انتحار المشير عبد الحكيم عامر . إذا كان لم ينتحر بسبب هزيمة ٥ يونيو ، فكيف ينتحر لان الرئيس أراد ان يجعله نائب رئيس الجمهورية . ولا يجعله قائدا عاما للقوات المسلحة ؟ وكم مرة اختلف المشير والرئيس فلم يفكر عبد الحكيم فى الانتحار؟ ان المنشور فى الصحف عن الانتحار يثير الريب والشكوك . وقد سمعت أن الرقابة كانت تتدخل فى كل سطر فى حادث الانتحار ، وتشطب سطورا وتضيف سطورا. وسمعت أن بعض فقرات من تقرير النائب العام عن الحادث قد شطبت , , لقد لاحظت فى السنوات الاخيرة خلافات عديدة بين المشير والرئيس . ولاحظت ان عبد الحكيم كان يضيق باستئثار الرئيس بكل السلطات . . كان فى أول الامر متحمسا لجمع السلطات فى يد عبد الناصر ، متصورا انها عندما تكون فى يد عبد الناصر تكون فى يد عبد الحكيم . وعندما شعر عبد الحكيم أن عبد الناصر

استعمله فقط ليسلب السلطات من باقى زملائه ويستأثر هو وحده بها ضاق بهذا الوضع . ولاحظت فى اجتماعاتى بعبد الناصر انه يهاجم كل الذين حول عبد الحكيم فيما عدا شمس بدران .

وكان يقول دائما ان عبد الحكيم تحت سيطرة الذين يقيمون له الليالى الحمراء ! وليس صحيحا ان عبد الناصر فوجىء بأن عبد الحكيم متزوج من برلنتى عبد الحميد ، فالمؤكد أنه كان يعرف بقصة هذا الحب من أوله ، ويعرف من عبد الحكيم نفسه انه قرران يتزوج من برلنتى ولم يعترض عبد الناصر ، وقد كنت اشك فى وقت من الأوقات ان عبد الناصر سكت عن هذه العلاقة حتى يغرق عبد الحكيم ، وحتى تسوء سمعته ، وعندئذ يسهل التخلص منه .

ولقد لاحظت ان الدولة هى التى سربت إلى صحف الخارج قصة زواج عبد الحكيم العرفى ، وقصة الطفل عمرو الذى رزق به عبد الحكيم من برلنتى ، واعترف به عبد الحكيم . والمقصود من هدا النشر هو القضاء على سمعة عبد الحكيم ، بحيث ينشغل الناس بغرامياته وينسون كيف مات ولماذا مات ؟ . . وأنا أتصور أنه بالقضاء على عبد الحكيم تم القضاء على كل أعوانه وانصاره فى الجيش ، فالذين كانوا يحبونه أحبوه لعلاقات شخصية معه ، وليس لارتباطهم بمبادىء معينة . . . ولا أتصور أن الاظلام التام الذى أحيط به حادث المشير سوف يستمر إلى الابد ، بل ان التاريخ كثيرا ما حدثنا عن أحداث مماثلة احيطت بالكتمان واسدلت عليها الاستار ، ثم جاءت الايام وازاحت التراب عن الاسرار المدفونة تحت الارض .

ولا أتصور انه سيخلف احد عبد الحكيم فى صداقة عبد الناصر ، بل لا أصدق ان أحدا من الذين حول عبد الناصر سيرث نفوذ عبد الحكيم . ستبقى دائما مسافة كبيرة بين عبد الناصر وبين من حوله ، وسوف يعاملهم كأتباع لا أصدقاء . وستتضاعف وحدته ويزداد انعزاله عن الناس ، وسوف يصبح من المستحيل تقديم النصح له . ولهذا فانى اختلف مع الذين يقولون ان خلاص عبد الناصر من عبد الحكيم سوف يخلصه من الطابع العسكرى ، وسيجعله

يتجه الى الديموقراطية والحريات . على العكس ، أن حكايته مع عبد الحكيم ستضاعف من شكوكه فى الناس . وسيزداد اعتماده على أجهزة المخابرات والمباحث ، وسيزداد اعتمادا على الجيش كقوة تحافظ على الآمن أكثر من اعتماده عليه كقوة تحارب خارج الحدود .

ومن الغريب أنه فى يوم انتحار المشير صدرت أوامر غريبة من وزارة الداخلية الى السجن . هى انقاص عدد السجاير التى أتسلمها ! ويظهر أن الذى أصدر هذا الامر كان فاضيا جدا فى هذا اليوم فلم يجد شيئا يفعله سوى اصدار هذا الامر الغريب .

وهكذا فى الوقت الذى يتوهم فيه السذج ان الفرج قريب تصدر الاوامر بتضييق النطاق حولى . كأننى المسئول عن انتحار المشير . ولم اهتم بهذا القرار فقد كنت مشغولا بتحليل الاحداث السياسية الكبرى التى تجرى الآن على البلاد . ولقد عودت نفسى من زمن على ان تصدر كل يوم قرارات متناقضة بشأنى . فمرة يتقرر منع الطعام ، ومرة يتقرر منع السجائر ، ومرة يتقرر منع الصحف ، ومرة يتقرر منع الرسائل ، ومرارا يتقرر أن تكون مقابلاتى مع أسرتى من خلال السلك الذى يشبه قفص القرود .

وكل هذه القرارات لم تهز أعصابى . ولم تشغلنى عن متابعة الاحداث التى تأخذ كل وقتى . .

اننى اذكر ان عبد الناصر كان يهاجم باستمرار امامي الفريق سليمان عزت قائد البحرية والفريق صدقى محمود قائد الطيران ، ويقول « انهما لا ينفعان » وأنه تعب فى اقناع عبد الحكيم باخراجهما من منصبيهما ، ولكن عبد الحكيم متمسك بهما . وكان عبد الناصر يضيق بالشلة التى حول عبد الحكيم . ويغار من أن الضباط يحبون المشير أكثر منه وكان ينسب هذا إلى أن « سيف المعز مع عبد الناصر ، ومال المعز مع عبد الحكيم » أى أن الضباط يرهبونه هو لانه يقطع الرؤوس ، بينما يحبون عبد الحكيم لانه يغدق عليهم مال الدولة بغير حساب .

وقد لاحظت ان الذين حول عبد الحكيم يحبونه . ولكن الذين حول عبد الناصر يخافونه . الذى بجوار عبد الناصر كان مستعدا ان يفعل نفس الشىء مع أى رجل آخر يعطيه نفس السلطة ونفس النفوذ ونفس السلطان . وسوف ينقلب على عبد الناصر اذا وجد من يعطيه سلطة اكبر ، وسوف ينقلب مع عبد الناصر اذا وجد ان السلطة اقل . والذين كانوا مع عبد الحكيم يحبونه لكرمه ولطيبة قلبه ولصراحته ، وهم مطمئنون إلى أنه لن يقدر عليهم ، أو لن يتآمر ضدهم ، أو لن يغضب عليهم لسبب تافه . ولكن القول بأن سبب الخلاف هو الديمقراطية وحماس عبد الحكيم لها وتمسك عبد الناصر بالدكتاتورية ، هذا القول أشك فيه كثيرا . ان عبد الحكيم كان يطالب بالديمقراطية كلما اختلف مع عبد الناصر ، فاذا تعانقا وتصالحا . عاد وتحمس للدكتاتورية ، ونسى مطالبته بالديموقراطية ، إنه مثلا كتب خطابا لعبد الناصر يطالب بالديمقراطية ، ومع ذلك قبل أن يكون رئيسا للجنة الاقطاع بعد ذلك بأربع سنوات ، وأصدر كثيرا من القرارات الاستبدادية التى لا تستند إلى دستور أو قانون ، وقد كان دائما يعتبر القانون شيئا ضد الثورة ، وان الثائر الحقيقى هو الذى يدوس على كل قانون ، حتى لو كان هو الذى وضع هذا القانون .

ولا أتصور ان وفاة عبد الحكيم سوف تجعل عبد الناصر يحتضن الديموقراطية حتى يسلب من عبد الحكيم أنه هو نصير الديموقراطية الوحيد . .

عبد الناصر بطبيعته الآن لا يستطيع ان يحكم حكما ديموقراطيا . لقد كان فى أول الثورة متحمسا حماسا كبيرا للحكم الديموقراطى وكان زملاؤه يقولون أن هذا « حماس تكتيكى » الغرض منه هو التخلص من الاحزاب الموجودة ومن الدستور القائم . . وكان المفروض ان يكون مجلس الثورة هو الذى حل محل البرلمان ، ولكنه لم يطق مجلس الثورة وحله . . . ثم أدى الانفصال إلى تأليف مجلس الرياسة ، ولم يطق عبد الناصر مناقشات مجلس الرياسة وحل المجلس بعد أن جعله كمية مهملة !

وفى أواخر هذه السنوات لم يكن يطيق مجلس الوزراء ولا مناقشات

الوزراء . . وقد كان فى أول الامر صبورا على المناقشة ولكنه بعد مرضه أصبح يثور على الذى يعارضه .

وقد حدث مرة ان قلت له أن بعض الوزراء يشكون من انهم يعينون فى الوزارة ، ويبقون فيها سنوات ويخرجون منها ، دون ان يقابلوا عبد الناصر ! . . وقال عبد الناصر أنه لا وقت عنده لمقابلة الوزراء . فقلت له أنه من الممكن ان يعقد مجلس الوزراء مرة كل اسبوع . قال : هذا كثير . . . سوف اعقده مرة كل اسبوعين .

وفعلا بدأ يعقد مجلس الوزراء مرة كل اسبوعين . . . وبعد اسابيع قليلة توقفت الاجتماعات ، وقال لى عبد الناصر ان الوزراء يضيعون وقته بكلامهم الفارغ !

واليوم يعودون الى الكلام عن عقد مجلس الوزراء من جديد ويظهر ان هذا كان نتيجة السخط العام بأن ما حدث لمصر من هزيمة هو نتيجة الحكم الفردى ، وأن الرئيس لا يستشير الوزراء . . . وهذا اتجاه طيب وأرجو ان يستمر . . .

ولقد كان عبد الناصر يروى دائما حكاية مشهورة فى تاريخ الرئيس ابراهام لنكولن رئيس جمهورية الولايات المتحدة . . وهى أنه عقد مجلس الوزراء برياسته ، وعرض على المجلس اقتراحا . وجرى التصويت على الاقتراح .

فاذا تسعة وزراء ضد الاقتراح . والرئيس لنكولن وحده مع الاقتراح وعندئذ قال الرئيس :

ـ اذن وافق مجلس الوزراء على الاقتراح !

وكان هذا هو السبب الوحيد لاعجاب الرئيس عبد الناصر بالرئيس لنكولن !

ان فى رأيى انه اذا كان عبد الحكيم عامر انتحر فسبب ذلك هو خيبة أمله فى

عبد الناصر ، لانه ادخله الحرب وهو يؤكد له ان اسرائيل لن تحارب ، وأنه أراد ان يجعله كبش الفداء ليحمله وحده مسئولية الهزيمة .

أما اذا كان عبد الحكيم لم ينتحر ، فسيكون سبب مصرعه هو خيبة امل عبد الناصر فيه . لقد تعود عبد الناصر فى الخلافات الماضية أنه ما يكاد يجتمع بعبد الحكيم بعد الخلاف حتى ينهار عبد الحكيم متأثرا بحبه لعبد الناصر ويغرق فى الدموع ، ويتبادلان القبلات ، ولكن فى المرة الاخيرة وجد عبد الحكيم صلبا ، لا يقبل أنصاف الحلول ، لم يغرق فى الدموع . . . وعندئذ وجد الذين حول عبد الناصر أن عبد الحكيم قد تغير ، وأصبح من الممكن أن يكون خطرا ، وأن برلنتى عبد الحميد غيرته وجعلته واسع المطامع ولهذا رأوا ضرورة التخلص منه . .

وعلى كل فسيبقى مصرع عبد الحكيم لغزا الى سنوات طويلة .

شوربة من هيلتون

٧ أكتوبر ١٩٦٧

عزيزتى . . .

من الحوادث الطريفة التى وقعت لنا ان أحد زملائنا المسجونين السياسيين لم يعجبه الطعام الذى يطهيه لنا مطبخ الليمان ، وأفهمنا أنه « اسطى باشا » وأنه خبير فى صنع أفخر المأكولات ، وأنه اذا اتيح له فرصة العمل فى مطبخ الليمان فسيقدم لنا أشهى أنواع الطعام . . .

وتحمسنا للفكرة ، واستطعنا أن نقنع الضابط المشرف على المطبخ بتشغيله فى المطبخ .

ووعدنا بأن يصنع لنا شوربة كالتى يقدمها فندق هيلتون للزبائن .

واحضر الزميل حلة كبيرة جدا وضع فيها فول مدمس ، ثم وضع فوقه شوربة عدس ، ثم وجد بقدونس فى حديقة الليمان فاقتلعه ووضعه كما هو فى الحلة ، ووجد كرات مع أحد المسجونين فوضعه فيها ، ثم وضع فلفل وشطة ، وصرف السجن جبنة بيضاء فوضعها فوقها . .

وحدث أن كان أحد المسجونين يمر أمام المطبخ . وتوقف وخلع حذاءه فاذا بالحذاء يقفز ويسقط فى الحلة . .

وتقدم المسجون نحو زميلنا الطباخ الماهر وقال له :

ـ أسف ان حذائى وقع فى الحلة !

ومد الطباخ يده داخل الحلة ثم اخرج حذاء المسجون وسأل المسجون :

ـ هل هذا حذاؤك ؟

فقال المسجون : لا . . موشى دى .

وظهر ان عددا من الاحذية سقط قبل ذلك فى الحلة .

وقال المسجونون السياسيون ان السبب فى كثرة الاحذية هو كثرة المسجونين الذين ذاقوا هذه الشوربة العجيبة ، أو أنهم أرادوا أن يعبروا عن رأيهم فى الشوربة فألقوا عليها الاحذية .

. وبينى وبينك كانت هذه الشوربة ألذ من الشوربة التى اعتاد الليمان ان يقدمها لنا ! !

تدبير انقلاب عسكرى فى السجن ؟

١٠ اكتوبر سنة ١٩٦٧

عزيزق . . .

استيقظت من النوم فوجدت فى داخل زنزانتى اثنين من ضباط المباحث وثمانية من المخبرين يملأون زنزانتى الصغيرة . فتحوا الباب بهدوء أثناء نومى ، ودخلوا على أطراف أصابعهم . ودهشت وأبديت أسفى أن الزنزانة صغيرة ولا يستطيع العشرة أن يتحركوا فيها ، وخرج ضابط وستة مخبرين ، وبقى ضابط ومخبران . وراحوا يفتشون كل مليمتر فى الزنزانة . يقرأون كل خطاب . يبهدلون الملابس . يضعون أيديهم فى جيوب بدلة السجن ، يتحسسون قماش البدلة خشية أن أكون أخفى فى ثناياها ورقة ، يفتحون زجاجات الدواء ويفرغون الحبوب التى فيها . وبعد ذلك فتشونى شخصيا . فتشوا ملابسى الداخلية . ثم فتشوا كل مكان فى جسمى قالت الصحف ان المشير عبد الحكيم عامر كان يخفى فيه السموم . ثم فتشوا الشبشب الذى فى قدمى . وبدأوا يدقون الجدار بأيديهم بحثا عن مخابىء سرية قد أكون صنعتها لأخفى فيها الممنوعات . ثم انبطحوا على بلاط الزنزانة يبحثون عن مخابىء تحت البلاط ، ثم مدوا أيديهم بين قضبان نافذة الزنزانة يبحثون عن مخبأ فى الجدار الخارجى . وبان عليهم الذهول لانهم لم يجدوا شيئا .

وأرسلوا يستنجدون بالضابط الآخر الواقف أمام الزنزانة فدخل وبدأ يفتش من جديد ، ويتفنن فى البحث عن أمكنة لاجراء التفتيش وكان مهتما اهتماما خاصا بجردل البول ! وفى الوقت نفسه وقف عدد من المخبرين تحت نافذة زنزانتى فى فناء السجن حتى لا أرمى من النافذة شيئا , , واكتشفت أنهم يبحثون عندى عن جهاز ارسال وديناميت ومنشورات . وضحكت كثيرا وأنا أرى خيبة الأمل فوق وجوههم . وكان فريق آخر مؤلف من ضابطين و ٢٥ مخبرا يفتشون

باقى زنازين المسجونين السياسيين . حتى لا أكون قد خبأت المفرقعات والقنابل عند أحد زملائى من المسجونين السياسيين .

وأخبرنى الاستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين أنهم مكثوا ساعة يفتشون زنزانته ، ويقلبونها رأسا على عقب ، وأنه علم من أحد الضباط الذين فتشوه أن لدى المخابرات تحريات تقول انه وأنا نعد من داخل السجن انقلابا مسلحا ضد الحكومة ، وأننا نخفى داخل السجن الاسلحة التى سوف يستعملها المسجونون السياسيون عندما ينقضون على السجن ، ويقبضون على الحراس والضباط ، وينطلقون للاستيلاء على الحكم . وان لدى جهاز ارسال اتصل به بقوات عسكرية فى الثكنات المحيطة بالليمان ، وأن الاتفاق تم بين الهضيبى وبينهم على اخفاء الذخائر داخل ليمان طرة لتكون بعيدة عن أى شك . وضحك الهضيبى وقال أنه يعتقد أن المسئول الذى أجرى هذه التحريات لابد انه اكثر من تدخين الحشيش حتى وصل إلى كل هذه النتائج والاقتراحات .

ومن الغريب أننى فى الليلة السابقة تلقيت هدية من أحد أصدقائى عبارة عن جهاز راديو ، ورفضت ان أتسلمه ، لان الراديوهات ممنوعة فى الليمان ، وأهديته الى مسجون غير سياسى .

* * *

أفكر احيانا فى شقتى فى الزمالك . أحن اليها وأنا أسترجع ذكرياتى فيها . الذكريات هى السيقان الخشبية التى نستعين بها على المشى عندما يحولنا الزمن الى مقعدين . ولكن هذه السيقان الخشبية تتحول أحيانا الى اطراف صناعية حقيقية كالتى استطاع الجراحون اخيرا تركيبها فى الجسم ، فجعلوا المقعدين يتحركون ويقفزون ويجرون . فى هذه الشقة نبضات قلبى . اننى اعشق الحجر . اتصور ان هذه الاحجار الجامدة الصماء ليست جامدة ولا صماء . فيها بقايا أنفاس . بقايا زفرات . بقايا أنين . بقايا ضحكات .

لقد عشت فى هذه الشقة منذ عام ١٩٤٩ أى ١٨ سنة أدفع ايجارها بانتظام

وأرادوا أن يطردونى منها ويرغمونى على التنازل عنها فى اثناء المعركة ليقيم فيها ضابط برتبة فريق ! حتى لو أخذوا منى هذه الشقة فاننى سوف أسكنها بذكرياتى . . لا أحد يستطيع ان يستولى بقرار جمهورى على ذكريات انسان !

انى أحب الارض لاننى اتخيل انه مشت فوقها اقدام عشاق وحالمين . . اعشق الزهر لاننى اتصور ان فى رائحته أنفاس محبين . لا أنظر للأشياء بظواهرها ، وإنما بما هو خلفها . أرضية الصورة هى التى تصنع جمالها . الظلال الباهتة فيها هى التى تبرز روعتها احيانا اطل من نافذة عنبر السجن المطلة على شارع الكورنيش . فأرى غلائل السحب الرقيقة تحاول ان تخفى جمال السماء ، كما كان يحاول اليشمك الابيض فى أيام جداتنا ان يخفى وجه حسناء فاتنة الجمال . أنا لا أتطلع الى اليشمك ، ولا أتسمر أمام الحجاب ، بل تقفز عيناى لارى الجمال المختفى خلفه . فقد أرى التراب فوق بعض البيوت الجرداء ، ولكن الغبار لا يستوقف نظرى . أرى تحت الغبار جمال الناس الطيبين الذين يعيشون فى هذه الاطلال والاكواخ . قد ألقى نظرة على شجرة جافة ورقها شاحب أصفر ، فروعها ذابلة فلا يقذى عينى ان الخريف جردها من ورقها الاخضر الجميل ، ولكن بصرى يمتد إلى الربيع فلا أرى الا الشجرة وهى مورقة مزهرة جميلة مخضرة .

وعندما التقى بملكة جمال فى شيخوختها ، كنت لا أرى التجاعيد فى وجهها وانما ارى شبابها قبل أن يذهب ، ونضارتها قبل أن تذبل . السنون لا تقف بينى وبين الجمال . أنا لا أحب ما أراه ، وانما ما أبصر . ولست أعرف هل هذه هى خاصة بى وحدى ، أم أن كل الناس مثلى ؟ من حسن حظى ان بصيرتى أقوى من بصرى . وكلما ضعفت عيناى قويت بصيرتى . ولهذا فان الشوارع الكئيبة المعتمة المهجورة تذكرنى بميادين الحياة المشرقة الباسمة . كأننى اسمع من بعيد أجراس الحياة تدق بعنف وأنا جالس فى زنزانة الصمت . الوحدة القاتلة تنقلنى إلى الحياة خارج الجدران بضوضائها ورنينها ، بسرعتها وبطئها ، بصرخاتها وضجيجها ، بدويها المروع وصمتها المخيف . فى هذا كله اسمع صدى انغام

حلوة والحان عذبة كلمات رقيقة وهمسات ناعمة تسكبها ذكرياتى واحلامى . فى اذنى .

وعندما انظر حولى وأرى بلادى لا أرى حاضرها التعس وانما أشهد مستقبلها المشرق . لا تفجعنى خرائبها وإنما تثيرنى أحلامى بما سوف يقوم فيها من عمارات ومشروعات ومصانع . فى رأيى ان مصر سيكون لها أكبر مستقبل فى هذه المنطقة كلها ، والذى تسمعونه الآن ليس أنين الحاضر ، بقدر ما هو مخاض المستقبل .

انى أمضى وقتى فى سماع اذاعة السجن وتتبع أنباء المعركة الذى تريد ان تقوله الاذاعة والصحافة للناس انه لن تمضى أيام حتى نكون قد اعلنا الحرب من جديد ، وحولنا الهزيمة إلى نصر .

وقد كنت أتمنى أن نكون تعلمنا من الهزيمة ألا نعود إلى الكذب وخداع أنفسنا .

ويبدو أننا مصممون على أن نرتكب كل الاخطاء . . لاننا نعيد أنفسنا . . ونعيد كل شىء فينا . . حتى أخطاءنا .

المعركة سوف تطول . . سوف تستمر سنوات . ويجب ان يعد الشعب لذلك . ويجب ان يعلم انه لن ينتصر الا اذا فكوا قيوده أولا . . الحرية هى الخطوة الأولى للنصر . .

ايمانى لا يتزعزع بأن مصر سوف تنتصر باذن الله . هذه المعركة هى معركتنا كلنا لانها معركة مصيرنا وحياتنا وأحلام شعبنا . وفى هذه الظروف يجب أن ينسى كل فرد فينا آلامه الشخصية ولا يذكر الا مصلحة وطنه . أننى كما قلت لك افضل أن أعيش سجينا فى بلد منتصر ، على أن أعيش طليقا فى بلد مهزوم .

التعذيب مستمر

٩ نوفمبر سنة ١٩٦٧

عزيزتى . . .

لا أعرف هل أكتب لكم أكثر من اللازم ؟ هل أرهقكم بالاكثار من الكتابة ؟ قلت لكم قبل الآن أننى أجد لذة فى الكتابة إلى الذين يحبوننى . . كلما وجدت نفسى وحدى أشعر أننى فى حاجة إلى أن أمسك بقلمى وأكتب إلى كل الناس . أن أكتب طويلا . ولا أنتهى من الكتابة أبدا . لعل السبب فى ذلك أننى تعودت طول حياتى أن أكتب إلى الملايين . أحدثها . أناجيها . أفتح لها قلبى . ربما لاننى أحس ان الذين يحبوننى يشعرون أنهم فى وحدة . الحياة فى ظل إنعدام الحرية هى وحدة مريرة . الخوف والصمت أشبه بجدار الزنزانة . ربما أشعر أننى ألعب لعبة استغماية مع الحياة ، أصدقائى هم الأم أخفى فى حجرها رأسى فلا يمسكنى من يحاولون إمساكى وإخراجى من اللعبة .

الكتابة فى السجن ليست أمرا سهلا . تحتاج إلى مجهود شاق واحتياطات للوقاية من الضبط ومع ذلك أجد هناء فى هذا المجهود . ولذة فى هذه المحاولات . المسجون الذى يضبطونه يكتب أكثر من خطابين فى الاسبوع يضعونه فى التأديب . والتأديب زنزانة ليس لها نافذة كالزنزانة التى وضعونى فيها عندما دخلت الليمان . ينام المسجون على الأرض . لا سرير ولا مرتبة . يرتدى بدلة زرقاء أما واسعة جداً يهرهر فيها ، وأما ضيقة جدا يختنق فيها . يأكل من طعام السجن الملعون . يمنع من تدخين السجائر . لا يفتح باب الزنزانة إلا خمس دقائق فى اليوم ليذهب إلى دورة المياة ومع ذلك فاننى أغامر وأكتب وأكتب ، وأجد فى تهريب رسائلى إلى الخارج ، واستقبال الرسائل المهربة إلى داخل السجن متعة تحدى هذه الانظمة الظالمة ! وبهذا التهريب تصل خطاباتى لكم بسرعة ، وتصلنى خطاباتكم بسرعة الصاروخ . . .

وقد يهمكم أن تعرفوا كيف تصل خطابات أسرتى التى تصل بالطريق الرسمى . تذهب أولا إلى مكتب أركان حرب السجن ، وبعد أن يفتحها ويقرأها يرسلها إلى مكتب بريد الليمان ، وبعد ذلك ترسل إلى ضابط العنبر ، وبعد أن يقرأها يوقع عليها ، ثم يرسلها مع المسجون النوبتجى الذى يعمل فى مكتبه . وهو رجل فى السبعين من عمره . قصير القامه . أسمر الوجه . له لحية بيضاء . يحمل دفترا . وعندما يصل إلى خطاب يقفز المسجون ساعى البريد درجات السلم أربعا فى أربع ، وكأنه يحمل إلى بشرى الافراج . وفى يوم الاحد الماضى عندما أحضر خطاب ابنتى الذى فيه أن بعض الصحف فى الخارج نشرت أنباء الافراج عنى كان يرقص ، وكانت لحيته ترقص معه . وذكر لى أن ضابط العنبر قال أن نبوءته قد صدقت . فقد قال له أن مصطفى أمين سيفرج عنه ، وهذا الخطاب يؤيد ذلك . وأخذ ساعى البريد المسجون يصرخ بأعلى صوته معلنا نبأ الافراج ، والتف حوله زملائى المسجونون السياسيون يريدون أن أقرأ الخطاب عليهم . كل مسجون منهم يتوهم أن معنى الافراج عنى هو الافراج عنهم جميعا .

أنا الذى سوف افتح لهم باب السجن ! وهم يدعون لى وكأنهم يدعون لأنفسهم بالأفراج . ولقد رويت لهم ما فى الخطاب ، ولولا الفضيحة التى سببها لى ساعى البريد لما قلت شيئا . فأنا لا أريد أن يبنوا قصورا فى الهواء . وفى هذه الأيام تتوافر الاشاعات بشدة عن قرب الافراج عنى . وقد قال لى مدير السجن أن العادة جرت ألا يسجن المسجون السياسى أكثر من عامين ، ثم يفرج عنه . هكذا حدث لابراهيم عبد الهادى رئيس الوزراء السابق ، ولفؤاد سراج الدين وزير الداخلية السابق ، ولمحمد صلاح الدين وزير الخارجية السابق ، ولعبد الفتاح حسن وزير الشئون الاجتماعية السابق ، ولرشاد مهنا الوصى السابق على العرش ، ولغيرهم وغيرهم من الضباط الذين اتهموا بتدبير مؤامرات وحكم عليهم الفريق الدجوى بالاشغال الشاقة المؤبدة .

قلت له لقد توسطت لدى الرئيس عبد الناصر عن الافراج عن بعض

هؤلاء ، وتوسط المشير عبد الحكيم عامر للافراج عن أكثرهم وأنا الآن فى السجن ، والمشير فى القبر ، والذين حول الرئيس الآن من رأيهم وضع نصف الشعب المصرى فى السجن ، لا الافراج عن المسجونين السياسيين .

وقال لى مدير السجن أن من رأيه أن أكتب خطابا للرئيس اذكر له أمراضى وأطلب منه الافراج عنى .

فقلت له اننى عندما كنت على صلة وطيدة بالرئيس لاحظت انه لا يتأثر بخطابات الشكوى من المسجونين ، وهو يعرضها على زواره ، ليروا كيف أن فلانا الذى كان يبدو بطلا خارج السجن تحول الى أرنب داخل السجن . .

وحدث مرة أن سمعت أن اللواء محمد نجيب أرسل خطابا من معتقله إلى الرئيس عبد الناصر . . فانتهزت فرصة مقابلتى للرئيس وسألته عن فحوى هذا الخطاب . . وفوجئت بالرئيس يقول لى : أنا لم أقرأ هذا الخطاب .

قلت : ولكنى سمعت ان محمد نجيب أرسله لك منذ أسبوعين .

قال عبد الناصر : نعم وصلنى الخطاب منذ أسبوعين ، ولكنى لم أفتحه ، وتركته مغلقا كما هو فى مكتبى .

وعندما رأى الرئيس دهشتى ، قام من مكانه واتجه إلى مكتبه ، وفتحه وأخرج الخطاب مغلقا ، وقد كتب على الغلاف من : اللواء أركان حرب محمد نجيب . . .

وفض الرئيس الخطاب فإذا به من محمد نجيب عن ظلم تعرض له أحد أولاده . .

وطوى الرئيس خطاب محمد نجيب وإنتقل إلى موضوع آخر . وقلت لمدير السجن : فإذا كان هذا مصير خطاب رئيس الجمهورية السابق فما بالك بمصير خطابى . اننى أكتب لجمال عبد الناصر عن رأى سياسى ، وعن استعدادى

لأخوض معه معركة ، ولكنى لا أكتب له أبدا أطالب بالافراج عنى . .

وأنا فى رأيى أن اشاعات الافراج عنى اشاعات ليس لها اساس . . وأنها جزء من حملة مرتبة ، مقصودا بها حقن الناس بكلورفورم من الأمل ، لكيلا يشعروا بآلام الهزيمة وجروحها . . فيقال للناس سنفرج عن المسجونين السياسيين ، ولا يفرج عنهم . ويقال لهم سنلغى المعتقلات ثم تبقى المعتقلات . ويقال لهم ستعود الحريات ويبقى الارهاب . . والمقصود أن يتحمل عبد الحكيم عامر وشلته وزر كل الكبت وكل المساوىء التى يشكو منها الشعب . ان المشير فى القبر وصلاح نصر فى السجن وشمس بدران فى السجن وحمزة البسيونى فى السجن ، ومع ذلك تجىء لى الاخبار من السجن الحربى أن التعذيب لا يزال مستمرا .

ولا أتصور ان المشير أصدر قرارا من قبره بتعذيب أصدقائه الضباط الذين اتهموا فى مؤامرته !

تنظيم حملة صحفية
من داخل السجن

١٠ نوفمبر ١٩٦٧

عزيزتى . . .

أشعر بخجل من نفسى ، وأصدقائى وتلاميذى ينهالون على بخطابات من خارج السجن . . ان معى فى السجن عشرات من المسجونين السياسيين حرموا منذ أكثر من عامين من أن يكتبوا خطابا واحدا أو يتسلموا من أهلهم خطابا واحدا . حرموا من أن يشربوا سيجارة . حرموا من أن يقابلوا أولادهم وزوجاتهم وأمهاتهم . لا يعرفون هل أولادهم أحياء أو أموات ، مرضى أو أصحاء فى عالم الحرية أو فى غياهب السجون . ان ما أتحمله من عذاب فى سجنى أقل كثيرا مما يتحمله غيرى ، وأحمد الله على ما أنا فيه إذا ما قارنته بأيام سجن المخابرات فى شهور يوليو وأغسطس وسبتمبر وأكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٦٥ . عندما كنت لا أعرف هل أصدقائى وأحبائى وأعضاء أسرتى فى السجن أم مطلقو السراح ! هل أخى موجود فى الخارج أم خطفوه ووضعوه فى صندوق وأرسلوه إلى القاهرة ؟ لا أتلقى خطابا ولا أقرأ جريدة أو كتابا . حتى المصحف الشريف حرمت منه . ثم أقارن بين حياتى الآن وحياتى فى أيامى الأولى فى ليمان طره . كيف أمضيت أيامى الأولى لا أجد طعاما آكله . ولا سيجارة أدخنها . أيام كنت أنام على الأرض ، والروماتيزم الملعون يفترس مفاصلى ، والبرد يلدغ سلسلتى الفقرية مثل لدغات الثعبان . أيام كنت لا استطيع أن أقرأ جريدة واذا وقعت فى يدى خبأتها داخل ملابسى كقطعة من الحشيش ، ثم أستيقظ عند الفجر وأمزقها أربا أربا ، لكى أخفى معالمها . حتى لا يجىء الشاويش ويضبطها معى كأنها قنبلة ذرية أخفيها ، أيام كنت أمضى ليالى أقتل الصراصير فى زنزانتى ، وأتصور أن كل حشرة منها واحد من الذين ظلمونى ، وأن حذائى هو السلاح الوحيد الذى بقى معى لأعبر به عن رأيى ! أيام كنت لا أملك ورقة ولا قلما ولا مظروفا

ولا ورقة بوستة . أيام كنت أعيش أسابيع ببدلة زرقاء ممزقة ، لا أملك سواها ، أخرج بها ، وأنام فيها . أيام كانت تعليمات الدولة بأن أعامل فى السجن مثل وباء الكوليرا . ممنوع على أى انسان ان يقترب منى ، أو يتحدث إلى . أيام كان يهدد كل مسجون بأنه إذا حيانى من بعيد بأنه سوف يسجن فى التأديب أو سوف يجلد أو سوف ينزل به أشد أنواع العقوبات . أيام أخلوا كل الطابق الذى أقيم فيه من جميع المسجونين ، وبقيت فيه وحدى مع خمسين زنزانة خالية . أيام كان ممنوعا على أى مسجون أن يقترب من الزنزانة التى أنا فيها أو يمر أمامها ، وإذا نزلت إلى فناء السجن لأتمشى فيه ، أخلى الفناء من مئات المسجونين ، ومن الحراس لامشى وحيدا منفردا منبوذا لا يرانى احد ، ولا أرى أحدا ، ولا يكلمنى إنسان ولا أكلم إنسانا . كانت هذه أياما مريرة شاقة قاسية كريهة مؤلمة . وكانت الليالى أشد مرارة وشقاء وقسوة وكراهية وبؤسا وفظاعة . مرت على هذه الأيام الملعونة وكنت أحرص على ألا أكتب لكم شيئا عنها ، حتى لا أزيد من عذابكم وآلامكم ولا أضاعف شقاءكم وأحزانكم . ومع ذلك لم أفتح فمى مرة واحدة بالشكوى ولا بالاعتراض ولا بالاسترحام . اننى لا أجيد الكلمات الراكعة . كنت واثقا ان اليد التى تضرب سوف تتعب من الضرب . وأحمد الله أن ايمانى بالله كان يشتد مع اشتداد الاذى . وكان يتضاعف مع العذاب . كلما زادوا فى ايلامى زدت فى صمودى . ما أبعد الفرق بين حياتى الأولى فى غرف التعذيب وحياتى فى زنزانة ليمان طره . انها كالفرق بين الجحيم والجنة ، اليوم يفتشون زنزانتى كل صباح وكل مساء . وأنا لا أشكو من ذلك بل أننى أدعو الشاويش بنفسى ليفتش الزنزانة إذا نسى أن يفتشها . أصدقائى من المسجونين العاديين يخفون الممنوعات فى زنازينهم أو فى أماكن أخرى لا تخطر على البال . بعض أوراقى مدفونة تحت الارض ، وبعضها مخبوء فى مكاتب الضباط دون علمهم ! أما زنزانتى فليس فيها أى شيء ممنوع سواى . اننى مدين لذكرياتى الحلوة التى استطاعت ان تمحو حاضرى المرير . الانفاس الحارة للذين يحبوننى كانت تدفئنى فى برودة الزنزانة . لم تكن زنزانتى هنا هى زنزانة العذاب أبدا ، بل كانت قصر الشوق دائما . لم تكن قبرا لى كما أرادوها ، بل كانت خزانة لاحلامى .

انى أشعر بسرور اليوم لانى استطعت وأنا فى زنزانتى ان اثير مسألة بعض المظلومين . قانون المخدرات الذى صدر عام ١٩٥٢ قضى بالحكم على أى حامل للمخدرات بالاشغال الشاقة المؤبدة وفى ظل هذا القانون حكم على الألوف بالسجن المؤبد ، بينما صدر قانون آخر سنة ١٩٦٠ هبط بالعقوبة من الاشغال الشاقة المؤبدة إلى الاشغال الشاقة المؤقتة . وحاول المسجونون أن يطلبوا تطبيق القاعدة القانونية بأن المحكوم عليه يستفيد من صدور قانون جديد يهبط بالعقوبة القاسية إلى العقوبة الأخف . ولم يسمع لهم أحد ولم يهتم بهم أحد . وبرغم أنه لم يعد لى حول ولا طول ، وبرغم انى لا استطيع ان اطلب من صحفى واحد ان يكتب عن هذا الظلم ، فقد استطعت ان أجعل الصحف تكتب عنه . ونظمت حملة واسعة من داخل السجن ، وأمطرت الوزراء والنواب والصحفيين بخطابات تطالبهم بأن يتحركوا وينفذوا القانون . ونجحت فى أن أجعل تلميذى رأفت بطرس المحرر بأخبار اليوم يكتب عن هذا الظلم تحقيقا رائعا نشرته آخر ساعة . واستطعت من زنزانتى أن أجعل هذا الموضوع موضوع الساعة ، وكانت النتيجة أن صرح وزير العدل للصحف أنه سيبحث حالة هؤلاء المظلومين . وتلقيت اليوم أنباء مؤكدة بأنه سيفرج عن كثيرين منهم نتيجة هذه الحملة الصحفية . كانت لذتى الكبرى فى عالم الحرية أن أرفع الظلم عن المظلومين ، أو أن أمنع الظلم عنهم . لم أتصور أبدا أن الله سوف يعطينى الفرصة لأفعل نفس الشيء وأنا مقيد فى زنزانتى . هذا شيء أسعدنى كثيرا . شعرت أن يدى لا تزال تستطيع أن تتحرك ، وتمتد لانقاذ المظلومين ، حتى وهذه اليد مقيدة بالسلاسل والاغلال . وإذا تم ما أرجوه وأفرج عن هؤلاء الألوف فسوف تنفتح بيوت أغلقت ، وتعود الروح إلى ألوف الاسر المشردة ، وسوف أكون نجحت فى إسعاد ألوف من الأمهات والزوجات والأبناء والبنات . ان عندى عشرات من هذه القضايا . أتمنى لو استطيع وأنا هنا فى زنزانتى أن أرفع الظلم عن أصحابها . ناس لا أعرفهم ولا يعرفوننى . ولكن يجمعنا ان كل واحد منا مظلوم . هذا الاشتراك فى الظلم يجعل بيننا نوعا من الصداقة والزمالة والأخوة . والمهم انى استطعت أن أفعل كل هذا فى صمت وهدوء . وكان يهمنى أن أحمى أصدقائى

الذين ساعدونى خارج السجن فلا يعرف أحد أنهم إستجابوا لرغبتى وقاموا بهذه الحملة الممتازة . فلو عرفت الحقيقة لامتلأت المعتقلات بعدد من الصحفيين والمحررين . لذتى أن أرى الوجوه الحزينة اليائسة يعلوها الأمل من جديد . اسعاد الناس هوايتى . وسجنى لا يجعلنى أمارس هذه الهواية كما أتمنى وأريد . ولكنى أحاول أن أفعل شيئا فى حدودى الضيقة .

لدينا بعض المسجونين تسعدهم سيجارة . نعم سيجارة واحدة ! أحد المسجونين جاءنى اليوم يرجونى بألا القى أعقاب سجائرى فى الزبالة ، فهو يحتاج إليها ليجمعها ويصنع من مجموعها سيجارة يدخنها بشراهة . هذه السيجارة تعنى لبعض الناس رغيف عيش زيادة ، وتعنى لدى آخرين أن ينجو من ضرب شاويش شرس . وتعنى لدى بعضهم أن يأخذ حقه من الفول المدمس . ومن العجيب ان وزير الدخلية أعطى تعليمات بألا تكون عندى سجاير كافية خشية أن أعطى سيجارة لمسجون . ياهم من مغفلين . السيجارة لا تشترى مسجونا ، وانما تستطيع شراء الناس بأن تحبهم . إننى أمشى فى السجن وأبذر بذور الأمل فى اليائسين . أملأ صدر المقهورين بالاحلام . أحاول أن أجفف دموع المعذبين المهزومين بمناديل من مشاعر إنسانية ومشاركة بالاحساس . أضمد جراح المخنوقين المذبوحين بابتسامات مشجعة . أحاول دائما أن أكون ساحرا أجد تعاويذ وأحجبة مسحورة لكل داء . ولست أزعم انى أنجح دائما ، ولكننى أقول إننى أحاول دائما . تسعدنى المحاولة ويشقينى الفشل . ومن الغريب أننى أحاول أن أسعد الذين لا اعرفهم وأنجح ، وأفشل فى أن أساعد زملائى المسجونين السياسيين الذين معى فى نفس القبر . كل ترياق أرسله اليهم لا يشفيهم من لدغة ثعبان السجن . كأنها وصفات دجال لا أدوية طبيب . انى أعلم أن عذابهم لن ينتهى الا بالافراج عنهم . فهل أستطيع وأنا هنا فى زنزانتى أن أقوم بحملة للمطالبة بالافرج عن المسجونين السياسيين كما نجحت فى الافراج عن المحكوم عليهم بالمؤبد فى قضايا المخدرات ؟

ان الصحف المصرية تحت رقابة شديدة . فى كل دار صحفية رقيب يقرأ كل

شيء ويراجع كل شيء . الارهاب يملأ صدور الصحفيين الذين ذاقوا التشرد والجوع والفصل والنقل من الجريدة إلى مصانع الاحذية ومصانع السردين . لم يبق صحفي كبير في مصر لم يذق طعم البطش والارهاب والجبروت إلا اذا قبل أن يكون حذاء في قدم الحاكم يدوس به على الابرياء !

وعندما اتطلع في وجوه زملائي المسجونين السياسيين اقرأ عذابهم . أقرأ

عذاب زوجاتهم وأمهاتهم وأولادهم . أفكر في الاجزاء التي بقيت من كل واحد منهم خارج السجن ، في أقارب لهم يعيشون في زنزانات وهمية ، ولكنها أشد قسوة من الزنزانات الحقيقية . أحيانا أحاول أن اخدع نفسي وأقول لهم ان هذا العذاب لن يطول . قطعنا أغلب طريق العذاب ، ولم يبق إلا بضع خطوات إلى نهاية الطريق ولكن نفسي لا تنخدع . أنا أعرف أن الظلم سيطول بطول عمر حكم الظالمين . ومع ذلك أرى أنه لابد أن تجيء نهاية الظلم والظالمين .

تعلقي بالأمل هو نوع من المقاومة . مقاومتي الوحيدة ، أقاوم اليأس ، أقاوم الانهيار . وأعتقد أن الله هو الذي جعلني أنجح في هذه المقاومة ، لم أسقط تحت الضربات التي إنهالت على رأسي . لم أركع تحت وطأة السياط النفسية التي أدمت روحي والسياط الجسدية التي نزفت دمي . ان صمودي هو صلاة أؤديها . لم تكن صلاة واحدة مرة في اليوم . بل صلاة مستمرة متواصلة . عندما انظر ورائي أجزع لطول الطريق الذي اجتزته ، لضخامة الاهوال التي مرت بي . ويزيد في جزعي انني لم أكن وحدي . معي في السجن ألوف المظلومين إنهالت على رؤوسهم كل الضربات وكل الطعنات .

هل استطيع وأنا في السجن أن أنظم حملة في صحف العالم والصحف العربية للمطالبة بالافراج عن المسجونين المصريين والمعتقلين المصريين . .

ولو ضبطوني فسيقولون انها خيانة وطنية . . طبعا هي خيانة وطنية أن تطالب بالعدل في دولة الظلم ، وأن تنادي بالحرية وأنت في زنزانة !

لا يهمنى ما يصيبنى . . ولكن الذى يهمنى أن أعرف هل هذه الحملة سوف تفيد المسجونين السياسيين أم تضرهم ؟

سألت الاستاذ الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين معى فى الزنزانة المجاورة عن رأيه فى أثر هذه الحملة .

فقال باسما :

ـ رأيى أنه سيصدر أمر بعدها بقتل جميع المسجونين السياسيين ودفنهم سرا فى الصحراء ، وبعد ذلك يصدر بلاغ رسمى بأنه لا يوجد فى مصر مسجون سياسى واحد !

الخطاب المضبوط !

١١ نوفمبر سنة ١٩٦٧

عزيزتى . . .
اليوم عيد ميلاد أخبار اليوم . . اليوم مرت ٢٣ سنة على انشائها .

واحتفلت أنا بعيد أخبار اليوم . . بطريقة غريبه لم تخطر على بال . صدرت الأوامر بإغلاق جميع الزنزانات علينا . لا نخرج منها أبدا إلا لمدة نصف ساعة . قرار ثان بأن يمنع جميع المسجونين السياسيين من التحدث مع بعضهم البعض . قرار ثالث بأن يمنع أى مسجون من التحدث معى أو أن أتحدث إلى أى مسجون . قرار رابع بنقل مأمور العنبر . قرار خامس بنقل شاويش العنبر . ودهشت لهذه التعليمات الجديدة التى تشبه تماما المعاملة القاسية التى عوملت بها فى أول دخولى الليمان . وأحسست أننى المقصود بها وأن شيئا ما قد حدث . ثم فوجئت « بكبسة » عدد من الضباط والحراس يقتحمون زنزانتى ويفتشونها ، ويقلبون كل شىء فيها . وتضاعفت دهشتى عندما علمت أن السبب فى اصدار هذه التعليمات المشددة أن الدولة ضبطت خطابا أرسلته أنا إلى إحدى الجهات !

واستدعانى مدير الليمان وسألنى إذا كنت هربت خطابات . .

وتماسكت وقلت اننى أكتب خطابات إلى أسرتى بالطريق الرسمى .

وتركنى المدير فى مكتب مأمور السجن ، ليتحدث فى التليفون مع المسئولين الذين كانوا ينتظرون نتيجة التحقيق . .

والتف حولى ضباط السجن ليسألونى ألم ترسل خطابات تهاجم الحكومة ؟ وكانوا يتصورون أنه لا بد أننى كتبت شيئا خطيرا أدى إلى أن تقوم الدنيا وتقعد !

واستدعيت مرة أخرى لمكتب مدير الليمان وقال لى : أن الخطاب الذى كتبته

موجود تحت يدى ، وهو الآن فى درج مكتبى .

وإنخلع قلبى .. معنى ذلك أن طريقة تهريب الخطابات قد أنكشفت ولكنى تجلدت ولم أقل شيئا ، ومضى مدير الليمان يقول :

- سوف أواجهك بالخطاب الذى كتبته بخط يدك . .

وفتح المدير درج مكتبه ، وأخرج مظروفا صغيرا وقال لى : أليس هذا واحدا من الخطابات التى ترسلها ؟

ونظرت إلى المظروف فإذا به ليس من المظاريف التى استعملها اطلاقا ، وتمالكت نفسى ولم تبد على الفرحة بالنجاة وقلت : هذا ليس خطابى .

وفتح المدير الخطاب ، فقلت له : وهذا ليس خطى .

فقال المدير : أكتب كلمة « صحافة » .

فقلت له : لا . . . سأكتب لك سطرا كاملا من الخطاب ، حتى نعرف أن هذا ليس خطى . . .

وكتبت سطرا ، وبينما أنا أقفل السطر ، قرأت الخطاب كله ، فإذا به مطالبة صحف أخبار اليوم بالاهتمام بمشكلة المحكوم عليهم فى قضايا المخدرات طبقا للقانون القديم ، وشكر مجلة « آخر ساعة » على اهتمامها بالموضوع .

وقارن المدير خطى بخط الخطاب ، فوجد أنه ليس خطى على الاطلاق ولا يشبهه !

والحقيقة أن الخطاب كان منى فعلا إلى بعض تلاميذى فى « أخبار اليوم » ولكنى حرصت ألا أكتبه إليهم بخطى ولا بإمضائى حرصا عليهم . . . وحدث أن كان الضابط أركان حرب السجن يزور رأفت بطرس المحرر بمجلة آخر ساعة فى مكتبه بدار أخبار اليوم ورأى الضابط على مكتب المحرر هذا الخطاب ، فاعتقد أنه بخطى ، وسرق الخطاب ووضعه فى جيبه ، وقدمه للمسئولين باعتباره خليفة شارلوك هولمز الذى وفق إلى اكتشاف السر الخطير .

وهذا الضابط شارلوك هولمز كان مشهورا بالتجسس على المسجونين ، ومعرفة ما يقولون ويفعلون ، وكان يتولى جلدهم بنفسه فى سجن التأديب . . وكان يجند بعض المسجونين للتجسس علينا ومعرفة أخبار المسجونين السياسيين ، ووجدنا أن خير ما نفعله ان نجند جواسيسه أنفسهم ضده ! . . وأن نجعل مكتب أركان حرب الليمان نفسه هو المخبأ الذى نضع فيه الممنوعات .

وشعرنا عندئذ اننا رددنا التحية بأحسن منها . .

اننا نمشى بحذر داخل الليمان ، نقدم قدما ونؤخر أخرى ، نتلفت وراءنا لاننا نعلم اننا تحت رقابة صارمة ، المخابرات لها عيون ، والمباحث لها عيون ، ومباحث المصلحة لها عيون ، وإدارة السجن لها عيون ، وأى غلطة يمكن ان تكشف عن جهاز التهريب كله . داخل السجن وخارج السجن . هذا الجهاز من الاصدقاء المجهولين يمنحنى حرية الحركة وأنا مقيد فى الاغلال . يجعلنى استطيع أن أجعل صوت المظلومين داخل الزنزانات يخترق الاسوار وينفذ من الحصار المضروب . والذين وضعونا فى هذه القيود ودفنونا تحت التراب يتصورون انهم كتموا أنفاسنا وقطعوا ألسنتنا وداسوا بأقدامهم على أعناقنا . وسوف تتضاعف وحشيتهم إذا اكتشفوا أن أصواتنا تخرج من القبر ، وأن رسائل أصدقائنا تدخل إلى القبر بانتظام ، وأن كل ما يحدث لنا من تعذيب وتنكيل يصل إلى الناس ، والفضل فى نجاحنا حتى الآن لا يعود إلى كفاية التنظيم الذى اخترته ولا إلى عبقرية الخطة التى وضعتها . انه تنظيم بسيط وخطة ساذجة وانما الله هو الذى يتستر علينا . هو الذى يعمى عيون الجستابو فلا يرانا . . ومن سخرية القدر أننا استطعنا أن نصل إلى المسجونين الذين رضوا لأنفسهم أن يكونوا « جستابو » علينا ، وأصبحنا نقرأ التقارير السرية المكتوبة ضدنا ، بل تمادى بعض زملائنا من المسجونين السياسيين وأصبح يملى على هؤلاء الجستابو بعض كلمات تقريرهم ، ويضع فيها ما يضلل الذين بعثوا بهذه العيون تتعقب خطواتنا ، والغريب ان هذه العيون قبلت ان تخدم الله والشيطان فى وقت واحد ! تقبض من خصوم البشرية ثمن الاكاذيب ، وتعطينا الحقائق مجانا ! لا

يوجد شرف ولا ذمة ولا ضمير بين الذين يتعاملون بأسلحة الغدر والوقيعة !

اننا نعيش كل يوم مع الخطر فى زنزانة واحدة .

ولكن الله معنا .

الحاكم له الحاضر
والله له المستقبل

أول ديسمبر سنة ١٩٦٧

صديقى العزيز

لا تتوهم أن صورتى فى سجنى هى صورة الرجل الضجر بحياته ، المليء بالهموم ، الذى يعيش حياة كئيبة حزينة فى وحدة مطلقة . أبدا بل أنا أحاول أن أصنع حياتى فى السجن بيدى .

ذكرياتى وأحلامى أشبه بأنابيب الألوان ، وخيالى أشبه بالريشة . أنا أمسك الريشة وأغمسها فى الألوان ، ثم أبدأ فى تلوين واقعى . أضيف اليه ألوانا بهيجة من الماضى والمستقبل ، وظلالا باهتة من الحاضر ، حتى تجىء الصورة أقرب إلى صورة موكب فرح منها إلى موكب جنازة .

خيالى هو إيمانى . ليس أوهاما وإنما هو عقيدة . كلما زاد ايمانى بالله ارتفعت فوق مستوى واقعى . كأننى اركب طائرة نفاثة ، وكلما ارتفعت تضاءلت الآلام على الارض . اننا نتصور آلامنا ونحن على الارض كأنها ناطحات سحاب فإذا ارتفع ايماننا فوقها صغرت وتضاءلت حتى أصبحت فى حجم علبة الكبريت .

انى لم أنتج فى خلال هذه العام كل ما أريد من قصص وكتب . الرقابة الصارمة والحذر الشديد لا يعطينى الفرصة لاكتب كل ساعات الليل والنهار . رأسى أشبه بمكتبة فيها عشرات من الكتب والقصص . لا ينقصها الا أن تدون على الورق . الذى يحدث لى هو نوع من التخزين . أخزن الافكار فى رأسى . أرتبها فوق بعضها البعض وعندما تنتهى فترة الظلام سوف أكتب ، وأكتب . أنا لا أنام وإنما أحلم . لا أسكت وإنما أفكر . لا أضحك من الناس وإنما أسخر مما نحن فيه ! إذا صمتت شفتاى عقلى يدوى . لا أتصور أن السجن أنهى حياتى بل

أومن أنه بدأها ! أنا اليوم أشبه بعطلة نهاية الاسبوع ثم بعد ذلك أبدأ يوم السبت في حياتى الادبية والصحفية . أصبحت أرى أن دخول الكاتب أو الفنان إلى السجن ضرورة كدخول الجامعة . بعد أن بقيت فى السجن هذه المدة الطويلة أصبحت اعتقد اننى فى الماضى قمت برحلات عديدة فى أنحاء العالم ولم أر شيئا . الدنيا الحقيقية هى هنا بين الجدران العالية ، ووراء هذه الأسوار والقضبان . هنا يرى الواحد منا ألوانا وأشكالا من الناس . نحن أشبه بمرضى فى مستشفى . بعضنا لا علاج له ، وبعضنا شفاؤه أكيد ، وبعضنا لم يستطع المرض أن يشوه جماله الداخلى . وبعضنا مشوه . فينا كاملون وناقصون . ملائكة وحيوانات . مظلومون وظالمون . أقوياء وضعفاء . طغاة ومسحوقون . مع ذلك لا أشعر بالاشمئزاز هنا عندما أرى شيئا كئيبا . أشعر بالشفقة . أنا أحبهم جميعا . بما فيهم من نقائض وفضائل ، من مزايا وعيوب . قبل ذلك كانت مثل هذه المناظر تصيبنى بالغثيان الداخلى ، بشىء من القرف . الآن لم أعد أقرف من شىء . اننى هبطت إلى أعماق الحياة ، وفى هذا العمق السحيق وجدت نبلا وخلقا وفضلا وإنسانية . ليس ضروريا ان يكون وراء كل بدلة زرقاء مجرم بطبعه ، بل كثيرا ما يكون وراء هذه البدلة الحقيرة انسان طيب لا يختلف عن الذين يرتدون ملابسهم الكاملة الانيقة . وجدت السجن مليئا بالناس الطيبين . الاشرار فيهم أقلية . وهم أشرار بالسمات ، وأنا شخصيا لم أجد حتى الآن شريرا حقيقيا . أنا من طبعى أعذر الناس . أعطى أعذارا للطبيعة البشرية . تجربتى أن ليس كل من حمل فى يده كتاب الصلوات قديسا ، وليس كل من حمل على ظهره صليبا مسيحيا ، وليس كل من حمل خنجرا مجرما . أقضى وقتى فى محاولة درس الناس . قراءة الناس لا تقل متعة عن قراءة الكتب ، وكلما تعمقت فى أعذارهم وجدت أشياء جميلة لا تبدو على ملامحهم . بعض الذين تضحك شفاههم تنتحب قلوبهم . بعض الذين تبدو على ملامحهم القسوة والعنف تجد فى أعماقهم طفلا بريئا !

الجحيم هو الآخرون فى رأى الفيلسوف الفرنسى سارتر . ولكن الجحيم فى رأيى هو أنفسنا . نحن نعذب أنفسنا ونحرقها بتصور السوء فى الآخرين ، بينما

الذى نراه هو القشرة الخارجية ، وبشىء من الصبر والفهم نجد نفوساً طيبة خيرة بريئة ، وذلك عندما ننزع هذه القشرة بغير أن نؤلم صاحبها أو نسيل دمه . هذه النفوس التى خدعنا مظهرها الخارجى المنفر هى ضحية ظروفها . وكل واحد من هؤلاء المسجونين القساة العتاة الذين أرى فى وجوههم الشراسة يحمل قتيلا فى داخله ، وعندما يغادر الواحد منهم السجن يستيقظ الميت الذى فى داخله ، ويغادر مكانه ويتحول إلى رجل عادى بعد أن تخلص من الحمل الثقيل الذى فى أعماقه . والقتيل هو حريته . ولهذا يبدو فى بعض الاحوال وكأنه يعيش مع رجل ميت . ما أقسى الحياة مع ميت فى زنزانة واحدة ، ولكن اقسى منها الحياة مع ميت داخل جسم واحد . ومن هنا نحن نخطىء اذا تصورنا ان المسجون هو الجثة الميتة فى داخله ، وليس الانسان الذى يحمل الجثة .

أخشى أن أكون أخذتك معى إلى أغوار السجن وأبقيتك فيه طويلا . الآن أعود إليك . العودة إلى الحديث مع أصدقائى تنسينى أننى فى السجن . كنت أرتعش من البرد قبل أن أكتب إليك.. ولكن ما كدت أسطر أولى كلماتى إليك حتى أحسست بالدفء ينساب إلى . التفكير فى أصدقائى وأحبائى هو جهاز تدفئه لا يفسد أبدا . الصداقة الحلوة تكمل الحواس الخمس ! ما قيمة النطق اذا لم استطع التحدث الى صديق . ما قيمة السمع إذا لم أسمع صوت محب ! ما قيمة اللمس اذا لم ألمس يده . ما قيمة الذوق اذا لم أذق طعم حلاوة الحياة ونقتسمها معا . ان ذكرياتى مع أصدقائى وأحبائى هى راقصات يرقصن حولى ويغنين لى . هذه الذكريات بألوانها وأشكالها وأنغامها وألحانها ، ومرحها . وخبرتها تكون سيمفونية رائعة فيها مزيج من موسيقى باخ وموسيقى الجازباند المجنون . ماضينا ليس بعيدا عنا . أنه قريب منا . لانه يعيش فينا . لم يكن الماضى أياما ذهبت ، وإنما هو أيام لا تموت . . باقية ما بقينا . لانها حياتنا وأحلامنا . ذكرياتى مع أصدقائى أشبه ببيك آب فيه ١٤ أسطوانة ، له أزرار سحرية ، لا أكاد أضغط على زر حتى تدور مائة أسطوانة فى كل أسطوانة ، وعندما استعيد سماع هذه الأغانى أطرب ، كأننى أسمعها لأول مرة ، وهذا شأن الموسيقى الخالدة . كلما مضى عليها الزمن تضاعفت عذوبتها . . وبدت

حلاوتها ، وظهر جمالها . حياتى مع أصدقائى وتلاميذى هى مجموعة ضخمة من الموسيقى الرفيعة والموسيقى الخفيفة . كثير منها اسطوانات جيدة وقليل جدا منها اسطوانات مشروخة ! .

اننى أعود نفسى على الحياة فى الزنزانة . أصبحت الحياة فى الجحيم عادية . كل ما نتمناه الا ينقلونا إلى جحيم أشد سعيرا . لا أريد أن أشعر أننى محروم من شيء . لا أريد أن أبدو صغيرا أمام رغباتى . من رأيى أنه عندما يفقد الانسان حريته تتضاءل كل الضروريات بعد ذلك . تبدو تافهة لا قيمة لها . أنا فى زنزانتى بايمانى أبدو أقوى من السجان الذى يراقبنى . أقوى من الحاكم الذى وضعنى فى السجن . أنا مطمئن وهو خائف . أنا باق وهو ذاهب . الزلزال عندما يقع لن يطيح بى إلى الحضيض فقد وضعونى فى الحضيض ، ولكن الزلزال إذا وقع فسيهز عرشه ويهوى به من حالق : الوقت على الارض أكثر ثباتا من الذى يتبوأ قمة الهرم !

أحمد الله أن السجن لم يؤثر حتى الآن على روحى . . ولا على قلبى ولا على إيمانى . . ولا على صمودى ، ولا على أعصابى ، وهذا مكسب عظيم . مادام قلبى مؤمنا فلن أشعر بضعف ومادامت روحى عالية فلن أجزع أمام الظلم الحاكم له الحاضر . . والله له المستقبل .

حفلة رأس السنة فى السجن !

٣ يناير سنة ١٩٦٨

أخى العزيز

. . . أما أنا فقد أمضيت ليلة رأس السنة فى زنزانتى . هذا هو ثالث عام أستقبله فى عالم السدود والقيود . لم أطفىء الأنوار ، فقد كانت الأنوار منطفئة . ولم أرتد بدلة السهرة ، فقد كنت ألف جسمى بالبطاطين من شدة البرد . فى منتصف الليل لم يكن فى قدرتى أن أطفىء النور أو أضيئه ، ولهذا أكتفيت بأن أفتح عينى وأغمضهما ! كانت صلواتى إلى السماء هى حفلتى الساهرة .

حفلة ليس فيها موسيقى ولا رقص ولا صخب ولا ضوضاء . حفلة صامته . مرت أمامى عيون الذين أحبهم فى موكب كبير . راحت الاحلام تتراقص والامانى تتمايل ، والذكريات تتعانق على أنغام لا وجود لها . أدب اللامعقول لم يتخيل حفلة عيد رأس السنة التى أقمتها فى زنزانتى . كنت المدعو الوحيد فيها . الزحام كان شديدا . الأفكار حشرت فى رأسى كما ينحشر الراقصون والراقصات فى حفلات رأس السنة الصاخبة المرحة . أفكارى تكشف عن صدرها وظهرها وساقها كما تفعل النساء والفاتنات فى سهرات الأعياد فى الخارج . رأسى كان أشبه بحلبة رقص . فيها ضحك وصراخ . فيها اذرع تتشابك وصدور تتعانق ، وأقدام تدق على الارض بشدة . فيها صفير مزامير ، وفرقعة سدادات زجاجات الشامبانيا . فيها بالونات تطير وبالونات تسقط . فيها صخب وضوضاء . . . كانت بعض أفكارى تضع أقنعة على عيونها كما يفعلون فى حفلات الكرنفال . ومن حقك أن ترفع الاقنعة عن بعض أفكارى لترى ما وراء الاقنعة السوداء .

كنا نحتفل أنا وأنت برأس السنة بطريقتنا الخاصة ، كنت أجلس معك فى مكتبك ، أو تجلس معى فى مكتبى . وندون براجمنا للسنة القادمة ، وللعشر

السنوات المقبلة . وكان الله كريما معنا واستطعنا دائما ان نحقق كل سطر تمنيناه ودوناه فى مفكرتنا فى أول صفحة من صفحاتنا ، وكنا ننتقل طول السنة من تنفيذ فكرة إلى تنفيذ فكرة أخرى . كما يتنقل الراقص الرشيق من ذراعى فاتنة إلى ذراعى فاتنة أخرى على أنغام كل لحن جديد . .

هل استطيع أن أجلس اليوم وأدون فى مفكرتى مشروعاتى للعام الجديد ؟

لا أظن ان تقدمى فى السن هو الذى يجعل أحلامى تمشى كالعجائز متوكئة على عكازين .

أحلامى لا تزال شابة . تريد ان ترقص ، وتقفز ، وتثب ، وتعدو . ولكن قيود السجن تجعل هذه الاحلام تحرك خطواتها على غير أنغام . فتجىء الخطوات متعثرة وكأنها تمشى فى جنازة لا ترقص فى حفلة رأس السنة . ما أشبه أفكارى الليلة بالعجائز الذين يجلسون حول حلبة الرقص ، يضعون نظاراتهم فى أيديهم ، ويحملقون لان الروماتيزم يمنعهم ان يدخلوا إلى الحلبة المجنونة ، ويرقصون فى عنف مع الراقصين المرحين المملوئين حيوية ونضارة وشبابا .

لا أريد ان اتعبك طويلا معى فى حفلة رأس السنة الجديدة . الزنزانة ليست واسعة لكى تتسع لأفكارى وأفكارك . ربما تدوس أفكارى على أفكارك ، كما تدوس قدم الراقص الغشيم على قدم زميلته فى زحام الرقص لسهرة العام الجديد .

أدم صلاة لى فى رأس السنة أنى أقمت فى قلبى صلاة شكر . نعم شكرت الله لانه فعل لى أشياء كثيرة جميلة رائعة كانت أجمل من كل أحلامى وأروع من كل خيالى . كان يوم من أيام حياتى من قبل أن أدخل السجن حفلة رأس السنة عطانى الله كثيراً . . جداً . أكثر مما طلبت ، وأضعاف ما تمنيت ، ليلة القدر تجىء للناس مرة كل عام ، وكانت تجىء لنا كل يوم ، وأحيانا كل ساعة . حتى العمل الشاق المضنى جعله الله عملا لذيذا . طعم العرق فيه مثل طعم الشهد . صوت الآلات فيه كألحان السيمفونيات . . اذا كان الله قد شاء أن أفقد حريتى

فقد ضاعف ايمانى . أخذ القليل واعطى الكثير . . حرمنى ترف الحياة وغمرنى بترف الصبر والصمود والايمان .

كلما قرأت عن البرد فى أوربا فكرت فيك . موجة البرد فى السجن كانت شديدة فى هذا العام ، فكيف بما فى لندن . اننى أتصورك مسجونا فى غرفتك فى لندن ، لا تستطيع أن تفارقها . وأتصور نور الكهرباء مضاء فيها بالليل والنهار لاختفاء الشمس .

ولكن أرجو ان تشرق الشمس من جديد . . لابد أنها ستشرق وستعود إلى مشاهدة مباريات الكرة فى انجلترا من جديد . اننى منذ مدة طويلة لم أشهد مباراة كرة . الغينا موسم الكرة بسبب ظروف العدوان . وألغت الحكومة مشاهدة المساجين للتليفزيون عقابا للمسجونين على هزيمتهم فى ٥ يونيو . . نعم نحن الذين هزمتنا اسرائيل لا حكومتنا !

أرجو ان تتحقق آمال بلادنا وينصرها الله ، وعندئذ ستعود الحياة الطبيعية . . وعودة الحياة الطبيعية فى رأى بعض الناس هنا هى الافراج عن المسجونين السياسيين واغلاق المعتقلات ، وفى رأى آخرين هى السماح للمسجونين السياسيين بالتفرج على التليفزيون !

سمعت ان أم كلثوم استقبلت استقبالا هائلا فى باريس . أسعدنى نجاحها كثيرا . اسعدنى اكثر ما بدته من بطولة أثناء المحنة ، وكيف انها قامت بدور المواطنة الاولى بجدارة واستحقاق .

لا أكاد اخرج من زنزانتى . البرد الشديد يجعلنى افضل البقاء فى الزنزانة .

حياتى الآن فى داخل زنزانتى . وبالرغم من أننى فى الجهة القبلية الا أننى لا استطيع ان افتح الا نصف النافذة بسبب الريح الشديدة . أحاول أن أهرب من الزكام اللعين . استطاع مرة واحدة أن يمسك بخناقى ، وبقيت أعانى حوالى الاسبوعين . استطعت أن أنجو منه فى فترة البرد الشديدة التى جعلتنى اتصور أننى فى سيبيريا !

حدثت فى السجن هذا الاسبوع مأساة أحزنتنى . معنا فى العنبر مسجون سياسى له سبعة أولاد ، أصغرهم اسمه خالد . وهو يحب ولده هذا حبا لم أر مثله كثيرا . كان يكتب كل خطاباته إلى أسرته باسم خالد الصغير . وقابلته أسرته فلاحظ أن ابنه خالد ليس بينهم ، وسأل عنه ، فقيل له أنه مشغول باستذكار دروسه .

فسأل الأب لماذا لم يعد خالد يكتب له . وأجاب أولاده أنهم نصحوا خالد بأن يتفرغ لدروسه ويترك لهم مهمة الكتابة . ثم جاءت زيارة الشهر الثانى فلم يجد خالد بين الزائرين . فسأل عنه ، فقالوا له أن خالد لايزال مشغولا فى دروسه .

فثار الأب وقال : انني أكتب إلى خالد باستمرار فكيف لا يرد على .

قال الأولاد : ان لدى خالد عذرا يمنعه من الكتابة .

وصرخ الأب غاضبا : لا يوجد سبب فى الدنيا يمنع ابنى خالد من الرد على خطاباتى منذ ستة أشهر ، ولا يحضر لزيارتى منذ ستة أشهر . .

وأجهش الأبناء بالبكاء وقالوا له أن خالد مات منذ ستة أشهر ، وأنه لهذا لم يستطع الرد على خطابات أبيه ، وأن الأولاد اتفقوا على اخفاء الخبر عن أبيهم لأنه مريض بالذبحة الصدرية . ولكن أم خالد وأولادها لم يستطيعوا أن يتحملوا هذا العذاب أكثر مما تحملوه . كان كل خطاب يرسله الأب إلى البيت باسم خالد يجعل البيت يتحول إلى مأتم وكأنه لم يمت إلا ساعة وصول هذا الخطاب ، وكان سؤال الأب فى كل زيارة عن خالد أشبه بطعنة سكين تغمد فى قلوبهم .

وأمضيت وقتا طويلا أواسى هذا الأب المفجوع المنكوب ، وكنت طوال وقت مواساتى له أسائل نفسى ترى كم هى عدد الأخبار السيئة التى يخفيها عنى الذين يحبوننى ؟ أى الأمرين أرحم أن أسمع الأخبار المؤلمة عند وقوعها ، أو أن أبقى جاهلا بها ؟ من الغريب أنه كلما تأخر خطاب أعيش فى قلق وهم وعذاب .

الزنزانة هى خير مكان يفرخ فيه التشاؤم ويبيض . جوها المقبض . جدرانها

الجرداء . قضبانها القاسية . بابها المغلق . كلها أشبه بأقفال ضخمة وأبواب مسدودة تمنع التفاؤل من الدخول اليها ، أكثر مما هى قضبان تمنع المسجون من الخروج منها !

أشعر أن خطاباتى هى سمك لبن تمر هندى . أذكر أيام كنت أكتب سلسلة عن أسرار ثورة ١٩١٩ أن حصلت على الخطابات التى كان يرسلها شفيق منصور أحد أبطال الثورة ، من منفاه فى جزيرة مالطة إلى أسرته فى القاهرة .

وفرحت بهذه الثروة التاريخية . وتصورت أننى سأجد فيها وصفا رائعا لحياة المصريين المنفيين . ماذا قال سعد زغلول عندما عرف أن الشعب ثار من الاسكندرية إلى أسوان احتجاجا على الانجليز ؟ ماذا قال حمد الباسل باشا عندما علم أن فرسان الفيوم ركبوا خيولهم وحاولوا الزحف على القاهرة . ماذا قال محمد محمود باشا عندما عرف أن أهالى الصعيد تصدوا لقطار بريطانى مسلح وقتلوا كل الضباط الانجليز الذين كانوا فيه وأخذوا كل ما به من أسلحة وذخائر ؟ ما هو الحديث الذى جرى بين الشبان الذين نفاهم الانجليز إلى مالطة سنة ١٩١٤ ولم يتحرك أحد ، وبين الساسة الكبار الذين نفوهم سنة ١٩١٩ فاهتزت مصر من أقصاها إلى أقصاها .

وإذا بى أفاجأ بأن الخطابات كلها بصيغة واحدة وبمعنى واحد . « أرسلوا لى الشيك بحيث يصل فى أول الشهر » . « أرسلوا لى جوارب ثقيلة وفنلات ثقيلة فالبرد شديد » . « لا تنسوا تحويل أماناتى بحيث تصل فى أول الشهر » .

« أرجوكم الاهتمام بارسال الشيك بانتظام » . « البرد شديد فلا تنسوا الفنلات الصوف » .

وعندئذ شعرت بخيبة أمل شديده أن يتحدث الزعيم المسجون عن مسائل تافهه مثل الفلوس والفانلات والجوارب ولا يتحدث عن حياة الزعماء فى المنفى .

وأعتقد أن المؤرخون سيصابون بخيبة أمل أيضاًا عندما يجدون خطاباتى مليئه بالحديث عن المسائل الدنيويه مثل علبة الفليت ودواء الصراصير وأدوية السكر

والشبشب الذى أريده ! وبعد أن دخلت السجن عذرت شفيق منصور وفهمت لماذا تضيق الحياه فى السجن وتضيق حتى تصبح هذه المسائل التافهه مسأله هامه يتحدث عنها فى خطابات قد تكون فى يوم من الأيام خطابات تاريخيه . . . فيبحث مثلاً عن رأى السجين فى المعركه الأخيره بين فيتنام الشمالية وفيتنام الجنوبيه فلا يجد إلا وصف المعركه التى وقعت فى الزنزانه بينه وبين الذباب والناموس والصراصير .

وكل سنه وأنت طيب . . . . . ومصر طيبه .

من الذى يدق الباب
الحرية .. أم الكرباج ؟

١٢ يناير سنة ١٩٦٨

أخى العزيز

لا أعرف كيف أشكرك على الانتظام فى الكتابة الى . انى فى المدة الأخيرة لم أكتب اليك كما كنت أحب أن أكتب . ولكنك لم تجازنى على عدم انتظامى فكنت تكتب لى بانتظام . وأنت لا تتصور قيمة الخطاب للمسجون . انه زيارة غير منتظرة . لقاء سعيد فى أيام محنة . زهرة فى عالم الشوك . نسمة هواء لمخنوق . كوبرى بين الحياة والعدم . عندما أعيش فترة بغير خطابات أحس كأن كل شيء انقطع بينى وبين العالم . هذا هو الخيط الرفيع الذى يربطنى به . قد يكون خيطا وهميا ولكنى أشعر أنه شيء أتعلق به . ولا أغطس فى بحار الأوهام .

بين ما يربطنى بالحياة « الاذاعة » ! عندما يغلق باب السجن فى الساعة الرابعة بعد الظهر يدخل الظلام إلى الزنزانة . وأبقى جالسا فى فراشى أنتظر موعد اضاءة الأنوار لأستطيع أن أقرأ فى جريدة ، أو مجلة أو كتاب . وفى بعض الأحيان يطول انتظارى ساعتين أو ثلاثا إلى أن يجيء النور . وفى أحيان يشفق السجان النوبتجى ويضيء النور بعد ساعة ونصف ساعة . وفى خلال هذه المدة أقبع فى فراشى . أفكر وأتذكر وأتخيل . ثم تجيء الاذاعة فتخفف وحدتى . لقد أصبحت أعرف أسماء المذيعين والمذيعات كما أعرف جدول الضرب ! وأستطيع أن أعرف الساعة من مواعيد البرامج الأساسية . فإذا سمعت القرآن فى المساء فمعنى ذلك أن الساعة الثامنة ، وإذا سمعته فى الصباح فمعنى ذلك اننا فى الساعة السادسة صباحا . ما أشق الحياة بغير ساعة ! لقد أردت أن أصنع لنفسى مزولة على طريقة القدماء ، فأعرف الساعة من قياس آشعة الشمس ، ولكن هذه الساعة تخوننى كثيرا ، فان تقلب الجو يجعل ساعتى تتأخر ساعة أو تتقدم

ساعتين . ومن هنا أصبحت الطريقة الوحيدة لمعرفة الساعة أن أتابع ساعة راديو السجن . ويحدث أحيانا أن ينسى السجان النوبتجى فتح الراديو فأتصور أن الساعة هى الخامسة صباحا بينما هى فى الواقع الثامنة صباحا . ولقد حدث مرة أن استيقظت من النوم على أننى فى الصباح ، ثم اكتشفت بعد ذلك أننى لا أزال فى منتصف الليل .

والاذاعة تجعلنى أعيش مع أصدقائى ومعارفى وتلاميذى . وربما أكون المسجون الوحيد فى العالم الذى يسمع صوت أصدقائه فى الاذاعة باستمرار .

اننى أسمع صوت أنيس منصور باستمرار . أصبح القاسم المشترك فى جميع البرامج وفى برنامج المرأة وفى برنامج الأدب وفى برنامج الفن وفى برنامج القصص . . حتى أصبحت أدهش اننى لا أسمعه فى برامج الأطفال . وسمعت صوت سعيد فريحة وهو يتحدث فى الاذاعة عن المرأة ويتغنى بها وبجمالها وسحرها وعظمتها حتى خشيت أن تكون امرأة ما ضربته « مقلب » ! وأسمع باستمرار صوت أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وشادية . ومن وقت لآخر صوت موسى صبرى وكمال الطويل واحمد رجب وكمال الملاخ وجليل البندارى . وكأننا نتعشى معا عندى فى ليالى الأربعاء والسبت من كل أسبوع أو نتغدى على مائدتك يوم السبت . ويحدث أحيانا أن يجىء سجان نوبتجى له مزاج فنى خاص فيفتح الاذاعة إذا غنى فريد الأطرش ويغلقها إذا غنى عبد الوهاب . أو يفتح الاذاعة فى حديث الأطفال ويغلقها فى نشرة الأخبار !

اننى أمضى وقتى فى قراءة الصحف الأجنبية . أتابع التجديدات المستمرة فى جريدة التيمس ، وأعتقد أنه إذا استمر التجديد فانها ستصل إلى المليون نسخة فى خلال هذا العام ، مع أننى علمت أن هدفهم هو الوصول إلى نصف المليون . وأجد التيمس أحسن ألف مرة من الديلى تلجراف ترتيبا وتبويبا واخراجا وصحافة . ومضت على مدة طويلة لم أقرأ الديلى اكسبريس ولا الديلى ميل ولا نيوز أوف ذاورلد وغيرها من الصحف الشعبية . ولا تعجبنى جريدة « الاوبزرفر » فى الوقت الحاضر ، ولكن تعجبنى جريدة « السانداى تيمس » انها

تنطلق كالصاروخ . الاوبزرفر تحاول أن تكسب عقول القراء ، والسانداى تيمس تحاول أن تكسب العقول والقلوب . انني أجد في بعض الأحيان مواضيع ممتازة في جريدة « الاوبزرفر » ، ولكن أرى في كل عدد من السانداى تيمس صحافة وحيوية واندفاعا إلى الأمام . . ولهذا فانني أتوقع أن تكسب السانداى تيمس السباق .

وقد رأيت التجديدات الجديدة في جريدة « الأخبار » فلم تعجبني . انها عودة بالصحافة إلى القرن التاسع عشر . الذي ينقص صحفنا هو الحرية . ومهما فعلنا فيها وهي مكممة فهو أشبه بواضع زهور جميلة على جثة ميت ! صحافة مصر لن تعود إلى الحياة إلا إذا عادت إلى الحرية . عندما زارني هيكل قال لي أنه حقق في بناء الأهرام الجديد أحلام على أمين . والواقع أنني لاحظت أن كل مشروعاتنا في مبنى « أخبار اليوم » الجديد نقلها هيكل إلى مبنى الأهرام الجديد . وفي رأيي أن هيكل بنى هرما كبيرا ليدفن فيه الصحافة ! فصحافة مصر ليست في حاجة إلى بناء جديدة وانما في حاجة إلى حياة جديد . . إلى حرية جديدة !

ولكن هيكل يتصور أن الصحافة المصرية في حاجة إلى طوب أكثر مما هي في حاجة إلى حرية ! وقال هيكل أنه سينقل إلى مبنى الأهرام الجديد في مارس .

كتبت لي ابنتي رتيبة أنك أرسلت لها حذاء « بوت » أسود . وقالت أن « البوت » ـ وهو يظهر لأول مرة في مصر ـ سبب لها مشاكل كثيرة ، فأينما ذهبت أوقفها الناس وسألوها من أين أتيت به . . حتى وسط الشارع . ولاشك أنه يسرك كعم « محافظ » أن تعرف أن الناس لا تنظر إلى وجه ابنة أخيك وانما تنظر إلى حذائها !

إن الأخبار السارة التي تتوقعها في رسائلك ، وفي رسائل أصدقائي وتلاميذي عن قرب الافراج عني لا أصدقها ، انني لا أتوقع أن أخرج من هنا إلا إذا شممت رائحة الحرية . وما أشمه حتى الآن هو رائحة الاستبداد . لا أصدق أن العدل يمكن أن يخصني وحدي بينما الظلم يشمل كل الناس . لا أتصور أن اليد التي أغلقت باب الزنزانة يمكن أن تفتحها . لا أتصور أنه في امكان انسان

واحد أن يقوم بدور « عشماوى » الذى ينفذ حكم الاعدام والطبيب المولد فى وقت واحد . . ومع ذلك فان هذه الأنباء المتواترة تجعلنى ألغى عقلى وأعيش فى قلق . كلما سمعت فى الليل صلصلة المفاتيح فى يد الشاويش تصورت أنه جاء ليفتح باب زنزانتى ويفرج عنى . وأنصت بشدة ، ويخفق قلبى ولكن أقدام الشاويش لا تلبث أن تغيب ، وصوت صلصلة المفاتيح يموت فى هدوء الظلام .
ولست أعرف هل أنا أخدع نفسى ، أم الأنباء تخدعنى . ان فى كل خطاب من خطاباتك رائحة التفاؤل ، أكاد أشمها فى كل صفحة ، وفى كل سطر . وأحاول أن أعرف مبعث هذا التفاؤل فلا أجد . ان ذكائى لم يدخل معى إلى السجن . يبدو أننى تركته مع ما تركته خارج السجن . أحيانا أتصور أن تفاؤلكم هو نوع من المخدر ليستطيع المريض أن يتحمل عملية السجن . ولكن لا أكاد أفيق من هذا المخدر ، حتى يجىء كلوروفورم جديد . ان كل شىء حولى متفائل ، ولكنى أشبه بالأطرش فى الزفة . وبعض زملائى هنا يتصورون أننى أخفى خبر الافراج عنهم ، والله يعلم أنهم يعرفون أكثر مما أعرف . وفى بعض الأحيان أتشبه بجحا الذى قال للاولاد أن هناك فرجا فى شارع آخر ، فجروا اليه ، وإذا به يجرى معهم ! وعلى كل حال فالجرى إلى الأفراح لذيذ ، حتى إذا لم يكن هناك فرح على الاطلاق . ومع ذلك أجد نفسى دون أن أدرى أعيش فى جو التفاؤل ، وأتصور أننى تركت جحيم السجن إلى جنة الحرية . وهكذا أحيا فى حلم وردى وأكاد أنسى باب الزنزانة المغلق ، وقضبان النوافذ الحديدية وزئير الأبواب الضخمة وهى تقصف . ما أقدر الانسان : أنه يستطيع أن يحول الآهات إلى أنغام ، والأنين إلى زغاريد ، ويلون اللون الأسود بألوان الصباح البهيج . اننا نهرب من واقعنا إلى أحلامنا . ان هذه الأحلام هى مخابىء ، تحمينا من القنابل الذرية والهيدروجينية . وأن أوهامنا تصبح أكسير الحياة ونحن ننسى عندما نشربها ونسكر منها أننا نحن الذين صنعناها . أنا مثلا أشفق على زملائى المسجونين هنا أن أكشف لهم عن تشاؤمى ، وأتظاهر بأننى أسير معهم فى موكب التفاؤل ! أنا أخفى عنهم أنى أعرف عبد الناصر أكثر كثيرا مما يعرفه الكثيرون .
أعرف أنه سريع جدا فى الأمر بالقبض على الناس ، وبطىء جدا فى الأمر

بالافراج عن الناس . أنه يتصور أن القبض علامة القوة والعفو والافراج علامة الضعف والهزال !

وكم حاورته وناقشته فى الافراج عن بعض الناس ، فإذا به يقول أنه يخشى إذا أفرج عن هذا الشخص أن يقول الناس انه خضع لضغط ، أو أنه يخشى شيئا . . أما إذا ملأ السجون بالناس فهذا سوف يقوى صورة الحكم فى أذهان الناس .

لاحظت كثيرا أنه يفضل أن يبدو مرهوبا ، على أن يبدو محبوبا . كثيرا ما قال لى أن الشعب لا يحترم إلا الحاكم القوى ، ويستهين بالحاكم الطيب . .

وأذكر أنه استدعانى عقب انفصال سوريا وسألنى عن رأيى فيما يجب أن نفعله .

قلت له أن من رأيى أن يمنح الشعب المصرى الحرية والديمقراطية وحرية الصحافة . وأن هذه الأشياء لا يمكن أن تمنحها حكومة الانقلاب فى سوريا للشعب السورى ، فإذا رأى الشعب السورى بعد الانفصال أن الشعب المصرى أصبح يحكم حكما ديمقراطيا ثار على حكم الانفصال ، وطالب بالديمقراطية ، واقتلع حكم الانفصال الديكتاتورى . وقلت له أن من رأيى الافراج عن المسجونين السياسيين والغاء المعتقلات . فقال لى الرئيس غريبة ! أننى قابلت قبلك عشرة من رجالى وكلهم أشاروا على بأن ألجأ إلى العنف فى مصر . . وأخرج الرئيس عبد الناصر من درج مكتبه تقريرا من المخابرات بأن شابين من عائلة البدراوى وسراج الدين شربا فى نادى الجزيرة نخب انفصال سوريا . . وقال انه قرر القبض على جميع أفراد أسرة البدراوى وسراج الدين وجميع رجال الوفد والأحزاب القديمة .

قلت له أنه ليس من رأيى أن يأخذ الكبار بذنب الصغار !

قال : إذا لم ألجأ إلى العنف فسوف يفكر بعض المصريين فى عمل انقلاب

كالذى حدث فى سوريا . . ولابد أن أضرب بشدة حتى يدخل كل هؤلاء إلى الشقوق .

وتركنى الرئيس عبد الناصر نصف ساعة أدافع عن رأيى بأننا نربح بالحرية أكثر مما نربح بالاستبداد . .

ولم يقاطعنى ، حتى شعرت أنه اقتنع بكلامى .

وانصرفت من بيته إلى مكتبى فى أخبار اليوم .

وعند منتصف الليل اتصل بى محررو أخبار اليوم يقولون لى أنه تم القبض على عدد كبير من أفراد أسرة البدراوى وسراج الدين ومن الوفديين ومن أعضاء الأحزاب القديمة . وعندئذ تأكدت أن عبد الناصر من السهل اقناعه بالقبض على الناس ومن الصعب اقناعه بالافراج عنهم .

وهذا يجعلنى لا أصدق الاشاعات التى تؤكد أن تغييرا سيحدث فى أسلوب الحكم ، وأن أغصان الزيتون سترتفع بدلا من السياط !

انى أفهم تماما عقلية الذين حول الرئيس ، وأتصور أنهم يقولون له الآن : لو كنا شنقنا ألف مصرى لما حدثت هزيمة ٥ يونيو !

هؤلاء لا يمكن أن ينصحوا بالافراج عن المسجونين السياسيين أو يطالبوا بالغاء المعتقلات .

انهم سينصحون بالشدة كما نصحوا بعد انفصال سوريا .

العدالة تدخل الزنزانة !

٣٠ يناير سنة ١٩٦٨

أخى العزيز

زارنى هيكل . سألنى رأيى فيما يجب أن يفعل الرئيس جمال عبد الناصر بعد الهزيمة وبعد انتحار المشير عبد الحكيم عامر .

قلت أن من رأيى أن يفتح صفحة جديدة . أن يعوض الشعب عن هزيمته العسكرية بانتصار داخلى . أن يعلن انتهاء حكم الفرد وبداية حكم الشعب . أن يحل مجلس الأمة ويجرى انتخابات حرة . أن يسمح بعودة الأحزاب وأن يسمح بقيام معارضة فان البلد تعتقد أن ماجرى لنا سببه انعدام الديمقراطية والشورى .

وأن يفرج عن المسجونين السياسيين والمعتقلين ويصفى المعتقلات ويلغى الحراسات ، ويضمد جراح الناس . . ويلغى الرقابة على الصحف . وابتسم هيكل ، وشعرت أن كلامى لم يعجبه ، وأن ماأطلبه هو « انقلاب » . . بينما المطلوب هو « اصلاح » فقط !

وفهمت أن الاتجاه هو إعطاء الشعب حرية بالقطارة . . وأن هناك من يرى أن الحل هو الاتجاه إلى العنف أكثر . . ودهشت أن أصحاب الآراء التى أدت إلى الكارثة التى نحن فيها لايزالون موجودين ، وأنهم لم يتعظوا من الدرس القاسى ، وأنهم يريدون أن يداووها بالتى كانت هى الداء .

وفهمت من هيكل أن الاتجاه كذلك هو أن تقتصر قضية صلاح نصر على اشتراكه فى انقلاب المشير عامر ضد الرئيس عبد الناصر ، وفى انحراف المخابرات فى شأن مئات الألوف من الجنيهات التى أنفقها من مال الدولة على الغانيات والعشيقات ، وعلى لياليه الحمراء ، وعلى بعثرته أموال الشعب لكى

يعيش هو وعصابته كما كان يعيش هارون الرشيد فى قصة ألف ليلة وليلة ، وقال أن الرأى متجه الى أن يحاكم شمس بدران عن جريمة محاولة القيام بانقلاب فى وقت يحتل فيه العدو أرض الوطن .

وقلت لهيكل أنه يجب أن يحاكم صلاح نصر وشمس بدران وحمزة البسيونى عن جرائم التعذيب ، وأن هذه الجرائم ضد الشعب وضد الانسانية وضد العدالة ، وهى فى رأيى أخطر من صرف الأموال على الغانيات ، أو محاولة القيام بانقلاب . . أن الشعب يهمه أن تظهر الثورة براءتها من هذه الجرائم ، وخاصة أن صلاح نصر وشمس بدران يقولان فى السجن أن كل مافعلاه انما فعلاه بأوامر من الرئيس جمال عبد الناصر . بل أن حمزة البسيونى المعتقل الأن فى سجن القلعة يقول لزملائه المسجونين أنه كان ينفذ الأوامر

وقلت له تأكد ياهيكل أن التاريخ سوف يسجل جرائم التعذيب ، وقال هيكل أن المسئولين يرون أن أثارة قضايا التعذيب سوف تسىء الى العهد ، وأنه يكفى الاقتصار على قضية تعذيب الدكتور الشرقاوى . وذكر أنه لايعتقد أنه سيصدر فيها حكم ، وأن بعض المسئولين هاجموه لانه نشر فى الأهرام تفاصيل تعذيب الدكتور الشرقاوى .

وعدت وقلت له أن من رأيى أن تفتح قضايا التعذيب كلها . ولم يوافقنى هيكل على رأيى ، وفهمت منه أن هناك من يعارض بشدة فى التحقيق فى أى قضية تعذيب .

وذكر لى هيكل أن الرئيس كان قد قرر الافراج عنى فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٦٧ ولكن نكسة ٥ يونيو اضطرته لتأجيل اصدار هذا القرار . ولكن هذا القرار جاهز ومؤكد .

ولم أعلق على هذا النبأ ولم أصدقه وعدت أطالبه بأن يبلغ الرئيس رأيى بأنه لابد من التحقيق فى قضايا التعذيب .

ووعدني بأن يبلغ رأيي للرئيس . .

وعلى أي حال سواء قبلوا رأيي أو رفضوه . . فانني مؤمن بأن الصباح لابد أن يجيء ، وسوف تفتح الصحف ذات يوم فتجد عناوين ضخمة بالخط العريض تقول : « التحقيق في قضايا التعذيب » .

ويومها سنرفع عيوننا إلى السماء شاكرين الله الذى يظهر الحق ، حتى ولو حاول خصوم الحق أن يخفوه فى التراب .

لقد قلت لهيكل أنني أعتقد أن الرئيس جمال عبد الناصر والثورة والبلد كلها سوف تستفيد كثيرا من كشف الحقائق . وأومن أنه اذا عرفت الحقيقة كلها ، واذا اتخذت اجراءات فعالة لرفع الظلم عن الذين ظلموا ، واذا اتخذت اجراءات صارمة لكيلا تتكرر هذه الجرائم ، فإن بلادنا سوف تخرج من هذه الهزيمة منتصرة ومرفوعة الرأس ، وسوف نستطيع يومها تنقية الثوب الأبيض من البقع السوداء . .

ولكن هيكل فيما يبدو لم يكن مقتنعا بهذا الرأى .

* * *

ان زنزانتي تغلق على الآن ١٨ ساعة كل يوم . لايسمح لنا بالفسحة . جاءت أوامر من الوزارة بالتشديد على المسجونين السياسيين لمناسبة ٥ يونيو . أصبحوا يفتشون زنزانتي بإستمرار يراقبونني باستمرار . خطاباتي تفتش ، ويحاولون أن يقرأوا مابين السطور . . أنني لم أشك ولم أعترض ، بينما أنا أكتب هذه السطور اليك دخل مقبل شاكر رئيس نيابة حلوان فى جولته الشهرية التي يقوم بها لتفقد السجن ، ومعه الضابط هاني الغنام .

وفوجئت به يسألني : هل لديك شكوى ؟

قلت : نعم . أنني موضوع في زنزانة مكتوب عليها ملحق مستشفى

السجن ، ومع ذلك تغلق على الزنزانة ١٨ ساعة كل يوم . وهأنتذا ترى أن الوقت الوحيد الذى تظهر فيه الشمس فى هذا المكان هو الوقت الذى يغلقون فيه باب زنزانتى وأنا مريض بالروماتيزم وفى حاجة الى بعض الشمس . وفى الزنزانة التى بجوارى الاستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين والمستشار السابق بمحكمة النقض والابرام ، وعمره ٧٦ سنة ، وهو مريض جدا ، والمفروض أن نوضع فى مستشفى السجن . ولكن صلاح نصر عندما كان مديرا للمخابرات العامة أمر بأن نوضع فى زنازين يكتب عليها « ملحق بالمستشفى » .

وسألنى رئيس النيابة مقبل شاكر : هل عذبت ؟

قلت : نعم . تعذيبا لايخطر لك على بال . وكل الذين معى فى هذا الطابق عذبوا مثلى وأكثر منى . .

ورويت له ماتعرضت له من تعذيب .

قال رئيس النيابة : أننى مستعد أن أثبت هذا فى تقريرى .

قلت : أننى طلبت من محامى تقديم بلاغ الى النائب العام .

قال : اننى سأحضر بعد شهر ، ويمكنك فى أى وقت تطلبنى لأسمع أقوالك فى التعذيب .

هذا أول مرة تدخل فيها العدالة إلى زنزانتى !

البحث عن الأخبار فى باب حظك اليوم !

أول فبراير سنة ١٩٦٨

أخى العزيز

انتظامك فى الكتابة يسعدنى فى زنزانتى . صحيح أن الخطابات تتأخر . ان ماتكتبه فى يناير أقرؤه في فبراير إلا أن هذا التأخير لايقلل من أهمية خطاباتك لى . حروف خطاباتك هى أنفاسك التى تدفىء روحى . كلماتها هى الموسيقى التى أسمعها . ورقها هو شخصك الذى ألمسه بيدى . أنا مسرور أنك أصبحت تكتب بيدك بدلا من الآلة الكاتبة . أصبحت الحروف مقروءة . لم أعد فى حاجة إلى أنتظار شروق الشمس حتى أتبين الكلمات على ضوء شعاعها . الذى ينقصك الأن أن تكتب سطرا وتترك سطرا . وخاصة أن الكثيرين يقرأون خطاباتك ويحسن أن تشفق على عيونهم . اللهم إلا إذا كنت تريد أن يزيد الاقبال على أطباء العيون وبائعى النظارات ! ستدهش اذا علمت أنهم قبل أن يسلموا الخطاب إلى يطبعون منه ١٧ نسخة ، ويرسلون نسخة من خطابك إلى الرئيس عبد الناصر ونسخة إلى سامى شرف ونسخة إلى مدير المخابرات ونسخة إلى مدير المباحث ونسخة إلى وزير الأعلام ونسخة إلى هيكل والى وإلى ١١ موظفا كبيرا . . وأنا أقرأ خطابك بعد أن يقرأه هؤلاء جميعا . خطابك المؤرخ ٢١ ديسمبر وصلنى فى ١٤ يناير . ومع ذلك فقد كان جديدا . أشبه برغيف ساخن خرج مباشرة من الفرن . ولهذا التهمته التهاما . لاتتضايق من تأخير خطاباتى لك . أن عملية تهريبها من هنا عملية شاقة مضنية . فلا تتضايق إذا هنأتك بعيد الفطر فوصلت إليك التهنئة فى عيد الأضحى . أو إذا أرسلت لك تهنئة بعيد ميلادنا فى ٢١ فبراير فوصلت إليك فى عيد المسيح فى ٢٥ ديسمبر ! .

أهم أخبارى أن موسم البرد قد أنتهى والحمد لله . والبرد عدو لدود لساكنى الزنازين .

المهندس الذى بنى ليمان طره لم يقصد أن يبنى سجنا ، وأنما قصد أن يبنى أكبر ثلاجة فى العالم ! أو أن الفكرة أن المسجون يجب أن يرتعش أمام السجان ، ولهذا فان البرد يجب أن يجعله يرتعش باستمرار . وعندما ينتهى موسم البرد القارس يبدأ موسم الذباب والناموس وكل أنواع الحشرات ، وهكذا لانودع مصيبة حتى نستقبل كارثة .

لاتزال خطاباتك مليئة بالتفاؤل عن قرب الافراج عنى . وأخشى أن يكون أنفك الصحفى معتمدا على ماقاله لى هيكل أمام سعيد فريحة عندما زارنى فى الليمان . كان ذلك يوم ١٧ ديسمبر وقد مر الأن شهران . قال هيكل لى يومها « أقسم بشرفى أن الرئيس سيفرج عنك فى خلال ثلاثة شهور . . » وها نحن دخلنا الشهر الثالث . . وأقول لنفسى أن صاحب هذا الوعد نفسه قال لى وأنا مسجون فى سجن الاستئناف « الريس طلب منى أن أؤكد لك أنك لن تدخل السجن يوما واحدا ، وأنك ستنتقل إلى مستشفى خاص هو مستشفى الكاتب » . . وقال هيكل أنه تحدث مع الدكتور عبد الله الكاتب شخصيا فى هذا الموضوع . وأن الدكتور الكاتب رحب وقال أنه سيخصص جناحا فى مستشفاه لى . وبدلا من أن أدخل مستشفى الكاتب دخلت ليمان طره . وفى ليمان طره زارنى عقب دخولى مباشرة وقال لى « الريس طلب منى أن أبلغك أنك لن تبقى فى الليمان سوى شهر واحد وبعد ذلك سيفرج عنك » وقد مضى على فى الليمان سنة وسبعة شهور ! .

ولا أعرف ماذا يقصد هيكل بهذه الأخبار الكاذبة ؟ هل هو الذى يكذب ؟ أم أن الروس وأصدقاء الروس هم الذين يضغطون لمنع قرار الافراج ؟ هل المقصود هز أعصابى وتحطيمها فيرفعونى الى سماء التفاؤل ثم يهبطوا بى الى حضيض الواقع . .

وهل هذا نوع من التعذيب ؟

والمسجونون يقرأون الصحف ، يبحثون فيها عن أخبار الافراج ، فاذا لم

يجدوا شيئا فى السطور بحثوا بين السطور ، فاذا لم يجدوا شيئا بين السطور بحثوا بين الحروف ، فإذا لم يجدوا هذا راحوا يستنتجون الفرج من أى خبر . فلما قرأوا أنه أفرج عن المسجونين السياسيين فى العراق تصوروا أن هذا لابد أن يحدث فى مصر . واذا قرأوا أن مجلس الوزراء سيجتمع فى الغد تخيلوا أنه سيبحث مسألة الافراجات . واذا لم يروا شيئا فى الصحيفة سوى أن لجنة الزراعة فى مجلس الأمة اجتمعت توهموا أنه لابد أنها ستبحث مسألتهم لأن أغلب المسجونين من الفلاحين أو أبناء الفلاحين !

وأجد نفسى فى موقف سيىء . فأنا لاأستطيع أن أجعلهم يهدمون القصور التى بنوها فى الهواء ليعودوا الى سكنى الزنازين ، ولا أستطيع أن أتركهم معلقين فى الهواء ، فيسقطوا من أوهامهم الى هاوية الحقيقة ، فأتركهم يعيشون فى خداع النفس راجيا أن تتحقق الأحلام .

ومن الغريب أن بعضهم يقرأ بأهتمام بختى فى باب البخت فى جريدة الأهرام . . وبعض السذج منهم يتصور أن « تلميذى المخلص ! » هيكل يكتب لى يوميا تحت بختى الأخبار التى تهمنى . . فإذا جاء يوم قال بختى « موضوع هام يحققه لك صديق مخلص » استنتجوا من ذلك أن موضوعى تحت البحث وأنه سيتم قريبا ! واذا قرأوا أنتظر أخبارا سارة ، فرحوا وهللوا وأعتقدوا أن الافراجات أصبحت على الأبواب . وإذا قال البخت « عقاب فى طريقك . . أصبر » وجموا ، وأصفرت وجوههم ، ووضعوا رؤوسهم منكسة بين أيديهم ، واستنتجوا أن هناك عقبات فى طريق الأفراج .

* * *

التعساء يبحثون دائما عن ثغرة فى الظلام يدخل منها شعاع الشمس .

فإذا لم يجدوا الثغرة ، أغمضوا عيونهم ، وتوهموا أن الليل قد أنتهى وطلع النهار .

الفرق بينى وبينهم أننى أعرف أن النهار لابد أن يطلع ، ولكن ليس فى باب «حظك اليوم» المنشور فى الصحف والمجلات .

ربما تجده فى صفحة الوفيات !

مجلس الأمة فى الليمان

١٥ فبراير سنة ١٩٦٨

عزيزتى . .

قيل لنا أن عددا من أعضاء مجلس الأمة ، ومعهم وزير العدل ووزير الداخلية ، سيزورون ليمان طره . صدرت الأوامر بأن تدهن الجدران . فرشوا الأرض بالرمل الأحمر . وزعوا على كل مسجون بدلة جديدة وقميصا وطاقية . أسرعوا يحضرون سراير لمرضى المستشفى فى الدور الرابع فى عنبر واحد ، بعد أن بحت أصواتهم سنوات من طلب « مرتبة » بلا مجيب ، فقد كان هؤلاء المسجونون السياسيون المرضى ينامون على البلاط ! لم يصرف للمسجونين نصيبهم فى الكانتين ، وذلك حتى يجيىء أعضاء مجلس الأمة فيجدوا رفوف الكانتين مليئة بالبضائع ! أوقف توزيع خطابات المسجونين لأن المشرفين على توزيع البريد كانوا مشغولين فى عملية التنظيف والتجديد . أصبح كل شيء يلمع فى الليمان . من الخارج فقط طبعا ! .

بروفات لغرفة مسرح العرائس المكونة من المسجونين ، والتى سيقال كذبا للنواب بأن المسجونين يستمتعون بها باستمرار ، مع أن الحقيقة أن مسجونا سياسيا واحدا لم يشهد هذه العرائس مرة واحدة .

بروفات بالليل والنهار لفرقة الموسيقى التى ستعزف للنواب ، سوف يقال للنواب كذبا أنها تشنف آذان المسجونين باستمرار ، مع أن المسجونين المساكين لايسمعون بأستمرار الا صوت الضرب والصراخ والأنين يتعالى من عنبر التأديب . أوامر مشددة بأن ينظف المسجونون الزنازين والأحواش والممرات لأن العقلية البوليسية تعتقد أن الدولة مهتمة بالنظافة المظهرية أما الوساخة من الداخل فهى مسألة لاتستحق الأهتمام .

فرح المسجونون جميعا بالزيارة . تصور مسجونو المخدرات أن اللجنة البرلمانية

جاءت تسمع شكواهم . تصور المسجونون السياسيون أن اللجنة جاءت لتحقق قضايا التعذيب . تصور الفلسطينيون المسجونون أن اللجنة جاءت لتصدر العفو عنهم . بعد أن فقدوا بيوتهم فى الحرب سنة ١٩٤٨ ثم سنة ١٩٥٦ ثم فى سنة ١٩٦٧ .

تصور عساكر الليمان أن اللجنة جاءت لتحقق فى تفاهة مرتباتهم ، فان مرتب الواحد منهم ١٤ جنيها فى الشهر وعنده سبعة أو ثمانية أولاد . تصورت مصلحة السجون أن النواب جاءوا ليشاهدوا البط الذى يربيه الليمان ، والصابون الذى يصنعه السجن . وتصور المسجونون الذين يقومون بكسر الأحجار فى الجبل أن النواب جاءوا ليلغوا هذا النوع من الأشغال الشاقة الذى لم يعد له مثيل فى سجون العالم المتمدين ، بعد أن نشرت الصحف منذ عشر سنوات أن هذا العمل غير الانسانى الغى من عقوبة الأشغال الشاقة ، ثم تبينت بعد دخولى السجن أنه ألغى على صفحات الصحف فقط ! وتصور المسجونون الذين ينامون على الأرض بأن النواب سيأمرون بأن يناموا على سرير ، أو على مرتبة على أقل تقدير ! وترددت أشاعات بين المسجونين ، أشاعة تقول أن اللجنة التى ستزور السجن هى لجنة تقصى الحقائق ، وأنها جاءت لتعرف ايرادات مزرعة البط فى الليمان . وأشاعة تقول أنها لجنة الدفاع عن الحريات وأنها ستبحث جرائم صلاح نصر وشمس بدران فى التلفيق والتعذيب ، وأشاعة تقول أنها لجنة الداخلية ، وأنها جاءت لترى مايجب اختصاره من ميزانية السجون . وأشاعة أخيرة تقول أنها لجنة العدل ، وأن كل عضو سيجىء ليأخذ مجانا خمسة كيلو صابون وبطتين !

ثم قيل أن النواب لن يقابلوا أحدا من المسجونين . وأذاع مدير الليمان فى أذاعة السجن أمرا للمسجونين بألا يقدموا للنواب أى شكوى ، لأنهم « مالهمش دعوى » وأنه مستعد أن يتسلم أى شكوى . .

ومر الضباط على المسجونين السياسيين يقولون لهم أن الأوامر صدرت بمنع أى صوت يرتفع أثناء زيارة اللجنة . . وهاج المسجونون فقيل لهم أن الادارة

ستختار ستة من المسجونين يقابلون اللجنة بالنيابة عن المسجونين ، ثم قيل أن مصلحة السجون لم توافق على هذه الفكرة ، وأن الوزارة أمرت بألا يقابلوا أحدا .

وكنت على ثقة بأن اللجنة لن تقابل أحدا . وضعوا على المسجونين حصارا كاملا . ووضعوا برنامجا يجعل النواب لايرون أى مسجون سياسى .

وجاء يوم الأربعاء الماضى ، وهو يوم الزيارة ، ومشى كل شيء بنظام عسكرى دقيق ثم حدث أن أصيب جارى الأستاذ حسن الهضيبى المرشد العام للأخوان المسلمين بنزيف حاد فى الصباح .

ووقع الجميع فى ورطة . أن الرجل نزف فى الوقت غير المناسب . ألم يجد وقتا ينزف فيه الا يوم الزيارة الميمونة ؟

وقرر الأطباء ضرورة نقله على نقالة الى مستشفى السجن لاجراء الاسعافات اللازمة فورا .

لكن ما العمل اذا رأى النواب حسن الهضيبى فوق نقالة ؟ سيعرفون أن رجلا فى السادسة والسبعين من عمره وضع فى زنزانة عادية يغلق عليه بابها ١٨ ساعة كل يوم ، ورفض وزير الداخلية وضعه فى مستشفى السجن على الرغم من أمراضه العديدة حتى حدث له ماحدث .

وزادت حيرتهم . لو تركوه فى زنزانته فقد يموت فى أثناء الزيارة وتصبح فضيحة وسيقال يومها أن الهضيبى مات بسبب انشغال ادارة السجن فى استقبال النواب .

وأصر الأطباء على ضرورة نقله فورا . . وتم نقله فوق نقالة بسرعة مذهلة وغطوه بملاءة بيضاء حتى لايراه النواب إذا تصادف وصولهم فجأة أثناء عملية النقل . ووضعوه فى غرفة بعيدة فى الطابق الثانى من المستشفى وألغوا زيارة النواب للطابق الثانى كله .

ثم وصل النواب ، وصحبهم وكيل وزارة الداخلية وكبار موظفيها ومدير مصلحة السجون ، وذهبوا إلى المستشفى ، وتفرجوا على الدور الأرضى وأتخذت الاحتياطيات لكيلا يصل نائب إلى الطابق الثانى . وهكذا لم ير أحد الهضيبى المذبوح وهو ينزف دما .

وتنفس المسئولون الصعداء .

ثم دخلوا عنبر التأديب ، ولكنهم لم يدخلوا عنبر الايراد ، لقد كان فيه ١٨٦ مسجونا سياسيا من الذين عذبوا وضربوا بالسياط ونهشتهم الكلاب فى السجن الحربى على أيدى شمس بدران وحمزة البسيونى . كان كل ثمانية منهم ينامون فى زنزانة مساحتها متران فى ثلاثة أمتار ! مضى على كل واحد منهم ثلاث سنوات لم ير أولاده أو زوجته أو أمه لأنهم محرمون من الزيارة ، ومحرومون من تلقى الرسائل أو من كتابة الرسائل ، ومحرومون من الحق الذى يستمتع به القاتل وهو يشترى حاجاته من الكانتين فى حدود خمسة جنيهات !

وكانت وزارة الداخلية فى اليوم السابق للزيارة أرسلت اللوريات الى السجن لنقل ٨٦ مسجونا سياسيا الى سجن القناطر ، خشية أن يصر نائب فضولى على دخول عنبرهم فلا يرى فضيحة علبة السردين التى هى زنازينهم ، ويرى آثار التعذيب البشعة ! ولكن من حسن حظ المسئولين فى السجن أنه لم يكن بين النواب نائب فضولى واحد يصر على دخول عنبر الايراد .

وعاد المسئولون يتنفسون الصعداء . بعد أن أجتازت اللجنة بسلام هذه المنطقة الشائكة المليئة بالألغام .

ثم اتجهوا إلى عنبر واحد ، حيث يوجد المسجونون السياسيون فى الطابق الرابع ، وأنا معهم ، وأسرع الضباط والحراس يدخلوننا الزنازين ، ويغلقونها بالمفاتيح حتى لانرى أحدا ولا يرانا أحد .

ودخل النواب الى حوش الطابق الأول ، وتطلعوا الى الأبواب المغلقة ثم

أداروا ظهورهم ، وهنا صاح معتوه من سجن المخدرات :

ـ « عايز بطيخ » .

وأمر مدير مصلحة السجون أن يفتح له باب الزنزانة ، وأن ينزل لمقابلة النواب وأعطاه أحد النواب خمسة جنيهات ، فدعا للبرلمان بطول البقاء !
ومال أحد كبار موظفى الداخلية على النواب وقال لهم « كل المسجونين كهذا المسجون » .

وفهم النواب أن كل المسجونين يطلبون بطيخا ، ولا أحد منهم يريد حرية أو عدالة أو تحقيقا فى جرائم التعذيب .

وخرج النواب من البوابة الحديدية لعنبر واحد وتنفس مدير مصلحة السجون الصعداء ، وقال : الحمد لله خرجنا من عنبر واحد بسلام فقد كان من رأى المسئولين جميعا أن عنبرنا هذا هو العنبر المفروش بالألغام ، ولكن لم ينفجر أى لغم والحمد لله .

وخرج النواب الخمسة والعشرون ، ولم يقابلوا مسجونا سياسيا واحدا من ضحايا صلاح نصر أو حمزة البسيونى أو شمس بدران .

ثم ذهب أعضاء مجلس الأمة إلى مزرعة البط ، وكانت الأوامر قد صدرت قبل ذلك بيوم بمعاملة البط معاملة المسجونين ، ولهذا أبقى المشرفون البط داخل حظائره ٢٤ ساعة بغير طعام ، وبغير فسحة ، وما كاد النواب يصلون الى مزرعة البط حتى فتحت أبواب الحظائر ، فخرج البط يقفز ويرقص فى منظر رائع ، ولم يتصور النواب المتفرجون أن هذا الرقص والقفز هو نتيجة الجوع والحبس الطويل ، وأبدوا أعجابهم بأن بط ليمان طرة تعلم كيف يرقص الباليه !

ثم تفرجوا على مسرح العرائس ، وعزفت لهم الموسيقى أعذب الألحان ، وفى وسط هذه الزفة تقدم أحد المسجونين الى النائبة كريمة العروسى وقال لها : مصطفى أمين محبوس فى الطابق الرابع فى عنبر واحد .

ففتحت كريمة فمها فى ذهول وقالت : موش معقول !

أن المسكينة هى الأخرى كانت تصدق الاشاعة التى تؤكد أنه تم الافراج عنى من زمن طويل ، وتقدمت كريمة الى بعض الضباط وقالت : أريد أن أرى مصطفى أمين .

وبهت الضباط . وأصرت كريمة . وقالوا لها أنه يجب أن نستأذن المدير .

وأذن المدير . وأراد الضباط أن تتم المقابلة فى مكتب المدير .

وأصرت كريمة على أن تذهب الى فى زنزانتى . وقال لها أحد الضباط ، أصل عنبر واحد ملىء بالوحوش والقتلة والسفاكين وهذا خطر على حياتك ومايصحش . وأصرت كريمة . قال الضابط : ولكن مصطفى أمين فى الطابق الرابع ، وستتعبين من صعود السلالم .

قالت كريمة : أنا مستعدة أن أصعد إليه فى الطابق العاشر .

وجاءت كريمة العروسى الى زنزانتى . قلت لها أننى فى دهشة أن يجىء ٢٥ عضوا من مجلس الأمة ليتفرجوا على البط ، بينما لايقابلون المسجونين السياسيين الذين عذبهم صلاح نصر وشمس بدران وحمزة البسيونى .

ورويت لها بعض التعذيب الذى تعرضت له ، وآثاره على جسدى . فاقشعر بدنها ، وامتلأت عيناها بالدموع . ثم أحضرت لها مسجونا سياسيا آخر كووه بالنار ، ولا تزال آثار الحرق فى كل جسمه . ومسجونا ثانيا حطموا جمجمته . ومسجونا ثالثا نزعوا أظافره . وأدخلتها زنزانة مسجون حطم شمس بدران عموده الفقرى فأصبح عاجزا عن الوقوف على قدميه ، ومسجونا آخر أصيب بالشلل نتيجة التعذيب الوحشى ، فأصبحنا نحمله على كرسى ليذهب الى دورة المياه . .

وقالت كريمة أنها لن تسكت على هذا ستذهب الى مجلس الأمة وتطالب

بإعادة التحقيق فى كل القضايا التى لفقها صلاح نصر ، وفى المذابح التى حدثت فى السجن الحربى وباقى السجون . .

واعتبر المسجونون السياسيون دخول كريمة العروسى إلى العنبر ومشاهدتها ضحايا جرائم التعذيب أنتصارا ضخما على الذين أرادوا أن تكون زيارة الخمسة والعشرين نائبا عبارة عن زيارة البط وراح المسجونون يرقصون من الفرح لهذا الذى أستطاعوا أن يحققوه !

ولكن ماحدث بعد ذلك كان لايخطر على بال . .

عادت كريمة العروسى إلى غرفة مدير الليمان . . فوجدت أعضاء مجلس الأمة جالسين يشربون الشربات ، وتقدم منها أحد الضباط الكبار وقدم لها كوبا من الشربات وهو يقول :

ـ هذا شربات مصنوع فى الليمان .

ـ ودفعت كريمة العروسى كوب الشربات بيدها وهى تصرخ :

ـ شربات ؟ أنا بعد الكلام اللى سمعته من مصطفى أمين ، وشوفته بعينى لازم أشرب سم .

ثم التفتت نحو أعضاء مجلس الأمة وصاحت فيهم :

ـ سيبوا الشربات . وتعالوا شوفوا مصطفى أمين . وأسمعوا بآذانكم . . وشوفوا بعيونكم .

وانتفض النواب . . رموا أكواب الشربات من أيديهم . أسرعوا يعدون كالمجانين إلى عنبر واحد ، والضباط ، ووكيل الداخلية ومدير مصلحة السجون وكبار موظفى الداخلية وضباط المباحث يهرولون وراءهم !

وصعدوا درجات سلالم الطوابق الأربعة وهم يلهثون .

وسرى النبأ كالكهرباء داخل السجن ، قام السجن كله على قدم وساق .

المسجونون وقفوا متعلقين بقضبان زنازينهم يشاهدون وكيل الداخلية يجرى ، ومدير مصلحة السجون يعدو . الحراس فى ذهول وهم يرون هذا الموكب الذى كان يمشى منذ دقائق فى تؤدة وجلال ووقار ، وقد تحول فجأة إلى سباق فى العدو . الضباط يمسحون عرقهم بمناديلهم فى شهر فبراير البارد .

الكل فى دهشة وذهول . ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ ما الذى أعاد كل هؤلاء إلى عنبر واحد بعد أن أنتهت زيارة العنبر : صدرت الأوامر بدخول جميع المسجونين الى زنازينهم . رفض المسجونون الدخول . كان الضباط يأمرون الحراس بأدخال المسجونين الى زنازينهم ويغلقون عليهم الأبواب ، ولكن الحراس وقفوا كالأصنام . تسمروا فى أماكنهم . كأنهم فقدوا حاسة سماع الأوامر والتعليمات عندما رأوا الرعب فى عيون مدير المصلحة وكبار موظفى الداخلية . أوامر المصلحة ماتت فى الدوى الكبير . تعليمات مدير الليمان ماتت على شفتيه . خرج كل شيء من أيدى المسئولين فى الليمان .

كأن المسجونين قاموا بانقلاب داخل السجن ، وتحول المسجونون إلى سجانين وأصبح الضباط والحراس هم المذنبين . كان هذا الموكب الذى كان يعدو الى زنزانتى داس فى طريقه كل شيء . داس على النظام الموضوع . داس على الترتيبات العسكرية الدقيقة التى أرادت أن يمشى النواب فى طابور دون أن يتجهوا الى اليمين أو اليسار . داس على مظاهر الاحتفال الرائع . فى لحظات لم يعد أى شيء يلمع فى السجن . الجدران التى كانت تتوهج بسبب الطلاء الجديد بهتت فجأة ، شحبت ، أصفر وجهها من الرعب . الرمل الأحمر أصفر هو الأخر ، أو لعله أسود من الخجل والكسوف . بينما عنبر واحد الذى كان فى سكون المقابر من دقائق ، ترمى فيه الدبوس فتسمع رنينه ، عادت اليه الحياة .

وأراد النواب أن يدخلوا زنزانتى الضيقة . ولاحظت أن عددهم كبير . فهى لاتتسع إلا لنائب واحد أو ثلاثة نواب محشورين ، ويبقى الأخرون خارج

الزنزانة لايسمعون ماأقول . .

قلت لهم : ان زنزانتى لاتكفيكم جميعا ! سأقابلكم فى الردهة أمام الزنزانة لتسمعوا كلكم ماأقول . .

واصطفوا جميعا حولى ، ووراءهم وكيل الداخلية ومدير مصلحة السجون ، ومدير الليمان ، وكبار ضباط المصلحة ، وضباط المباحث ، وضباط السجن ، وعدد من الحراس بينما تعلق المسجونون بقضبان نوافذهم ، واحتشدوا فى الممرات يتطلعون فى ذهول .

وتكلمت بصوت عال جهورى ، كان يدوى فى العنبر كله ، حتى أن المسجونين فى الطابق الأرضى كانوا يسمعون ماأقوله فى الطابق الرابع . .

قلت لهم :

ـ أننى كنت نائبا فى البرلمان لمدة خمس سنوات وأنا أعرف مايستطيع البرلمان أن يفعله لمصلحة الشعب . . ولقد دهشت عندما جاء ٢٥ نائبا من أعضاء مجلس الأمة الى ليمان طره ، ليتفرجوا على البط ، وليشهدوا مسرح العرائس ، ثم لايدخلوا زنازين المسجونين السياسيين , ان فى كل زنزانة هنا مذبوحا . أريد أن تدخلوا كل زنزانة لتروا ضحايا تعذيب صلاح نصر وحمزة البسيونى وشمس بدران . أحب أن تسمعوا بآذانكم وتروا بعيونكم آثار التعذيب . كل واحد منا عذبوه تعذيبا وحشيا . هدد بهتك عرض زوجته أو خطيبته أو بناته . خلعوا ملابسنا حتى أصبحنا عرايا كما ولدتنا أمهاتنا . صلبونا على الجدران ، ضربونا ضربا مبرحا حتى يغمى علينا .

كانوا ينزعون بأظافرهم شعر العانة . كانوا يربطون جهازنا التناسلى بسلك كهربائى ويجذبوننا منه ، ويلفون بنا ويدورون فى غرف التعذيب .

أنا حدث لى كل هذا . هددونى بالاعتداء على عرض سكرتيرتى وبناتى أمامى . كانوا يديرون أشرطة فيها أصوات أطفال تصرخ وهم يضربون

بالسياط . كانوا يمنعوننى من النوم عدة أيام . يمنعون عنى الماء فى أشد أيام شهر يوليو وشهر أغسطس حرارة عدة أيام . كانوا يتركوننا بلا طعام . وأخذونى إلى السجن الحربى صلبونى . أطلق على حمزة البسيونى الكلاب البوليسية الهائجة تهاجمنى وتنهشنى !

أنا لاأريد أن أتكلم عن نفسى . أنا أستطيع أن أدافع عن نفسى . أنما فى هذه الزنازين ألوف لايستطيعون الكلام ، لايستطيعون أن يفتحوا أفواههم ، لايستطيعون أن يرفعوا أصواتهم . أن واجبكم أن تفتحوا كل زنزانة . سترون فى كل زنزانة مذبوحا ، ذبحه صلاح نصر وحمزة البسيونى وشمس بدران . سترون بأعينكم آثار الضرب والتعذيب آثار الحرق ونزع الأظافر . ستسمعون بآذانكم القصص البشعة عن التعذيب والتلفيق والظلم والأرهاب .

قال مدير الليمان : دى حاجة غريبة . هذه أول مرة يشكو فيها الأستاذ مصطفى أمين . أنا هنا منذ عامين ، ولم أسمعه يشكو مرة واحدة !

ثم التفت مدير الليمان نحوى وقال :

ـ ألم أطلب اليك أن تشكو ؟

قلت : أنا لاأشكو لضباط . لقد جاء وزير الداخلية إلى زنزانتى وسألنى الوزير : هل عندى أى شكوى ؟ فقلت له : لا . . متشكر . . أنا لاأشكو .

قال مدير الليمان : نعم حدث هذا أمامى .

قلت : ولكن الآن أتكلم أمام نواب الأمة . أنتم ممثلو الشعب . أننى أضع فى رقبتكم هذه المسئولية . أنا شخصيا عشت حياتى . أنما الذى يهمنى حياة وشرف وحرية وكرامة وآدمية ثلاثين مليونا . أنكم إذا سكتم سيظهر فى كل يوم صلاح نصر جديد . . وستوضعون أنتم فى هذه الزنازين . تنتهك أعراض زوجاتكم وبناتكم . سيهدد شرفكم . ستلفق لكم التهم والأكاذيب . سترغمون على الاعترافات الكاذبة . . ستضربون بالسياط .

والأهم من هذا نحن نستطيع أن نتكلم . أن نصرخ . أن نفضح ماجرى فينا . ولكن هناك غيرنا ، هؤلاء الذين دفنهم المجرمون في السجن الحربي وسجن صلاح نصر . أن الموتى لايتكلمون ! لقد كنت أتصور أنه بدلا من أن تزوروا البط أن تنتقل لجنة برلمانية منكم إلى السجن الحربى وتبحث عن الجثث المدفونة هناك . كنت أتصور أنكم ستذهبون الى مقر صلاح نصر وتضبطون آلات التعذيب التى أشتريت بآلاف الجنيهات من دم هذا الشعب المسكين . هل يستطيع هؤلاء المدفونون فى السجن الحربى أن يتكلموا ؟ وأن يشكوا ؟ ولمن يتكلمون ولمن يشكون ؟ .

أن التاريخ سوف يثبت أن صلاح نصر وعصابته والذين ظلموا هم سبب الهزيمة ، هم الذين وضعوا العصابة على العيَون فلا ترى ، ووضعوا الكمامات على الافواه فلا تتكلم ، ووضعوا الأصابع فى الآذان فلا تسمع . أن التاريخ سوف يثبت أن سبب الهزيمة هو الكبت والارهاب وحكم الفرد والتعذيب والتلفيق وأشاعة الخوف والرعب بين الناس ! المقيدون بالسلاسل لايمكن أن يكسبوا حربا !

أننى فى دهشة أن يحاكم صلاح نصر لأنه خان الحكم ، ولايحاكم لأنه خان الشعب ! دهشت أن تكون جريمته أنه تآمر على الدولة ، ولا تكون جريمته أنه قتل الألوف وعذب الألوف ونشر الارهاب بين الشعب كله . . يجب أن يحاكم صلاح نصر على جرائمه الحقيقية . أما أنه برىء فيجب أن يخرج من السجن ، وأما أنه مجرم ملفق معذب . فيجب أن يخرج كل هؤلاء الذين ظلمهم أو عذبهم !

وهنا قال أحد النواب : لماذا لم يتقدم الذين أصابهم التعذيب بشكاوى ؟

قلت : شكوا . . كتبوا شكاوى وأحيلت شكاواهم ضد صلاح نصر الى صلاح نصر ، والى تلاميذ صلاح نصر ! ومن سخرية القدر أن صلاح نصر فى السجن الآن . ولكن الأوامر التى أصدرها لاتزال تنفذ علينا . كان السياسيون

المرضى يوضعون فى الماضى فى المستشفى ، فأمر صلاح نصر بأن يوضع المرضى فى الزنازين . وتغلق عليهم الأبواب ١٨ ساعة كل يوم .

فسأل أحد النواب : مارأيك فى أنظمة السجن ؟

قلت : أنها قوانين وتعليمات أصدرها مجرمون ، وينفذها شرفاء أننى أقترح أن يوفد مجلس الأمة لجنة تجيء إلى السجون ، وتقابل كل مسجون ، وترى الناس والمذابح والجرائم التى صنعها صلاح نصر وزبانيته وشمس بدران وحمزة البسيونى ضد الأبرياء . . أنا أرفض أن تكتفوا بكلامى . أنا أطلب إليكم أن تفتحوا كل زنزانة . أن تدخلوا الى كل مذبوح . أن تسمعوا بآذانكم أنين المعذبين والمصلوبين ، وتروا بأعينكم آثار التعذيب على أجسادهم .

وأنتهيت من كلمتى . وانتشر النواب . دخلوا كل زنزانة . اقشعرت أبدانهم مما سمعوا . امتلأت عيونهم بالدموع لما رأوا . كانوا يمشون مترنحين ، ذاهلين كأنهم يمشون فى جنازات لاتنتهى ، فقد كان فى كل زنزانة نعش ميت .

وكانوا يصرون على فتح باب كل زنزانة . حدث أن وجدوا بابا مغلقا فطالبوا بفتحه .

قال الضابط : هذا مخزن .

فصاح فيه أحد النواب بغضب :

ـ أفتح ! فقد تجد هنا مذبوحا آخر تخفونه !

ووقف معى بعض النواب ، وتحدثت معهم فى كل شيء .

تحدثت معهم عن المحكوم عليهم بالمؤبد فى قضايا المخدرات ، وقلت لهم أنه من العار أن تنشر كل صحفنا بيانا بأمضاء النائب العام . وبشهادة الطب الشرعى ، يقول أن النائب الأول لرئيس الجمهورية والنائب العام للقوات

المسلحة كان يمضغ الأفيون ، ولا يسأل أحد عن مصدر هذه المخدرات . بينما اذا ضبطت الشرطة فقيرا ومعه قطعة أفيون أو حشيش يحكم عليه بالسجن المؤبد ، والعار الأكبر أن كثيرا من أحكام المؤبد هذه بتوقيع النائب الأول لرئيس الجمهورية نفسه . أن فى السجون آلافا من هؤلاء .

وتحدثت معهم عن الفلسطينيين المحكوم عليهم . وقلت لهم : ماهو شعور الفلسطينيين الذين فى السجن عندما يرون الجاسوس الاسرائيلى لوتز ، الذى أعطى لاسرائيل كل أسرار مطاراتنا قبل العدوان ، وهو يعفى عنه ويخرج من السجن بقرار جمهورى ؟ ماهو شعور الفلسطينيين وهم يرون المسجونين اليهود من عصابة لافون يعفى عنهم بقرار جمهورى وهم يعرفون أن هؤلاء اليهود كانوا من المخابرات الاسرائيلية وكانت مهمتهم القاء قنابل على الابنية الامريكية فى القاهرة لايقاع الخلاف بين مصر وأمريكا . ماذا يقول الفلسطينيون وهم يشهدون هذا التسامح مع الاسرائيليين ، وهذا التشدد مع الفلسطينيين الذين أصبحوا لاجئين ثلاث مرات عام ١٩٤٨ وعام ١٩٥٦ وعام ١٩٦٧ ؟ .

وتحدثت مع النواب عن حالة حراس السجن . كيف أن الواحد منهم يتقاضى حوالى عشرة جنيهات وعنده خمسة أو ستة أطفال . والصحف تقول أن جميع المواطنين والعمال يعملون سبع ساعات فى اليوم ، وهؤلاء الحراس يعملون ١٢ ساعة ، ولا يعطون أجرا على زيادة ساعات العمل . وقلت لهم أن فى ميزانية السجن ٨٠ ألف جنيه لطعام الحراس ، ولو وزعت عليهم نقودا ، لاصاب كل واحد منهم جنيهان فى الشهر أو ثلاثة جنيهات .

قلت لهم أن السجون فى البلاد المتمدينة التى يوضع فيها أعتى المجرمين تسمح بالزيارة لأسر المسجونين كل يوم من أيام الأسبوع ومن حق المسجون أن يبقى مع أسرته سبع ساعات فى الزيارة ، بينما المسجون هنا يزوره أهله مرة كل شهر ، وتستمر الزيارة بضع دقائق ، ويفصل سلك غليظ بين المسجون وأسرته ، وكأن المسجون فى قفص القرود فى حديقة الحيوان . وفى سجون الخارج كل مسجون فى غرفته راديو وينفقون فى سجن « سنج سنج » فى أمريكا على طعام كل

مسجون خمسة دولارات فى اليوم ويتقاضى المسجون حوالى دولارين . وسألنى أحد النواب لماذا لاأشكو المخابرات . . أننى لو نبهت لخطر مخابرات صلاح نصر من قبل كنت جعلت البلاد تتفادى كوارث كثيرة . .

قلت : انى كتبت كل شيء للرئيس جمال عبد الناصر ، وأتصور أن عبد الناصر محاصر ولا تصله الحقيقة !

قالوا : لماذا لم تكتب الى غيره ؟

قلت : لمن أشكو المخابرات ؟ أشكوها لرئيس الوزراء وقتئذ ؟ لقد كان زكريا محيى الدين مدير المخابرات الأسبق ؟ أشكوها للأمين الأول للاتحاد الأشتراكى ؟ لقد كان على صبرى مدير المخابرات السابق ؟ أشكوها لوزير الداخلية ؟ أنه شعراوى جمعة وكيل المخابرات السابق ؟ أشكوها لوزير الحربية ؟ أنه أمين هويدى وكيل المخابرات السابق ؟ أشكوها لوزير الشباب ؟ أنه طلعت خيرى وكيل المخابرات السابق ؟ أشكوها لمساعد أمين الأتحاد الأشتراكى فى الوجه القبلى حيث أملك خمسة أفدنة ؟ أنه عباس رضوان الصديق الصدوق وكاتم أسرار صلاح نصر مدير المخابرات السابق ؟ أذهب الى بنها وأشكوها للمحافظ ؟ أن محافظة القليوبية هو كمال أبو الفتوح وكيل المخابرات السابق ! أترك بنها وأذهب إلى شبين الكوم ؟ أن محافظ المنوفية هو ابراهيم بغدادى الضابط السابق بالمخابرات ؟ أترك شبين الكوم وأذهب إلى بور سعيد ؟ أن محافظ بورسعيد هو فؤاد طولان وكيل المخابرات السابق . . أن المخابرات كالاخطبوط لها أرجل وأيد وعيون فى كل مكان .

قالوا : أذن هم أكبر قوة فى البلد !

قلت : هناك قوة أكبر هى الله . . وسوف تثبت الأيام أنه قادر أن يفعل بصلاح نصر مالا يخطر لاحد على بال !

وكان كبار موظفى وزارة الداخلية والسجون ينظرون إلى ساعاتهم بأستمرار ، أن النواب بقوا معنا أكثر من ساعة . وكانوا يتعجلون النواب ، والنواب

يرفضون مغادرة الزنازين . كان الضباط يحاولون أنهاء الزيارة ، ولكن النواب كانوا مصرين على البقاء .

وباظت المأدبة الفخمة التى كانت معدة للنواب . الأطعمة الساخنة بردت الحلوى الفاخرة ساحت . أكثر النواب لم يستطيعوا أن يأكلوا شيئا . أن ماروه من أهوال وماسمعوه من مخاز سد نفسهم عن الطعام .

وكان موقف مدير الليمان عبد الله عماره وجميع ضباط السجن ممتازا . . تركونا نتكلم . لم يمنعوا أى مسجون سياسى من أن يقول كل مايريد . كانوا يصحبون النواب الى كل زنزانة . ورأيت الدموع فى عيونهم عندما تحدثت عما أصابنى من تعذيب ، وكانوا سعداء لأننى لم أشك من أى شىء عن داخل السجن . كانت كل الشكاوى عما أصابنا فى سجن صلاح نصر والسجن الحربى .

وكان بين النواب سيد جلال ، وهو الأن فى السبعين من عمره . وما أن رآنى حتى عانقنى وقبلنى وبكى وهو يقول :

ـ أن الأطباء منعونى من أن أصعد السلالم . ولكنى عندما علمت أنك فى الدور الرابع قررت أن أصعد ، حتى لو أصبت بذبحة صدرية جديدة .

وقبل أن ينصرف النواب صافحونى . وقالوا لى أننا نشكرك لانك ساعدتنا على أن نعرف واجبنا .

وأنتهت الزيارة . .

كان كل من فى السجن سعيدا .

الضباط سعداء لان أحدا لم يشك منهم ، بل على العكس أثنينا عليهم الحراس سعداء لأننا تحدثنا عن مطالبهم..

المسجونون العاديون سعداء لأنهم وجدوا من يرفع صوتهم .

المسجونون السياسيون سعداء لأنهم أخرجُوا كل ماكان محبوسا فى قلوبهم وشجعهم كلامى على أن يقولوا كل ماتحملوه من عذاب .

وفى اليوم التالى كان السجن فى عيد . كان كل المسجونين فرحين مبتهجين لان صوتا ارتفع يعبر عن أنينهم ، وعذابهم ، وآلامهم وصرخاتهم المحبوسة ودموعهم المكتومة ، وحزنهم المدفون . .

وقال لى الكثيرون منهم : نشكرك . . أنك جعلتنا ننام الليل كله ، ولأول مرة منذ عدة سنوات .

أننى لم أفتح لهم باب السجن ، وأنما فتحت لهم باب الأمل .

لم أضمد جراحهم ، وأنما نركت تأوهاوتهم تخرج من أفواههم المكممة . . لم أرفع الظلم عنهم ، ولكنى مكنت كل واحد منهم أن يصرخ ويقول أنا مظلوم !

وأنا أيضا نمت نوما سعيدا عميقا .

لاننى قلت كل مافى قلبى !

كنا سعداء لان خمسة وعشرين رجلا وامرأة سمعوا صراخنا .

ترى . . هل يجىء اليوم الذى سوف تسمع فيه الملايين صراخنا ؟ نعم ! سيحدث هذا بإذن الله ! .

كل نائب يفتح فمه عن التعذيب سيفصل من مجلس الأمة !

١٨ فبراير سنة ١٩٦٨

عزيزتى

كان زملائى فى السجن يتوقعون نتائج باهرة لزيارة النواب لليمان ! أما أنا فلم أتوقع شيئا من مجلس الأمة ، المجلس الذى رقص بعض نوابه « عشرة بلدى » عندما عدل الرئيس جمال عبد الناصر عن استقالته ، بعد خمسة أيام فقط من هزيمة ٥ يونيو. المجلس الذى أعطى للرئيس تفويضا على بياض . المجلس الذى لم يجرؤ على تأليف لجنة تحقيق فى أسباب الهزيمة المروعة . كان كل مايهمنى هو الرأى العام . أن يخرج النواب من عندنا ، ويرووا للناس ماسمعوه عن بشاعة التعذيب . . وبذلك نهزم مؤامرة الصمت عن التعذيب التى فرضت علينا !

وفعلا صدق ظنى . خرج النواب من عندنا متحمسين ومصممين على اثارة مسألة التعذيب فى مجلس الأمة ، وتقديم أسئلة واستجوابات والمطالبة بالأفراج عن المسجونين السياسيين . واذا بالأوامر تصدر اليهم تقول لهم « هس » ! لاتفتحوا أفواهكم . وكتب لى تلاميذى يقولون أن النواب كانت لديهم الشجاعة على أن يرووا لزملائهم ما رأوه . وأن الأجهزة تحركت على الفور . وأن بعض النواب هددوا بالفصل من الاتحاد الأشتراكى ومن عضوية مجلس الأمة اذا أثاروا مسألة التعذيب . .

وقيل لهم أن التعذيب سياسة عليا وليس من حق أحد أن يتحدث عنه ! وصمت النواب وخرسوا وعرفوا أن مهمتهم هى التصفيق الحاد !

ولكنى لاأيأس من هذا الظلام الدامس . ان الله يحل كل المشاكل وماكنت

أراه دائما بلا حل تمتد يد الله وتحله بأحسن مما كنت أتمنى وأتصور . لقد كنت جالسا أستعرض حياتى . تذكرت وأنا طفل صغير انى كنت أعيش وسط أسرة تعيسة وحيدة بنفى رب الاسرة سعد زغلول . كانت كل الانباء التى تجيىء لنا سيئة كنا نتوقع موته فى منفاه فى جزيرة سيشل بسبب شيخوخته وأمراضه العديدة وسوء معاملته . ثم أشرقت الشمس ، وعاد سعد من منفاه ، واستقبلته مصر بما لم تستقبل به أحدا فى التاريخ . وعندما كان عمرنا ١٤ سنة قمنا بمظاهرة ضد دكتاتورية محمد محمود وقبض على وعلى أخى ، وفصلنا من مدرسة الأوقاف ، وضاقت الدنيا فى عيوننا وتصورنا أننا سنمضى حياتنا بلا تعليم ، ثم أشرقت الشمس وانتصر الشعب ، وسقطت دكتاتورية محمد محمود وعدنا الى المدارس . . وكان عمرنا ١٦ سنة وبعد شهور الغى الملك فؤاد واسماعيل صدقى دستور الشعب وأغلق البرلمان ، فنظمت أنا وأخى اضرابا فى جميع المدارس الثانوية وقدنا مظاهرة عنيفة تهتف بسقوط الملك وسقوط رئيس الوزراء . وقبض علينا . وصدر قرار مجلس الوزراء برفتنا من جميع مدارس مصر وحرماننا من جميع الأمتحانات . وتصورنا أننا سنعيش جهلاء لانحمل شهادة عليا . ثم أشرقت الشمس وحصل أخى على بكالوريوس فى الهندسة من انجلترا وحصلت على ماجستير فى العلوم السياسية من الولايات المتحدة . ثم حدث وأنا أعيش مع والدى وهو وزير مفوض فى أمريكا أن غضب عليه الملك فاروق وأحاله إلى الاستيداع وتصورت أنها نهاية الدنيا ، ولم البث أن أتممت دراستى . وكان رفت ابى خيرا علينا . وأشرقت الشمس وأصبحت رئيسا لتحرير آخر ساعة وعاد أبى الى عمله . وحدث أن كتبت مقالا فى سنة ١٩٤٠ أغضب على ماهر رئيس الوزراء فرفت أبى من وظيفته ، وشعرت أنها كارثة نزلت علينا من السماء ، وأنها ستعرضنا للجوع وعملى الصحفى مهدد بسبب الرقابة الصحفية . ولم ألبث أن أصبحت رئيسا لتحرير مجلة الأثنين ، وأصبح ايرادى ضعف ايراد رئيس وزراء مصر وأضعاف ما كان يقبضه أبى من الدولة وقتئذ . ثم غضب رئيس الوزراء مصطفى النحاس على لاننى كنت أعارضه فى مجلة الاثنين ، واحال ابى للمعاش للمرة الثالثة .

ثم أشرقت الشمس وأصدرت « أخبار اليوم » مع أخى . . وهكذا كانت حياتى سلسلة أزمات وكوارث ومتاعب ولكن الله دائما كان يحول المصيبة الى خير ، والكارثة الى نعمة . لهذا أؤمن بالله عن يقين ، وعن عقيدة وعن تجربة . ولقد رأيت الله كثيرا . . وأحسست بيده تستندنى اذا تعثرت . وترفعنى اذا وقعت ، وتنقذنى اذا هوت على رأسي مطارق الحياة . وكل مانتعرض له ليس جديدا على أسرتنا . فى سنة ١٩١٩ أصدر القائد العام البريطانى قرارا بمصادرة أموال أبى . ووجدنا الناس الطيبين الذين يساعدوننا حتى رفعت الحماية البريطانية وألغيت المصادرات .

وفى سنة ١٩٦٥ صدر قرار بوضعى أنا وابنتى وعلى وزوجته وأبنتيه تحت الحراسة .

وسوف تلغى هذه الحراسة عندما ترفع الحماية الروسية عن مصر بإذن الله .

أن كل مايصيبنى لايفقدنى أيمانى ببلدى ، بل يزيدنى تمسكا بها ، وحبا لها ، ويضاعف ايمانى بالله .

أنا الأن فى الشهر الواحد والثلاثين فى السجن . أتممت السنتين ونصف السنة فى ٢١ يناير . . وأنا أعرف ماذا تعنى هذه المدة الطويلة للذين يحبوننى من عذاب وشقاء وحرمان . ولقد احتملت نصيبى من هذا كله برضاء . ولكن الذى لااحتمله هو نصيبكم انتم من هذا الشقاء . هذا الشعور يجعل قلبى يدمى . لولا آلام الذين يحبوننى لما شعرت بأى فرق بين وجودى فى السجن ووجودى خارج السجن . الذى يحز فى نفسى أنكم تتعذبون أكثر مما أتعذب . وتشقون أكثر مما أشقى . أننى أقلق باستمرار عليكم أتتبع أخباركم . وعندما تصلنى كلمة منكم أعيش معها وبها . أحاول أن أجعل الكلمة الصامتة تنطق وتتكلم وتحكى وترد على ألوف الأسئلة وتسمعنى آلاف التفصيلات .

أن حياتى مليئة بالذين يحبوننى والذين أحبهم ، بناس لم أعرفهم ولكنهم يتصلون بى ويكتبون الى . أننى لاأشكو السماء لانها تركتنى فى هذا السجن ، بل

أشكرها لهذا الحب الذى أعطته لى . لاأشعر هنا بشقاء ولا قسوة ولا حرمان . فان الذين حولى يغمروننى بالعطف والحب والحنان . لا أحس بالاختفاء داخل القضبان ، بل أجد روحى منطلقة الى الملايين التى أحبها وتحبنى . الى الفقراء . الى التعساء . إلى المظلومين الذين أولونى ثقتهم . عندما أحس البرد وتعجز البطاطين عن أن تمنع جسدى من القشعريرة أفكر فى حب الناس فأشعر بالدفء .

أننى فى السجن لست وحدى أبدا !

أرسلت بلاغا إلى النائب العام
فاختفى من مكتبه
وظهر فى النيابة العسكرية

١٩ مارس سنة ١٩٦٨

عزيزتى . .

حدثت فى هذا الأسبوع أشياء عجيبة .

وصل إلى السجن أخطار من النائب العام أن أذهب الى رئيس النيابة فى دار القضاء العالى فى يوم الخميس ١٤ مارس لادلى بأقوالى فى بلاغ النائب العام . . وفى نفس الوقت وصلت إشارة مستعجلة تأمر بإلغاء ذهابى بناء على أمر وكيل الداخلية .

وتكرر هذا الحادث الغريب عدة مرَات . النائب العام يستدعينى للتحقيق ووزير الداخلية يأمر بعدم تنفيذ طلب النائب العام .

ولم أعرف سبب هذا الموقف الغريب العجيب المريب . لم أعرف الأسباب فى أن الحكومة لاتريد أن أدلى بأقوالى فى التعذيب وترفض أمر النائب العام الا سببا واحدا وهو أن الحكومة تريد أن تتستر على ماجرى لى ، ولا تريد أن يعرف الناس الجرائم البشعة التى حدثت ضدى .

ثم حدث أمس أن حضر الى السجن الرائد أحمد فهمى رئيس النيابة العسكرية وسمع بلاغ الاستاذ حسن الهضيبى عن التعذيب ، ثم استدعانى لسماع أقوالى . وذهبت إلى رئيس النيابة العسكرية ، فوجدته جالسا فى غرفة بمستشفى السجن يسمع أقوال الأستاذ حسن الهضيبى .

وطلب منى رئيس النيابة العسكرية أن أنتظر فى غرفة كبير الأطباء الى أن يستدعينى ثم أرسل يستدعينى . ولكن حراس السجن قالوا لى أن مدير الليمان أمر بألا أذهب للادلاء بأقوالى قبل أن أقابل مدير الليمان أولا ! .

وحرت هل أنفذ أمر رئيس النيابة العسكرية أم أمر مدير الليمان .

ولكنى كمسجون رأيت أن من الاسلم أن أنفذ أوامر مدير الليمان .

وذهبت إلى مدير الليمان ، فقال لى أنه لايستطيع أن يسمح لى بالادلاء بأقوالى قبل استئذان وزير الداخلية .

وتركنى مدير الليمان فى مكتبه ، وذهب إلى مكتب آخر ليتصل بمدير مصلحة السجون ، الذى سيتصل بوكيل وزير الداخلية ، الذى سيتصل بوزير الداخلية !

وقال لى الضباط أن مدير الليمان فى حيرة لان لديه أوامر مشددة من وكيل الداخلية بألا أدلى بأقوالى فى التعذيب .

فماذا يفعل الأن ؟

وقام مدير الليمان باتصالاته . ثم عاد وسمح لى بالذهاب الى رئيس النيابة العسكرية فى المستشفى للادلاء بأقوالى .

وحمدت الله أن الأزمة قد حلت . .

وعندما قابلت رئيس النيابة العسكرية لاحظت أنه يحقق فى البلاغ الذى قدمته الى النائب العام فى ٢١ فبراير سنة ١٩٦٨ .

وقلت له أننى لم أقدم بلاغا للنيابة العسكرية ، وأنما قدمت البلاغ للنائب العام وأن جميع زملائى المسجونين السياسيين الذين قدموا بلاغات عن التعذيب الى النائب العام سئلوا أمام النيابة العامة فى دار القضاء العالى ، فلماذا تسألوننى

أنا أمام النيابة العسكرية . . وأنا لست من القوات العسكرية ؟ !
وأكتشفت ان النائب العام ليس هو الذى حول بلاغى إلى النيابة العسكرية وأكتشفت أن وزير الداخلية والمخابرات العامة هم الذين منعوا ذهابى إلى النيابة العامة ، وأكتشفت فوق هذا أن بلاغى انتزع من مكتب النائب العام ، وارسلته المباحث العامة إلى النيابة العسكرية لتمنع النائب العام من التحقيق .

ودهشت لهذا التصرف الغريب ، ولم أفهم الغرض منه . اللهم الا إذا قصدوا أن يكون سماع أقوال الهضيبى وأقوالى - دون جميع المسجونين - فى أضيق نطاق . ولهذا تولته النيابة العسكرية ، حتى لايخرج شيء عن تعذيبنا الى الناس ، ويعرفه القضاة ووكلاء النيابة . أو أن الأمر أخطر من هذا . وهو أن الدولة ترغب في التستر على جرائم تعذيبنا وأنها وجدت أنها قادرة أن تسيطر بسلطاتها على القضاء العسكرى ، بينما هى غير قادرة على السيطرة على القضاء المدنى ، وهى تستطيع أن تأمر الدجوى مثلا كرئيس للمحكمة العسكرية بأن يحكم بأنه لايوجد تعذيب . بينما هى لاتستطيع أن تفعل ذلك مع المستشارين المدنيين .

ومع ذلك أدليت بأقوالى عن كل ماتعرضت له من تعذيب ، وسجل رئيس النيابة العسكرية أقوالى كاملة . وسجلت فى المحضر نص الخطاب الذى أرسلته الى الرئيس جمال عبد الناصر فى ديسمبر سنة ١٩٦٥ من سجن الاستئناف وذكرت فيه كل ماتعرضت له من تعذيب وهوان . كما ذكرت أننى أرسلت صورة من الخطاب إلى أم كلثوم وفائق السمرائى سفير العراق السابق فى القاهرة وسعيد فريحه صاحب دار الصياد ، لأنهم لايتولون مناصب قد يصل إليها بطش وارهاب صلاح نصر . وإن أم كلثوم قرأت الخطاب وبكت ، وأن فائق السمرائى قرأ الخطاب وذهل ولم يصدق عينيه ، وأن سعيد فريحة قرأ الخطاب وفزع . . وأرسل لى سعيد فريحة رسالة يقول فيها أن من رأيهم جميعا ألا يصل هذا الخطاب إلى الرئيس ، لأنه لو وصل إليه ، فسوف يعلم به صلاح نصر ، وسيقتلك صلاح نصر فى السجن . إن صلاح نصر كالأخطبوط فى الدولة ، واذا

أستطاع أن يفعل بك كل هذا من قبل فهو قادر على أن يفعل بك أضعاف هذا الآن .

وطلبت أن يسأل رئيس النيابة العسكرية هؤلاء الثلاثة .

وطلب منى رئيس النيابة العسكرية خلع ملابسى ، وقال لى أنه درس الطب الشرعى . . فخلعت . . وسجل وجود آثار فى جسمى ناتجة عن التعذيب رغم مرور حوالى ثلاث سنوات .

وقلت له أننى أطلب أن أعرض على الطبيب الشرعى ليثبت الاصابات وقال أنه لايستطيع أن يأمر بإرسالى إلى الطبيب الشرعى ، ولكنه يجب أن يستأذن أولا .

وسألنى لماذا لم أخبر رئيس نيابة أمن الدولة بالتعذيب ؟

قلت له أن صلاح نصار رئيس نيابة أمن الدولة كان جزءا من جهاز مخابرات صلاح نصر ، بدليل أنه لم يحقق معى مرة واحدة خارج بناء المخابرات ، وبدليل أنه لم ينفرد بى أبدا ، بل كان يحضر ثلاثة من ضباط المخابرات معى داخل غرفة التحقيق ، وبدليل أنه تركنى مسجونا أربعة شهور فى سجن المخابرات مع أنه ليس سجنا عموميا ، وبدليل أنه رأى بعينيه كل جرائم التعذيب مع المتهمين السياسيين الآخرين ولم يسجل فى محضره كلمة عنها .

وسألنى لماذا لم أتكلم فى محكمة الدجوى عن التعذيب .

فقلت له أردت أن أتكلم فى المحكمة عن التعذيب ، ولكن محامى الدكتور محمد عبد الله نصحنى بألا أتحدث عن التعذيب ، لأن الدجوى لايحب اثارة مسألة التعذيب ، وقلت أننى لما وجدتنى لاأستطيع أن أتحدث عن التعذيب فى المحكمة رفضت أن أفتح فمى أثناء المحاكمة ، ولهذا خلت المحاكمة من أى أقوال لى الا فى نهاية الجلسة ، عندما وقفت والقيت كلمة قلت فيها انى برىء وسوف يثبت التاريخ براءتى !

وسألنى : هل جاءت لجنة وكشفت عليك لترى التعذيب ؟

فقلت : لم يحدث . .

وختم رئيس النيابة العسكرية المحضر بقوله « تم المحضر الساعة كذا . . وقررنا الانتقال إلى ديوان الوزارة لعرض نتيجة التحقيق » .

وأستمر التحقيق حوالى ثلاث ساعات .

ولقد كنت أفضل أن يكون التحقيق فى النيابة العامة ، وأن كان المحقق العسكرى أظهر روحا كلها عدل وأنصاف ونزاهة وشجاعة وقال أن هذا محضر تاريخى .

وقال لى أن كل التعليمات التى عنده أن يسمع أقوال الهضيبى وأقوالى ولايطلع أحدا على التحقيق ، وأن يرفعه الى وزير الحربية .

وعدت إلى زنزانتى وقابلت الهضيبى وقلت له أن نزع التحقيق من النائب العام وتحويله إلى النيابة العسكرية يؤكد لى أن مايقال من أن النية اتجهت إلى العودة الى العدالة والديمقراطية وسيادة القانون هو كلام فارغ . وأننى أعتقد أن المقصود من التحقيقات ليس البحث عن الحقيقة وانما امتصاص سخط الشعب ، ولن يمر وقت طويل حتى تعود الديكتاتورية كما كانت قبل الهزيمة .

وقال لى الأستاذ الهضيبى : أنا لاأنتظر خيرا من هؤلاء القوم . أننى لم أسمع أن طاغية أصبح رحيما ، وأن ظالما أصبح عادلا ، وأن الشياطين يصبحون فجأة ملائكة ! إنهم لو مضوا فى تحقيقات التعذيب فسوف يحاكمون أنفسهم وسوف يحكمون على أنفسهم .

فهل تتصور أن الضمائر التى ماتت ممكن أن تعود الى الحياة ! أنا أعتقد أن كل هذا الذى يقال عن الاتجاه الى تحسين الأحوال هو مسرحية يراد بها الهاء الشعب عن الهزيمة . فى كل بلاد الدنيا عندما تنهزم دولة يستقيل حكامها على الفور .

هذا حدث فى كل صفحات التاريخ ولكننا هنا نعتبر فقد ثلث مساحة بلدنا نكسة ، ونعتبر بقاء حكامنا المسئولين عن الهزيمة فى مناصبهم أنتصارا .

قلت : ومن الذى ينقذ البلد مما هى فيه ؟

قال الأستاذ الهضيبى : ان ماوصلنا إليه هو أسوأ مما يستطيع أى واحد منا أن ينقذه . . أن الله وحده هو الذى يستطيع أن ينقذنا مما نحن فيه .

الافراج عن عيد الأم !

ليمان طره فى ٢٦ مارس سنة ١٩٦٨ .

أخى العزيز . .

أقبلك وأشكرك على خطابك المؤرخ فى ١٨ فبراير فقد وصلنى اليوم . أى أنه قطع المسافة من لندن إلى القاهرة فى ٣٧ يوما . وهو رقم قياسى فى السرعة ويظهر أن الخطاب جاء ماشيا على قدميه ! أو أنه تلكأ فى عواصم العالم ، وأمضى فى كل مدينة جميلة يوما أو يومين حتى وصل بسلامة الله إلى ليمان طره . المهم أن الخطاب وصل . وهذا شىء يجب أن نشكر الله عليه . فالمهم أن أعيش معك فى هذه الخطابات وأنا أشعر وأنا أحتضنها أننى أحتضنك . خطاباتك تذكرنى بقطارات السكة الضيقة فى ريف بلادنا فى الزمن القديم . عندما كان سائق القطار يتوقف بالركاب فى الطريق ليشرب كأزوره ، أو يترك القطار واقفا ليزور حماته ، ثم يمر القطار على جماعة يتناولون افطارهم فيقولون له « بسم الله » فيوقف السائق القطار ، وينزل ليشارك الداعين الطعام ، ثم يوقف القطار ليشترك فى تشييع جنازة أحد المعارف ، ثم يرى فلاحة جميلة تحمل البلاص على رأسها فيهدىء سرعة القطار ويغازلها ، فاذا أبدت تفاهما أوقف القطار ولطع الركاب حتى ينتهى موعد الغرام ! وكان الفلاحون الركاب يقبلون أيديهم وجها وظهرا ويحمدون الله على وصول القطار بالسلامة فى نهاية المطاف . أما إذا كان أحد الركاب عصبيا ، وأحتج على سائق القطار لهذه « اللكاعة » فانه يوقف القطار ، ويقسم بالطلاق أنه لن يتحرك من مكانه ، وينزل الركاب ويحضرون مأذون القرية ليفتى فتوى تسمح للسائق باستئناف مسيرة القطار دون أن يقع يمين الطلاق وعلى كل فان خطابك كان يعدو بسرعة الصاروخ اذا قورن بخطاب ابنتى رتيبة المؤرخ يوم ٢٨ فبراير فوصلنى يوم ٢٦ مارس . أى أنه قطع المسافة بين الزمالك وطرة فى ٢٧ يوما ! ولابد أنه جاء راكبا سيارة أوتوبيس ، وكان ملطوعا على المحطة ، وسيارات الأتوبيس لاتتوقف له لانها كاملة العدد .

ويظهر أن أزمة المواصلات فى القاهرة أصبحت أزمة خانقة . فقد سمعت فى الاذاعة أغنية للمطرب الشعبى محمد عبد المطلب يشكو فيها من الصعوبات التى يلاقيها فى حبه وهواه ويقول : « حبيبى ساكن فى السيدة وأنا ساكن فى الحسين » ! فاذا كان المطرب محمد عبد المطلب لايستطيع أن ينتقل من الحسين الى السيدة زينب ليصل الى حبيبته فلابد أن أزمة المواصلات أزمة خطيرة فعلا : وهذا شىء يؤسف له . لانه يدل على أن العلم تقدم كثيرا عن الحب ، فبينما العلماء يحاولون الأن الوصول إلى القمر وينجحون ، فان محمد عبد المطلب يحاول أن يصل من حى الحسين إلى حى السيدة زينب ليرى حبيبته ، فلا يجد مكانا يتعلق به على سلم الأوتوبيس !

أنا متفائل من المستقبل . نحن عندما نرى الظلام حولنا لانلعن الظلام ، وانما نضىء شمعة . واذا انطفأت الشمعة اشعلنا عود ثقاب وتصورنا أنه شمعة ، واذا احترق عود ثقابنا الأخير أغمضنا عيوننا وتصورنا أن الشمس ساطعة . وهكذا لانرى الظلام أبدا . أننا إذا وقفنا على حبل المشنقة فلن نفقد الأمل . سوف نأمل بأن حبل المشنقة الذى يحيط بأعناقنا سوف ينقطع ، أو يموت الجلاد بالسكتة القلبية ، ولا أتصور أننا سنفقد تفاؤلنا عندما نسلم الروح ، سوف نأمل أن يجىء الدكتور الجراح المشهور برنارد بقلب آخر حى ، ويضعه مكان قلبنا الذى توقف ، فيعود قلبنا يدق من جديد ! وأعتقد أن تفاؤلنا العجيب يغيظ الناس العاديين الذين لايفهمون مدرسة التفاؤل التى أنت أستاذها ! أنهم عندما يرون رجلا على فراش الموت يجلسون يبحثون تفاصيل الجنازة ويعدون النعى الذى سينشر فى الصحف . أما نحن فاننا نذهب ونحجز له تذكرة فى حفلة غناء أم كلثوم ، اننا دائما حتى آخر لحظة نتصور أن الله قد يصنع المعجزة وينقذه ، ولهذا فنحن نشترى له التذكرة خشية ألا يجد له مكانا فى الحفلة الشهرية لام كلثوم ! وعندما نرى صديقا عزيزا داسته سيارة ، لانلطم خدودنا كما يفعل غيرنا فى مثل هذه الظروف . وانما نلطم وجهه بايدينا وندلك قلبه ، محاولين أن نعيد اليه الحياة !

الناس العاديون يعيشون حياتهم وهم يتصورون أنهم يشيعون جنازة . ومشيعو الجنازة يفكرون طوال سيرها فى أنه سيجىء يوم يكونون فيه داخل النعش بدل الفقيد .

أما نحن فاننا نتصور أننا نعيش فى فرح كبير ، وأنه سيجىء يوم نكون فيه فى الكوشه بجوار العروس . . والعروس هنا هى الحرية ! وفى بعض الأحوال نبدو أشبه بالمجانين ، ولكننا نجد هناء فى هذا الجنون . أننى فى الماضى عندما كنت أطل من مكتبى فى دار أخبار اليوم على خرابة ، لاأرى الخرابة البشعة وأنما أرى العمارة الشاهقة التى يمكن أن تقام مكانها . وعندما أرى هنا مسجونا سيئا احاول أن أجد فيه أشياء طيبة لاتراها العين المجردة . أن زنزانتى تطل على دورة المياه فى عنبر ٢ ، وعندما أطل من نافذتى لاأرى التواليتات وأقذارها ، وأنما أرى بضع أشجار جميلة قائمة بجوارها . وعندما أقابل مسجونا أعور ، لاأنظر الى عينه العمياء، وأنما أتطلع الى عينه الصحيحة .

ولهذا أنا لاأرى بلادى المهزومة المفلسة المقيدة بالاغلال فى الوقت الحاضر ، وأنما أرى المستقبل ، أومن أنه سيجىء يوم تنتصر فيه بلادى ، وتسدد ديونها ، وتحطم قيودها ، وتستمتع بالحرية والديموقراطية ! . . وهكذا أنا أرى فى جنازة مصر مولدها الجديد !

* * *

امضيت يوم ٢١ مارس معك . لقد عاد عيد الأم . اننى أعيش اليوم انتصارنا . لقد صدر فى العام الماضى قرار بإلغاء عيد الأم ، حتى ينسانا الناس ، وأطلقوا عليه عيد الأسرة . وإذا بخطابات الاحتجاج تنهال على رئيس الجمهورية من مئات الألوف من الأمهات فى مصر وخارج مصر . واضطر الرئيس ان يأمر باعادة احتفالات عيد الأم كما كانت . . وهكذا أنتصرت وأنا فى زنزانتى وأنت فى منفاك على قرار ظالم . وتصورت سعادتك وأنت تمسك الصحف ، وفيها أخبار الاحتفالات بعيد الأم ، الذى كان لك ولى فضل ادخاله فى بلادنا . ولقد

حدثت لخبطة نتيجة الهرولة فى تنفيذ قرار رئيس الجمهورية باعادة عيد الأم المغضوب عليه ، بعض المذيعين لم يعرفوا بأمر القرار . فتحدثوا عن عيد الأسرة ، ولكن الغالبية تحدثت عن عيد الأم . ولقد قيل للمسجونين أنه لمناسبة عيد الأم يمكنهم أن يكتبوا خطابا ثالثا فوق الخطابين المقررين كل شهر ، وأعتقد أنه سيجىء يوم تفتح فيه السجون يوم عيد الأم لدخول الأمهات لتمضية اليوم كله مع أبنائهن المسجونين ، وأعتقد أنه سيجىء يوم آخر يسمحون فيه للمسجون حسن السير والسلوك أن يخرج يوم عيد الأم من السجن يمضيه مع أمه . وكنت أتمنى أن أضع زهرة على قبر أمى . وشعرت بأسى أن يبقى قبر أمى يوم عيد الأم عاريا من الزهور . فبفضلها هى عرفنا قيمة الأم ، وجعلنا لها عيدا فى بلادنا وكل بلد عربى . أننى على كل حال أغمضت عينىَ وتذكرت أمى ، وإذا لم أستطع أن أذهب اليها ، فقد أحسست أنها جاءت الى . وأمضت معى اليوم فى الزنزانة . عشت بخيالى معها فى أحلام الصبا ، استعدت أيامنا الحلوة ، ضحكاتنا ، حنانها ، وعندما نمت شعرت بيدها ، وهى تمسك الغطاء وتغطينى . أننا أحيانا نعود أطفالا . نشعر كأن ذراع أمنا تمتد إلينا من وراء الغيب ، تساعدنا على السير فوق أشواك الحياة .

تلقيت اليوم الخطاب الذى كتبته فى لندن بمناسبة عيد ميلادك ، عشت معك تلك السهرة . شعرت كأن الشمعتين الفضيتين اللتين تلقيتهما فى عيد ميلادك تضيئان ظلامى . تفرجت معك على الراقصات الاسبانيات فى فندق سافوى . شاهدت ألاعيب الحاوى العجيب . فى بعض الأحيان نحتاج إلى حاو فى حياتنا ، حاو يحول حياتنا الفارغة إلى حياة مزدحمة كما كانت حياتنا ونحن نعمل فى « أخبار اليوم » . حاو يحول زنزانة السجن إلى فندق سافوى . حاو يحول دموعنا الى ضحكات . وكثيرا ما لانجد حواة ولا سحرة يقومون بهذه الأعاجيب ، فنجعل من أنفسنا الحواة التى تسلينا . ونجعل خيالنا يخدعنا ، ويقرأ بصوت عال ماهو مكتوب فى ورقة مطوية . أتصور أحيانا أننا نغضب على أنفسنا . اذا لم نجد من ينصب علينا ! ولكن الغريب أننى لاأشعر أبدا أننى أخدع نفسى بأيمانى العجيب بالغد ، بأحساسى العميق ان الغد فيه قوة قاهرة

سوف تسحق الحاضر بكل مافيه من عنفوان . سوف يحطم الغد السلاسل التى تقيدنى فى زنزانتى . سوف يكسر الاغلال التى تمنعنى اليوم من الحركة . سوف تجعلنى أقوى كثيرا من الذين يبطشون بى اليوم . أننى لاأعتمد على رجل معين يفتح لى أبواب السجن . أى رجل فى مصر أو خارجها أضعف من أن يحطم اقفال السجن . أنما أنا أعتمد على حركة التاريخ . أؤمن ان غدا سيكون كالاعصار يقتلع من أمامه كل مايتوهم البعض الأن أنه كالقلعة لايمكن اقتحامها ، أو كالجبل لايمكن اقتلاعه . أعصار الغد سوف يحول كثيرا من العمالقة الى أقزام . وسيجعل كثيرا من القرارات التى تبدو مقدسة اليوم خرقا بالية تسح بها الأقدام ، وسيجعل كثيرا من الشعارات والاعلام المرفوعة كفنا تلف به جثة الحاضر وهو يوارى التراب . وهكذا فأنا عندما أبيع الأمل والتفاؤل للناس ، أبيع بضاعة أعتقد أنها ستكون موجودة غدا أبيع فى الظلام أشعة الشمس لاننى واثق انها ستشرق فى الصباح . وبعض الناس يتصورون أننى أخدعهم وأنصب عليهم ، بينما أنا عندما أزرع التفاؤل فى قلوب الناس أحصد ابتسامتهم . أجنى السعادة التى أراها فى بريق عيونهم ، بعد أن زرعت فى صحراء نفوسهم بذرة تفاؤلى وأيمانى بالغد ! .

وعندما أسمعك تتحدث عن التفاؤل أتذكر أغنية شريفة فاضل التى تقول « على مين ؟ على مين ؟ ح تبيع الميه فى حارة السقايين ؟ » أو شيئا من هذا القبيل . . أنك أشبه بمن يجىء يزاحم بائعا متجولا فى شارع ، ويحاول أن يبيع نفس البضائع لنفس الزبائن . صحيح أن بضاعتك ملفوفة بورق مفضض ، وبورق سولفان ، أما أنا فإننى ألف بضاعتى بالورق الموجود الوحيد عندى فى الليمان وهو ورق جرائد أو ورق تواليت ! العجيب أننى وأنا أبيع نفس بضاعتك أقبل عليها بلذة ونهم ، وأنا أجد لذة وأنا أضع أسنانى فى تفاحة تفاؤلك وكأننى أقبلها ! .

ولهذا لاتتصور أننى لست متفائلا بشأن البلد . أنا متفائل جدا بمستقبل الحرية ، ومتشائم جدا أن الاستبداد هو الذى سيفتح لى ولغيرى أبواب

السجن ! أنتم تحلمون بشمعة تضيء فى الظلام . وأنا أحلم بشمس تشرق على البلد كله . الشمعة الواحدة قد تضيء زنزانتى ولكن ستبقى مصر كلها فى ظلام . وما فائدة أن أخرج من سجن كبير ؟ ما لذة أن تكون مساحة زنزانتى هى مساحة أرض مصر كلها ؟ وأى قيمة لحرية أنالها اذا كانت حرية بالقطارة ! إن حرية بالقطاعى معناها استبداد بالجملة . الحرية التى تعطى كمنحة يمكن استردادها . أن الحرية التى يحدثون عنها هى أن أخرج من السجن ولا أفتح فمى ! وهذه هى العبودية الكاملة ! أنا فى السجن لاأخاف من أن أدخل السجن لاننى أعيش فيه ! أنا هنا أقول كل ماأريد أن أقوله دون أن أتلفت حولى فى ذعر . . أن هذا أكثر حرية من أن أخرج من السجن وأعيش خائفا أن يعيدونى إليه ! الناس من خوف السجن فى سجن ! أنهم يريدون أن يخرج جزء من جسمى من السجن وتبقى يدى مقبوضا عليها لاأكتب . ويبقى لسانى معتقلا لا ينطق . ويبقى عقلى مجمدا لايتحرك ولا يفكر .

وهذا أشر من السجن وأقسى على نفسى من الزنزانة !

أننى أرفض حرية بالقطارة ! أرفض حرية لشخصى . أريد حرية كاملة ، حرية لبلادى وعندئذ سيصبح كل العبيد أحرارا ! .

كيف طبقوا بيان ٣٠ مارس فى الليمان

٣ أبريل سنة ١٩٦٨

أخى العزيز

كان الجو فى السجن جو تشاؤم . . توقف استدعاء المسجونين السياسيين الذين قدموا بلاغات للنائب العام ضد تعذيب صلاح نصر وشمس بدران لهم . شاع فى السجن أن أمرا صدر بوقف أرسال المسجونين السياسيين إلى النيابة للادلاء بأقوالهم فى شأن التعذيب . .

ولكن اذا لم تكن هناك نية للتحقيق فى قضايا التعذيب فلماذا حققت النيابة فى قضايا التعذيب ، ولماذا أحالت بعضهم الى الطبيب الشرعى ، ولماذا سمحت للصحف أن تتحدث عن التعذيب ؟

انى قرأت بيان ٣٠ مارس وتشاءمت ! أنه مكتوب بأسلوب هيكل . وقد ذكرنى بالقرار الذى أصدره مجلس الثورة فى سنة ١٩٥٤ بعودة الضباط الى ثكناتهم وعودة الأحزاب وحرية الصحافة . . وقد ظهر أن المقصود به أن الرئيس جمال عبد الناصر أراد أن يمتص السخط ، وبعد أيام ألغى القرار ، وبدأت الدكتاتورية تكشف عن أنيابها !

انى أتصور أن كل ماهو مكتوب فى بيان ٣٠ مارس هو وعود لن تنفذ . وبالونات منفوخة بالهواء ، وعبارات مطاطة يمكن تفسيرها بألف تفسير وتفسير ، وأذكر كلمة قالها لى جمال عبد الناصر . . « أنا لاأحب أن أحبس نفسى فى كلمات جامدة . لابد أن يكون فى الكلمات ثغرات ليكون لى دائما حرية الحركة »

. . وأنا أحسب أن بيان ٣٠ مارس يسمح للرئيس بحرية الحركة كما يشاء فالبلد يريد تغييرا ، وهو يقدم له تغييرا فى بعض الوجوه ، وتغييرا فى بعض

الشعارات ، ولكن روح الحكم واحدة . ولهذا فأنا أتوقع أن تبقى المعتقلات مع الافراج عن عدد محدود من المعتقلين السياسيين . ويبقى المسجونون السياسيون فى سجونهم مع أغلاق الزنازين ١٧ ساعة بدلا من ١٨ ساعة ، وأتوقع أن تخفف الرقابة على الصحف مؤقتا ، ثم تشتد بعد ذلك وتصبح أعنف مما كانت ! وأتصور أن الحراسة سوف تستمر مع زيادة ما يصرف للموضوعين تحت الحراسة جنيهين أو ثلاثة جنيهات ! .

هذا هو التغيير المنتظر . . سوف يكتبون على زجاجات « السم » « ماء زمزم » ويقولون لنا اشربوا ! .

أننى أتصور أن سبب تغيير وزير العدل وتعيين وزير جديد هو أن الوزير القديم سمح بالتحقيق فى قضايا التعذيب دون أن يستأذن ! .

ولقد حدث فى هذا الأسبوع أن أحيل اثنان من المسجونين السياسيين الى الطبيب الشرعى ، وإستدعى مسجون سياسى ثالث لسماع أقواله فى بلاغ تعذيب ، ثم حدث أن زار السجن مقبل شاكر رئيس نيابة حلوان فى زيارته الشهرية لتفقد السجن ، وفتح باب زنزانتى ، وسألنى اذا كان لدى أى شكوى ؟ فقلت : ماذا جرى لبلاغى الى النائب العام . أننى أرسلت بلاغا للنائب العام وليس لرئيس النيابة العسكرية ، فإذا ببلاغى يصل إلى النيابة العسكرية بدلا من النائب العام ! وأكد لى رئيس نيابة حلوان أن بلاغى وصل الى النائب العام وأنه أمر بالتحقيق فيه ولا يعرف كيف وصل الى النيابة العسكرية !

وتركنى مقبل شاكر وذهب إلى مدير السجن وسأله كيف لم يبلغنى بوصول بلاغى الى النائب العام .

وقال مدير السجن أن أمرا من الداخلية صدر بأن « يكتموا عليه » حتى تجىء الموافقة من فوق !

وطبعا لم تجىء الموافقة من فوق !

والسجن يعيش فى جو مضطرب . فقد قيل لى أن وزارة الداخلية طلبت لفت نظر الحراس إلى أنها لاحظت أنهم يعاملون المسجونين معاملة حسنة ، وأن هذه المعاملة الحسنة أسقطت هيبة الادارة ، وأنه يجب تفتيش المسجونين باستمرار حتى يعيش المسجون فى قلق ولا يفكر فى الهروب ! ان حياة المسجون فى قلق مستمر تعرضه لانهيار عصبى ، وربما إلى الجنون ، ولا أظن أن سياسة مصلحة السجون هى تحويل السجون إلى مستشفى العباسية أو السراى الصفراء !

ثم صدر أمر بهدم الرفوف الخشبية التى يضع عليها المسجون حاجاته فى الزنزانة ، وقضى الأمر بوضع كل شىء على البلاط ! ورأى أحد الضباط صورة رسمها أحد المسجونين على الجدار لابو زيد الهلالى والزير سالم فأمر بهدم الجدار وجمع كل ما فى الزنازين وحرقها أمام العنبر ، ولم يترك لكل مسجون إلا بطانيتين وبرش . ان دخول الحراس إلى زنزانة مسجون وعبثهم بما فيها ، وتحطيم كل ما فيها ، يتعس المسجون تعاسة لا حد لها . والمهم أن المسجون القادر سوف يحصل خلال أيام على كل ما تحطم ، وسوف يشتريه بسجائر ، وبعضهم سوف يحرم نفسه من القوت ، لكى يحصل على البطانية الزائدة التى سحبوها منه . وينتج عن ذلك أن تسوء تغذية السجناء ويمرضوا بالسل ، وتنفق الدولة ألوف الجنيهات على علاجهم ، ويخرجوا من السجون وهم محطمون مرضى ، تعساء حانقون ، لقد رأيت المسجونين اليوم بعد المذبحة التى حدثت لهم وكأنهم يسيرون فى جنازة كبيرة ، كل واحد فيهم هو النعش وهو المشيعون ! .

وقيل للضباط أنهم يفرجون المسجونين على التليفزيون بغير اذن وطلبوا أن يكون فتح التليفزيون بأمر المدير ، ومعنى هذا أن كثيرين من الضباط لن يجرؤوا على فتح التليفزيون ، وسيحرم المسجونون من متعتهم الوحيدة .

وجاءت تعليمات من مصلحة السجون بعدم ادخال أطعمة للسجون فى الزيارة الشهرية العادية ، وأن يدخل الطعام للمسجون مرتين كل عام ! وإذا تصورت نوع الطعام القذر الحقير الذى يقدم للمسجون ، وعرفت أن المسجون يعيش شهرا كاملا فى انتظار الزيارة العادية ليحصل على بعض الطعام الذى

يعيش عليه ثلاثين يوما ، فتصور ما أحدثته هذه الأوامر الجديدة فى نفوس هؤلاء المنبوذين المعذبين التعساء !

هذه هى طريقة تطبيق بيان ٣٠ مارس فى ليمان طره .

كان الله فى عون باقى الشعب المسكين .

انى أشعر بعذاب لا حد له ، عندما أرى حولى الأفواه الجائعة والبطون الخاوية ، والأجسام الهزيلة ، والنفوس المحطمة ، والاشباح العليلة . انى لا أجد طعما للطعام ، وفى الزنزانة التى بجوارى جائع لا يجد الطعام .

كنت قد وضعت لنفسى قاعدة هنا ألا أشكو من شىء ، ولا أعترض على شىء ولا أطالب بشىء ، وأن أعطى مثلا للمقاومة السلبية . وكنت أتصور أن المسجونين يخطئون بالشكوى ، وأنهم لو وقفوا سلبيين فسيرغمون الطغاة على تحسين معاملتهم . ولكن يظهر أننى كنت مخطئا . يظهر أن هناك من لا يسمع إلا إذا صرخت فى وجهه ، ومن لا يرى إلا إذا وضعت أصبعك فى عينيه . ان الحياة فى سجوننا تحتاج إلى ثورة . ولكن الثورة يجب أن تقتلع الظالمين خارج السجن ، فان كل أوامر الظلم تجىء من خارج السجن . اننا نعلم المسجونين كيف يكونون مجرمين وحاقدين وساخطين . اننا نحول البرىء إلى مجرم ، والمجرم العادى إلى معتاد للاجرام ، والمحكوم عليه فى جريمة ضرب إلى قاتل . ان سجوننا مدارس لتخريج كبار المجرمين . ولوائح السجون هى برامج الدراسة ، ومنفذو اللائحة هم أساتذة فن الاجرام ! انى عندما أقرأ معاملة المسجونين فى السجون الأجنبية فى البلاد الديمقراطية أذهل . الذى أخشاه أن يكون هذا ليس هو حال المسجونين فى السجون فقط ، أخشى أن يكون الرؤساء يعاملون العمال فى المصانع هكذا ، أو أن المديرين يعاملون الموظفين فى الادارات معاملة العبيد . هذه القسوة والوحشية وانعدام الانسانية لا يمكن أن تكون مقصورة على السجون وحدها . لابد أنها تمتد إلى كل مكان . ان السوط لا يختار الظهور التى يلهبها ولا الامكنة التى يضربها . أنه يصيب بلذعته كل

جزء من هذا الشعب . بعضنا يصرخ . وبعضنا لا يجرؤ على الصراخ . وغيرنا يهتف بحياة الضاربين !

الأجنبى الذى يزور بلادنا يعجب بالديكور ، لا يتصور أنها مناظر مرسومة على الورق ، تخفى حقائق بشعة . لا أحد يفكر فى أن يرى ما خلف المناظر المسرحية المصنوعة المزوقة بأزهى الألوان ، لولا أعصار هزيمة ٥ يونيو لما سقطت بعض هذه المناظر ، ولما رأى الشعب الأهوال التى خلفها .

ان الذى يزور السجن مثلا يتفرج على فرقة موسيقى تعزف أعذب الألحان ، وسوف يدهش إذا عرف الحقيقة وهى أن المسجونين لا يصرح لهم بأن يسمعوا هذه الموسيقى إلا إذا جاء زائر إلى السجن ! الزائر سوف يشهد مسرحا للعرائس ، ثم لن يصدق أن هذا المسرح لا يتفرج عليه المسجون ولا مرة واحدة فى السنة . أنه مقام ليتفرج عليه الزائرون فقط لا غير ! الزائر سوف يرى حدائق غناء ، وأحواشا واسعة ، وسوف يغمى عليه إذا اكتشف أن المسجونين محرم عليهم أن يضعوا أقدامهم فى هذه الحدائق ، أو أن يسيروا فى هذه الأحواش ! الزائر سوف يجد ممرات السجن وقد وضعوا حولها درابزين أنيقا من الحديد . . سوف يفجع عندما يعرف أن هذا الدرابزين هو سراير المسجونين ، وأنها نزعت منهم لتزين بها ممرات السجن ، بينما ألوف المسجونين ينامون على البلاط !

أنا أتصور أن هذا هو حالنا خارج السجن . اشتراكية من نوع خاص تجعل الشعب يتضور جوعا ، وحفنة من أثرياء الاشتراكية يعيشون حياة أصحاب الملايين . حرية من نوع خاص تجعل الشعب مكمما والصحافة مقيدة ومجلس الشعب ممنوعا من الكلام ، بينما الحكام وحدهم لهم حرية الكلام !

عدالة من نوع خاص تجعل المجرمين يجلسون فى مقاعد القضاة وتضع الأبرياء فى قفص الاتهام . أعياد نصر نحتفل بها ونعطل دور الحكومة والمدارس والمصانع ، بينما ثلث أرض الوطن يحتله جيش أصغر دولة فى العالم .

استقلال من نوع خاص . السفير الروسى يتدخل فى تعيين الوزراء . الخبراء

التراب والطين ، ولكنه لا يشبه أبدا الشاى ! ويحاول المسجون أن يحصل على شاى يصنعه لنفسه . وهنا الطامة الكبرى . إذا ضبطوا المسجون ومعه الشاى فهذه جريمة كبرى ، وإذا ضبطوا المسجون ومعه « التاوتاو » وهو وابور غاز اخترعه المسجونون فهذه جريمة أكبر ، ولكن المسجون لا يستغنى عن « التاوتاو » فهو لا يستطيع أن يأكل طعامه باردا ، ولا يستطيع أن يشرب الشاى دون أن يغليه . وفى كل أسبوع يهاجم الحراس الزنازين ويصادرون « التاوتاو » ويحطمونه بأقدامهم . وبعد ذلك بدقائق يحصل المسحون على « تاوتاو » جديد . والذى يدفع ثمن هذه الحماقة هو الدولة ، فان التاوتاو من الصفيح الموجود فى مخازن وورش السجن ، وهكذا تتكلف الدولة آلاف الجنيهات كل شهر ، لأن اللوائح الغبية تمنع وجود تاوتاو ، ولأن المفروض أن المسجون يجب أن يأكل طعامه باردا ويشرب اللبن وكأنه الدندرمة !

حضر إلى عنبرنا فى ليمان طره مسجون سياسى جديد انه الدكتور محمد حلمى عفيفى الطبيب بالاسكندرية . وهو محكوم عليه بالسجن عشر سنوات . وتهمته الاشتراك مع ضباط فى مؤامرة لقلب نظام الحكم .

وسألته كيف قلب نظام الحكم ؟

فقال ان كل ما حدث أنه انتقد قيادة الجيش الموضوعة فى السجن الآن !

قال أحد الزملاء : لابد أن يفرجوا عنك الآن بعد أن أصبحوا يقولون عنهم الآن ما كنت تقوله عنهم بالامس !

قلت ضاحكا : من حق الحكام فقط أن ينتقدوا بعضهم . . أما نحن الرعايا فليس من حقنا أن ننتقد أحدا ! ولهذا فأنا لا أعتقد أنهم سيفرجون عن الدكتور حلمى عفيفى ، لان معنى الافراج عنه أن حكامنا أخطأوا فى سجنه ، وحكامنا ـ لا سمح الله ـ لا يخطئون أبدا. ولا يغلطون أبدا !

وروى لى الدكتور حلمى عفيفى أنهم أرغموه فى السجن الحربى على أن

يأكل لحم قدمه الذى نهشوه بالسياط ! وخلع حذاءه فرأيت آثار التعذيب البشع .

وقال الدكتور حلمى أن المعاملة فى السجن الحربى أصبحت معقولة بعد طرد حمزة البسيونى مدير السجن السابق وسجنه ، وأن باب الزنزانة يبقى مفتوحا حتى الساعة الحادية عشرة مساء ، بينما باب الزنزانة عندنا فى ليمان طره يغلق فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وذكر أنه يسمح للمسجونين بالاحتفاظ بنقود معهم ، ويحضر كل يوم جندى ويسأل المسجون عما يطلبه من مأكولات ويشتريه له من السوق ، وكل مسجون يحتفظ فى زنزانته براديو ترانزستور وسخان كهربائى ، هذا شىء محرم عندنا فى الليمان . والمسجون فى السجن الحربى يزوره الآن أهله مرة فى الاسبوع أو مرتين ، والزيارة تستمر حوالى الساعتين .

وكان قد قيل لنا فى تبرير المعاملة القاسية التى يلقاها المسجونون السياسيون فى ليمان طره أن وزير الداخلية مهتم باساءة معاملتنا اهتماما خاصا وأنه يقول دائما لمساعديه « المسجون السياسى هو أخطر مجرم فى الدولة ويجب معاملته بكل شدة وقسوة وحزم » .

وقد حدث أن شكا المسجونون السياسيون فى الطابق الذى أنا فيه والذى يسمونه « ملحق مستشفى السجن » ـ شكوا من أن أبواب الزنزانة تغلق عليهم ٢٠ ساعة كل يوم . وهذا شىء لا مثيل له فى أى مستشفى فى العالم حتى مستشفى الأمراض العقلية .

وقال لى مقبل شاكر رئيس النيابة أنه أبلغ شكواهم إلى النائب العام ، وأن النائب العام اتصل بمدير مصلحة السجون فقال له المدير أن هذه أوامر الوزير شخصيا !

وقال النائب العام أنه سيتصل بشعراوى جمعة وزير الداخلية فى هذا الشأن . .

وطبعا رفض شعراوى جمعة أن يلغى قراره أو يعدله ، لأنه يتصور أنه سيبقى طول حياته وزيرا للداخلية يأمر وينهى ، ويستبد بالناس كما يهوى ويريد !

ولكنه لا يعرف أن الدنيا تدور . وانها أشبه بصينية لونابارك تقف فوقها اليوم ، وتطيح بك غدا !

وهكذا ينفذون بيان ٣٠ مارس فى ليمان طره .

السبق الصحفي الأخير !

٣٠ أبريل سنة ١٩٦٨

أخي العزيز

عندما يصلك هذا الخطاب يكون قد مضى على فراقنا ثلاث سنوات كاملة ! نحن الذين كنا لا نفترق أبدا . وإذا افترقنا كنا على لقاء مستمر بالتليفونات والبرقيات والرسائل . انني لا أعرف كيف استطعنا أن نحتمل هذا الفراق الطويل ! كيف استطعنا أن نعيش مع هذا العذاب القاتل . ان الله أعطانا من الصبر ومن الاحتمال ومن الصمود ، ما جعلنا نستقبل هذه المحنة بايمان عجيب . انني مازلت أذكر يوم ودعتك آخر مرة فى ٢١ مايو سنة ١٩٦٥ . عندما أدرت ظهرك فى طريقك الى لطائرة . أحسست كأن الدنيا كلها أدارت ظهرها لى . كان حولى عشرات من أصدقائنا وزملائنا ، ولكننى أحسست فى تلك اللحظة أننى وحدى فى الحياة . كأن سكينا قطعت ما بينى وبين الغد ، كأن جدارا ثقيلا سقط وفرق بينى وبين الهواء والنور كأن عصا سحرية شقت الأرض وأقامت بينى وبينك بحرا واسعاً ، فأصبحت أنا فى عالم وأنت فى عالم آخر . يومها ذهلت لما أصابنى . لقد كان الاتفاق بيننا أننا سنلتقى بعد أسابيع . لقد حرصت أنت على أن تطلب الحضور إلى القاهرة عدة مرات فى كل عام حتى لا يطول فراقنا . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى نفترق فيها .

اننا سافرنا مئات المرات . ولكن هذه كانت المرة الأولى التى أحسست فيها بهذا الشعور العجيب . كأننى كنت أقرأ الغيب . كان الاحساس العجيب الذى يجمع التوأمين جعلنى أشعر بأن هذا الفراق سيكون مختلفا عن أى فراق آخر . وعندما كتبت وصفا لسفرك ، كان الذين يقرأون هذا الوصف يبكون . كانوا يقولون أنه أحسن ما كتبت فى حياتى . حتى الآن لا يزال الناس يذكرون الكلمة التى كتبتها فى وداعك ، ويحفظون بعض كلماتها ، يرددون أغلب عباراتها ،

كأنها أغنية فى وصف فراق حبيب ، كأنها قصيدة شاعر يرثى فيها نفسه . اننى بعد هذه السنوات الثلاث أتصور اننى قمت بآخر سبق صحفى لى ، كأننى رثيت نفسي قبل أن أموت ، كتبت وصف جنازتى قبل أن أدخل النعش . كنت فى أوقات كثيرة ، وأنا جالس فى مكتبى ، أشعر برغبة فى أن أقوم بسبق صحفى . أن أعد وصف موتى قبل أن أموت . أن أكتب عناوين الخبر . حتى أوفر على المحررين مهمة البحث فى عنوان ، أن أكتب كلمة تلقى فى حفلة التأبين ، فأكون أول ميت يتحدث إلى الناس من قبره . وكثيرا من هذه الأوراق مزقتها ، وبقى بعضها فى مكتبى ، ولكننى عندما كتبت الكلمة التى وصفت بها فراقنا كنت أشعر فعلا أننى وأنت سنفترق ، سنفترق لمدة طويلة جدا .

ان خطاباتك تخفف كثيرا عذاب الفراق . انها تسعدنى . لو كان الأمر بيدى لقرأتها كل يوم وكل ساعة ، ولكن التعليمات تقضى بأن أعيدها بعد قراءتها . ولهذا عندما أكتب اليك لا أستطيع أن أرد عليها خطابا خطابا ، لانها لا تكون معى عندما أبدأ فى الكتابة اليك . ولكنى أفرح بالخطاب عندما يطول ، وأحزن عندما ينتهى ، فاننى أتمنى لو كان الخطاب مكونا من ألف صفحة ، فاننى أجد لذة فى أن أعيش معك كل دقيقة من حياتك ، أن أجلس مع أصدقائك ، أن أقرأ فى كل كتاب تقرأ فيه ، أن أشهد معك برامج التليفزيون ومباريات الكرة . واننى أشعر كأن هذه الخطابات هى شريط وهمى يصلنى بك . وعندما تتأخر الخطابات أتصور أننا نتحدث بغير كلام ونتخاطب بغير صوت . ان بين قلبى وقلبك خطا تليفونيا مستمرا ، يبقى مفتوحا طول الليل والنهار . لا تحسب فيه المحادثات بالدقائق ، وانما الأحاديث متصلة دائما . أكاد أسمع فيها نبضات قلبك ، وخلجات نفسك ، وأكاد أقرأ الأفكار التى فى رأسك . وأكذب عليك إذا قلت لك أن هذه الاتصالات الروحية تسعدنى . انها تعذبنى لاننى أحس منها بعذابك ولوعتك وشقائك . لقد كان من أحلامى أن أدفن معك فى قبر واحد . كنت لا أريد أن أنفصل عنك حتى الموت . ولكن القدر شاء أن يفصلنا فى الحياة ، نحن الذين كنا نأبى أن يفصلنا الموت ، ان عملية تقسيمنا كانت أشبه بتقسيم الذرة . فان الانفجار حطم حياتى وحطم حياتك ، وحطم أحلامنا التى

كانت الدنيا لا تسعها . أنه أشبه بعملية فصل التوأمين السياسيين اللذين ما كاد يفصلهما مشرط جراح حتى مات الاثنان معاً .

وفى بعض الأوقات أشعر أننى مت ، وأنه لم يبق منا الا الأرواح ، وأن أرواحنا هى التى تتخاطب وتتناجى ، فان فراقنا جعل كل واحد منا حائرا ، تائها ، محطما . أنها تجربة لم يتعرض لها توأمان من قبلنا . أن يموتا وهما على قيد الحياة . أن يدفنا ولاتزال أنفاسهما تتردد . والذى نفعله الأن أشبه بعملية استحضار الأرواح . نستخرج من الغيب أشباحا ، ونتصور أننا نسمع أصواتا ، ونفهم كلماتها !

أننى عندما أكتب إليك أشعر كأننى أكتب الى كل انسان أحبه . أكتب من الأخرة الى الدنيا ، من العدم الى الحياة ، من الظلام إلى النور . ولست أظن أن أهل الدنيا يستطيبون حديث الأخرة ، عالمنا في السجن هو عالم تحت الأرض ، جمود وخمود . جثث من الأحلام ، وجماجم من الأمانى ، وعظام داس عليها الزمن . نحن لانرى الاشجار فوق الأرض ، والنسيم يهز الأشجار وكأنها تغنى . بل نحن نرى جذورها وهى تغوص تحت الأرض وكأنها تدفن أو تبكى . أن رسائل المحبين تصبح زهورا توضع على القبور ، وعندما يموت الانسان يزين قبره كله بالورود ، ثم تنقص أعداد الورود والزهور مع الأيام ، وتتضاءل حتى تصبح زهرة واحدة ، ثم تجف الزهرة الواحدة ، فيبقى القبر عاريا ! ألا تذكر عندما كانت تذهب أمى الى مدافننا ، فترى عدة قبور عارية نسيها الاحياء ، فتضع بيدها وردة على كل قبر منسى . ان المسجونين مثل هذه القبور . اننى أرى لهفتهم وخيبة آمالهم وشحوبهم عندما يجىء من يحمل البريد ، فيوزع خمسة خطابات أو ستة على مائة مسجون . أننى أراهم أشبه بهذه القبور العارية فى مدفن أسرتنا بالامام الشافعى ! كم تمنيت فى تلك اللحظات أن أكتب إلى كل مسجون محروم خطابا ، أن أختلق له حبيبة ، اذا لم تكن له حبيبة تحبه ، أن أصنع له من الوهم صديقا اذا كان فقد كل أصدقائه وخلانه ، أن أخترع له أسرة إذا كانت أسرته تنكرت له ، ولكن لاأستطيع أن أفعل ذلك ، لانه مصرح

لى أن أكتب خطابين اثنين كل شهر ، أننى أشعر بعذاب الأخرين . كان دموعهم تسقط على وجْهى . كان نارهم تحرقنى . كان آلامهم تشقينى . أننى أضيع فى ضياعهم ، وأجوع فى حرمانهم ، وأموت بين قبور أحلامهم ، كم أتمنى أن يكون في قلبى نيل من الحب ، حتى أستطيع أن أروى به كل العطاش . كم أتمنى أن يكون لدى أضعاف ماعندى من الصبر . لاوزعه على اليائسين القانطين . كم أتمنى أن أقتسم أحلامى مع الذين ينامون في كابوس ويستيقظون فى كابوس ، لايرون فى بسمة الغد الا قهقهة ساخرة بهم وبأحلامهم ! كل هؤلاء العرايا في حاجة لأن نغطيهم ببطانية من الامل . كل هؤلاء التائهين فى حاجة إلى ايمان بالغد ينقذهم من حيرتهم . كل هذه الاشباح المحطمة فى حاجة الى الحب ، يحيى مواتهم ، ويضىء ظلامهم ، ويفتح طريق الرجاء أمام عيونهم .

ان ايمانى بالله يجعلنى أطير فى الخيال ولا أهوى إلى الحقيقة . أننى لاأسأم الخيال مهما بدا وهما . كانت على حياتنا أوهام ، فحولناها الى حقائق . ولم نيأس أبدا من رحمة الله إذا تخلت عنا الدنيا عدونا وراءها . اذا لم تعد الينا . اذا تنكر لنا الحظ لم نغضب عليه ونلعنه . وانما لحقنا به وقدمنا أنفسنا إليه . اذا أساء صديق لنا لانحاسبه حساب الملكين ، بل نخلق له الاعذار والمبررات ونحاول أن نلوم أنفسنا على الاساءة التى أصابتنا . أن هذا الايمان هو الذى أبقى الربيع حيا فى خريفنا ، هو الذى ملأ حياتنا بالخير والحب والجمال . . وكل ماأرجوه من الله أن يبقى لنا هذا الايمان الى آخر يوم من أيام عمرنا .

انى أشكرك كثيرا على نصائحك بشأن العناية بصحتى . ولكنى متضايق لان وزنى زاد ، برغم أن الأطباء يرون تخفيض هذا الوزن ، بسبب مرض السكر ، وأننى أفكر في أن أزاول أى رياضة ، حتى يعود وزنى الى ماكان عليه ، وقد كنت سعيدا جدا بنقص وزنى ، وذلك تطبيقا لمبدأ ضرورة الاستفادة من الكوارث ، ولكن حتى هذه الفائدة لم أستطع أن أحافظ عليها . أن سبب زيادة وزنى هو عدم الحركة . أننى أسير ساعات طويلة على قدمى فى داخل الزنزانة ، أو أمام الممشى ، ولكن يبدو أن هذه الرياضة ليست كافية .

وفى الختام أقبلك ، وأقول لك كل ثلاث سنوات وأنت طيب . .
والى اللقاء . .

خطابات المسجونين

١٠ مايو سنة ١٩٦٨

عزيزتى

السجين يفرح بكل خطاب يتلقاه . أرقب وجه الواحد منهم عندما يتلقى خطابا وقبل أن يفتحه تتغير قسمات وجهه من الحزن الى الهناء . وترتعش يداه وهو يفض الرسالة . وتلمع عيناه وهو يقرأها . أعجب أن بضع كلمات وبضعة سطور تصنع في روح المسجون كل هذا التغيير . . الكلمة البسيطة تتحول فى أذن المسجون الى أغنية . النثر يصبح شعرا . . العبارات تنقلب إلى موسيقى وألحان . الورقة تتحـول إلى امرأة ترقص وتمرح ، تضحك وتبكى ، تعود به الى بيته وتجمعه بأولاده . الورقة الصغيرة تكبر بين أصابع المسجون كأنها كتاب كثير الصفحات . السطر الواحد يصبح صفحة . اللفظ العادى يجد فيه المسجون بلاغة لايحس بها الذين لم يعرفوا السجن ولم يذوقوه . المسجون فى وحدته يضرب بسياط غير منظورة . لانراها وانما نحس بآلامها وهى تلهب أرواحنا . وتجىء هذه الخطابات لتمسح الجروح ، وكأن القدر الذى بيده هذا الكرباج يتوقف عن ضرباته والمسجون يقرأ خطاباته . المسجون فى وحدته أشبه بالمقعد المربوط فى مقاعد المعوقين . وتجىء هذه الخطابات وتفك إساره ، وتوقفه على قدميه ، وتروى روحه الذابلة بماء سحرى فتعيد اليها الحياة والجمال بضعة أيام . . ثم ينضب الماء السحرى بعد أيام وتعود القيود والذبول . . أغانى الهجر وشعر البعاد والفراق يصبح لها فى أذن المسجون معان غير التى كانت لها وهو يعيش فى جنة الحرية . تماما كمنظر رغيف العيش . أنه يعنى فى نظر الجائع شيئا مختلفا عما يعنى فى نظر الشبعان .

وأنا أجد راحة فى كتابة الرسائل وتهريبها خارج السجن . الرسالة التى أكتبها تفك بعض سلاسلى وقيودى . تحول الأهة الخرساء الى صرخة مسموعة أحسب أن أفواهنا المستغيثة لايسمع أحد صوتها الا اذا كتبناها . أفكارنا المشلولة لاتتحرك الا على الورق . . انا عندما أكتب الى أصدقائى أشعر أننى أزرع أحلاما يحصدونها بخيالهم . أننى أتنفس فيهم . عندما لاأكتب أحس أننى مكتوم الانفاس . . أختنق وأموت !

أقسى الآلام هى التى نكبتها ولانطلقها . فأناأحس في كل رسالة أنني أقول « آه » . أحيانا أحاول أن أكتم الأهة في نفسي حتى لاأزعج من يحبونني وأحيانا أجد الالم قاسيا مبرحا فلا أستطيع إلا أن أقول آه ! وأنا عندما أتلفت حولى وأرى المسجونين المقيدين فى الاغلال . أرى على شفاههم المحرومة أشلاء من قبلات مضت عليها سنوات طويلة لم تتكرر . . فبعد سنوات تتباعد القبلات وتقل الزيارات حتى تنعدم . أرى فى قسمات وجوههم جثثا من الأمانى . الامانى الحلوة تموت فى الزنزانة ، فالأمانى كالزهور فى حاجة الى شمس وماء وهواء لتتفتح . وفى الزنزانة لاتدخل الشمس ولا يدخل الهواء ولا يوجد الا ماء البول ! أرى فى المسجونين حولى أشلاء سعادات . ضحايا . ضائعين . تائهين . مكبلين بالوحدة والقهر والذل والهوان . وأمسك قلمى وأكتب فأحس أننى وجدت نفسى . فأنا لاأكتب لاسعد الناس وأنما لاسعد نفسى . فالكتابة عندى هى نوع من الانانية . فى بعض الأحيان أحس أننى متعب فأمسك قلمى لأكتب فأستريح ، كأننى أضع رأسى على وسادة الأوهام .

زنزانتى لها نافذة صغيرة . والخطابات التى تصلنى من أصدقائى وأحبائى هى نوافذ جديدة . كلما كبر حجم الخطاب زادت مساحة الشباك . كلما زاد عدد الخطابات ازداد عدد النوافذ التى أطل منها على الدنيا . عندما أتسلم رسالة لاأشعر أننى كسيح . أحس أننى أنطلق . كل خطاب يصلنى فى السجن هو أشبه بزيارة لمسجون لايزوره أحد . . زائر يبقى معه بالليل والنهار . .

فى بعض الأحيان أحس أننى لست المسجون الوحيد فى زنزانتى ، عواطفى

مسجونة فى روحى . دموعى مسجونة فى عيونى . أفكارى مسجونة فى رأسى ، أحلامى مسجونة فى قيودى . وعندما يصلنى خطاب من الذين أحبهم أحس كأن مفتاح باب الزنزانة يطلق سراح كل هؤلاء المسجونين ! .

أرى المسجونين وهم يتلهفون على الاستفسار عن خطاباتهم ، كأنهم غرقى يبحثون عن قشة يتعلقون بها . هذه الخطابات هى ضمادات يوقفون بها نزيف الدم من قلوبهم . هى النسمات تتسرب إلى أرواحهم المخنوقة . هى شمس ربيع جميل تشرق فوق خريفهم المظلم . .

أحيانا اقرأ خطاباتهم الساذجة . . تحوى مئات الأسماء . فيها جملة واحدة « فلان يسلم عليك ألف مليون سلام ، وفلانة تسلم عليك ألف مليون سلام » . لاشيء سوى هذا . ومع هذا يبدو على المسجون الامى وهو يسمع زميله يقرأ له خطابه كأنه تلقى فعلا آلاف الملايين من السلامات ! .

فى الخارج توجد تقاليد جميلة . هناك جمعيات لرعاية المسجونين تبحث عن كل مسجون لايكتب له أحد . تبحث عن أشخاص يراسلونه ، ويزورونه ، ويقدمون له الهدايا ، ويشعرونه أنه محل رعاية وأهتمام . آلام الوحدة والنسيان والاهمال أشد وأقسى من آلام السرطان . .

أننا فى السجن لانكتب دائما بأقلامنا . أحيانا نكتب بدمائنا وأعصابنا . قد لاتكون كتاباتنا صرير أقلام ، وأنما صوت السلاسل فى أيدينا وأرجلنا وأرواحنا . أحيانا نغضب على الذين نحبهم لأنهم لم يكتبوا لنا ، ونقسو عليهم فى غضبنا فليعذرونا فان كتاباتنا ليست بأقلام الحبر فى أيدينا ولكن بأفواه البنادق التى تحرسنا ، نحن ننسى فى وحدتنا وفى سجننا أن الزنزانات التى نحن فيها أوسع كثيرا من الزنزانات التى سجنوا أنفسهم فيها . اذا كنا نشكو فراشنا لأنه ليس وثيرا فهم لايشكون مع أنهم ينامون كل ليلة على مسامير من الوحدة والحرمان واليأس والشقاء . أنهم وهم يكتبون لنا بدموعهم يحاولون أن يبحثوا عن كلمات مفرحة راقصة يخفون بها هذه الدموع . الزهور التى يحملونها إلينافى

رسائلهم لنزين بها زنزاناتنا هى باقات زهور كانت موضوعة فوق قبور أحلامهم ، وغسلوا منها رائحة الموت لتحمل لنا عبير الحياة . كم رأيت أم مسجون تحرم نفسها من ضروريات للحياة لتجيء له بالسجائر ليدخنها . نحن لانشعر بكل تضحيات الذين يحبوننا لاننا مسجونون فى أقفاص أنانيتنا . أنا عندما أقرأ خطابات أهالى المسجونين السياسيين الى أولادهم أحس أننى أسمع صوت بحة حزينة مخنوقة بالعبرات في أنغام كلمات راقصة أسمع أنينا أخرس فى ضوضاء ضحكات مغتصبة . أراهم يتحدثون عن الصبر والتجلد والشجاعة وقوة الاحتمال ، وأرى بين الكلمات قلوبا مكسورة ، وهم يرون بصيص الأمل الذى صنعته أوهامهم يخبو ويموت ويتحول إلى رماد . . أننى عندما أقرأ كلمات هذه الرسائل لاأقرأ حروفها ، بل أحاول أن أنفذ إلى أعماقها . فأرى فيها أشباح اليأس الأسود والعذاب والقهر وهى تطل من عباراتهم الوردية . ابتساماتهم مخضبة بدموعهم . أحلامهم تمشى متعثرة فى سلاسل الحديد . خيالهم الواسع يصطدم بقفص الحقيقة الضيق فيختنق فيه . مهما يحاولوا أن يخفوا أحزانهم فان أنينهم يظهر بين الحروف ! أنا لست أعرف ماهى الحكمة فى أن تفتك الحكومة بأسرة المسجون السياسى وتطاردها . ترفت وتنقل وتحيل إلى المعاش ! انها تخلق فى البلد طبقة منبوذين ، وهى لاتعلم أن هذا الاضطهاد المستمر لابد أن يؤدى الى الانفجار !

أننى مدين بتحمل شظف الحياة ، فى السجن وقسوتها الى أمى ! لقد عودتنى أمى أن أرضى بكل أنواع الحياة ، وأعود نفسى على قبولها . ومن أجل هذا نمت في أعظم القصور وفي أفخر فنادق العالم ثم نمت على الاسفلت ولم أشعر بهوان الانتقال من الفراش الوثير الى الاسفلت . وعرفت الملوك والرؤساء والحكام ، وعرفت اللص والنشال وقاطع الطريق ، واختلط على الأمر حينا فلم أعرف أيهم هو قاطع الطريق ! وتناولت طعامى فى أعظم مطاعم العالم ثم أكلت فى السجن الفول المدمس المخلوط بالسوس والتراب ، وأسعدنى طبق الفول كما أسعدنى طبق « الفيزان » فى مطعم مكسيم بباريس !

أصبحت الأن فقط أفهم لماذا كانت أمى تصر على أن أكل كل طعام تقدمه لى . ترفض أن أقول لها أننى أحب هذا الصنف ولا أحب هذا الصنف . لقد جعلتنى أحب الفول المدمس وأفضله ألف مرة على الديك الرومى . .

لعلها كانت تقرأ الغيب . .

أحذية الطغاة فوق أعناقنا !

أول يونيو سنة ١٩٦٨

عزيزتى . .

لاأريد أن أثقل عليكم بالطلبات . أنا أعرف أن الحالة المالية ليست على مايرام ، لهذا أرجوك ألا ترسلى أى شيء الا بعد أن تتحسن الحالة المالية تماما . أننى آسف اذ أضعكم فى مثل هذه الازمات والمآزق . وأحب أن تصارحونى بكل شيء . ولا تتحملوا المتاعب وحدكم . أنا أستطيع أن أدبر نفسى هنا . وأن أرتب حياتى على أى صورة . الشيء الذى يهمنى وألح فيه ألا تربكوا أنفسكم أكثر مما أرتبكت حتى الأن . يظهر أن أحدا لايتصور المتاعب التى يعيش فيها المسجون السياسى ، ولا المصاريف التى يضطر المسجون إلى انفاقها . وقد رأيت أن أبدأ بالتوفير وأقتصد فى عدد السجائر التى أدخنها بل أقتصد فى كل شيء حتى تمر الأزمة . وبعد أن تنتهى الأزمة يعود كل شيء كما كان .

أحمد الله أن الناس فى داخل السجن يخدموننى لله . لو كانوا يعاملوننى كأى مسجون آخر لكانت مصيبة المصائب ! قطعة الثلج التى ثمنها قرشان فى الشارع تباع فى داخل السجن بخمسين قرشا وأحيانا يصل ثمنها الى جنيه فى اليوم الواحد ! كل مرة يدخل الطعام الى مسجون في السجن يكلفه ذلك بين الخمسين قرشا والجنيه ! كل باب يقف عليه جمرك ، ولكى يمر الطعام على هذه الأبواب العديدة يجب أن يدفع المسجون علبة سجائر بلمونت على كل باب ، الذى يحمل الطعام يأخذ علبة سجائر ، والشاويش الذى يجيء مع الطعام يأخذ علبة سجائر ، والشاويش الذى يفتح بوابة العنبر يأخذ علبة سجائر ، والشاويش الذى يفتح الزنزانة ليدخل الطعام يأخذ علبة سجائر !

والقهوة ممنوعة . الرجل الذى يصنع لك القهوة يأخذ علبة سجائر ، لأنه لو ضبط يصنع لك القهوة يوضع فى التأديب ، وتمنع عنه الشمس والهواء لمدة ستة أيام . والذى يسخن لك الطعام يأخذ علبة سجائر ، لأن الولعة جريمة ، يعاقب عليها ، فهو يأخذ هذا المبلغ الكبير تعويضا له عن الخطر الذى يتعرض له بتسخين الطعام . وفى كل يوم يهاجم الحراس الزنزانات ويستولون على مالدى المسجونين من غاز أو آلات لتسخين الطعام . ويلقون الغاز على الأرض ، ويدوسون « التاوتاو » بأقدامهم !

وفى كل يوم يبدلون ويغيرون غرف المسجونين . وعندما يضطر المسجون الى الانتقال الى زنزانة جديدة ، عليه أن يدفع عدة علب سجائر ليدهن بياض الجدران وينظف الزنزانة من الحشرات ، ويدفع علب سجائر أخرى ليركب النور الكهربائى . ويدفع علب سجائر ليدق الرفوف على جدران الزنزانة ! وتتكرر عمليات التغيير والتبديل والنقل فى الزنزانات ، لايكاد يستقر المسجون فى زنزانة حتى يصدر اليه أمر بالانتقال الى زنزانة أخرى ، فاذا أراد أن يحتفظ بزنزانته يجب أن يدفع سجائر ليستقر فى هذه الزنزانة القديمة . ويجب أن يدفع المسجون علبتى سجائر للكهربائى شهريا ، فاذا لم يدفع الجزية ، قطع الكهربائى السلك ، فانقطع النور ، وبات المسجون فى ظلام . . والكهربائى يجد دائما سببا فنيا لانقطاع النور ، لاتستطيع أن تكتشفه أكبر لجنة فنية كهربائية متخصصة فى استخراج الكهرباء من السد العالى ! .

والويل للمسجون الذى لايدفع أتاوة المسجون الذى يوزع الطعام . عدد السجائر التى يعطيها هى التى تفرق بين قطعة اللحم وقطعة العظم ! المسجون الذى لايملك سجائر يموت جوعا ، ويصاب بالسل من قلة الطعام . ولايستطيع المسجون أن يشكو من وزير التموين المكلف بتوزيع الطعام . فهذا المسجون هو مندوب أركان حرب الليمان ، وهو المكلف بأن يجىء له بأخبار المسجونين وأسرارهم . . ومن أجل ذلك الهدف الاسمى يباح له أن يجعل المسجونين يموتون جوعا ، فى سبيل أن يعرف حضرة الضابط كل كلمة هايفة

تحدث فى العنبر ! واذا غضب وزير التموين على مسجون حرمه من الطعام ، ثم أبلغ الضابط أنه يرتكب مخالفات ، ويعاقب المسجون البرىء . ومن هنا يشترى المسجون نفسه بأن يدفع أتاوات يومية للمسجون الذى يوزع الطعام ، أو يسكت عن السرقة اليومية ، والمغالطة فى توزيع الطعام . . وهكذا يكون نصيب المسجون من الطعام نصيب اليتيم من مأدبة اللئام ! .

ويجىء الطعام في جرادل . ويستعملون هذه الجرادل أحيانا للبول ولايهمهم اذا وضعوا الطعام فى جردل البول . ويصنعون الفول المدمس بالزيت . ومايكاد يصل جردل الفول المدمس الى العنبر حتى يجىء وزير تموين العنبر ، ويفرغ من الجردل كل مافيه من زيت ، ويبيع الزيت للمسجونين القادرين . ويوزع على باقى المسجونين المساكين التعساء الفول بغير زيت !

وينام المرضى على سراير ، فاذا لم يدفع المسجون المريض علبة سجائر لرئيس الممرضين أو للممرض وجد نفسه نائما على الأرض ، ويجد الممرض دائما فتوى فنية قانونية طبية تقتضى سحب السرير من المسجون المريض الذى لم يدفع علبة السجائر .

ومن المناظر العجيبة مايحدث عندما يموت أحد المسجونين فى السجن . لايكاد يلفظ النفس الأخير ، حتى يستخرج الممرض تذكرة علاجه ، ويضيف اليها عشرات الادوية الغالية ، من كلور مايسين وبنسلين وفيتامينات ، وكلها موزعة ومقسمة بعناية على الأيام التى كان المسجون فيها مريضا . ويبلغ مجموعها عادة حوالى ثلثمائة جنيه . . فلا تكاد تطلع على تذكرة علاج المسجون المتوفى حتى تبدى أعجابك بالاهتمام الشديد بالمسجونين المرضى ، فى حين أن الذى حدث فى الحقيقة هو أن أحدا لم يصرف للمسجون دواء واحدا بمليم واحد وهو على قيد الحياة ، وعندما مات قيدوا على حسابه جميع الأدوية الغالية التى سرقها المرضون ، وبذلك يقيم المرضون فرحا بدل المأتم للمسجون الفقيد ، فان وفاته السعيدة سوف تؤدى الى أن تصبح جميع دفاتر السجن سليمة ، والعهدة كاملة ، ولائحة المخازن منفذة حرفيا ! .

وحدث فى هذا الاسبوع أن تأخر بعض المرضى الذين ينامون على سراير فى عنبر واحد الذى أقيم فيه عن دفع الجزية ، وصدر قرار بأخراجهم جميعا من المستشفى ، وأسرع خمسة منهم ودفعوا الجزية فأعيدت لهم السراير فى الحال ، وفى اليوم التالى بدأت المفاوضات مع عدد آخر من الذين ذاقوا النوم على الأرض ، فدفعوا الجزية ، فتقرر أن يناموا على سراير من جديد .

ولايستطيع الأطباء أن يفعلوا شيئا ليواجهوا على بابا والأربعين حرامى . الممرض الشاطر يربح أكثر من الجراح الممتاز . وهو أشبه بمأذون القرية الذى يستطيع بسهولة ، أن يحلل الحرام ويحرم الحلال ، ويجد من النصوص البلهاء والقواعد والسوابق مايبرر علبة السجائر التى أخذها ، أو يعاقب من أمتنعوا عن دفع الجزية ! .

وبعض الشاويشية يقاسمون المسجون فى كل شىء . بعض فقراء المسجونين يحملون جرادل بول المساجين وبرازهم من الزنزانات ، ويتقاضون سجائر فى مقابل هذا العمل الشاق الذى يستدعى أن يصعدوا مئات الدرجات خلال أربعة أدوار . وينزلوا أربعة أدوار عدة مرات فى اليوم . وكان المفروض أن يستفيد هذا المسجون المسحوق من السجائر التى يحصل عليها ليشترى ما يحتاجه من طعام . ولكن الشاويش الشاطر يقاسم هذا المسجون البائس فى السجائر القليلة التى يحصل عليها . فإذا لم يدفع الجزية ، حرمه من شرف خدمة الأدوار ، وتركه فى زنزانته يتضور جوعا . وكلما اشتد الغلاء فى الخارج زاد بؤس المسجونين فى الداخل . فالشاويش يتقاضى عادة فرق زيادة الأسعار ، فاذا ارتفع سعر السكر ثلاثة قروش يجب أن يدفع المسجون الجزية ثلاثة قروش حتى يوازن السجان ميزانيته ! .

أعتقد أن الصورة الصغيرة التى نراها فى السجن هى مصغر الصورة الكبيرة لخارج السجن . نفس الفساد . نفس الظلم . نفس الاستغلال . نفس الفراعنة الصغار الذين يمتصون دم المسحوقين والضعفاء ويدوسون عليهم بأقدامهم .

الطغيان الكبير هو أشبه بمصنع للأحذية يصنع أحذية صغيرة تدوس على رقاب الضعفاء !

عصفور فوق نافذتى

٥ يونيو سنة ١٩٦٨

أخى العزيز

رأيت عصفورا يبكى على نافذة زنزانتى . أنها أول مرة تبدو زقزقة العصافير كأنها دموع وبكاء . ترى هل أصبحت نافذة زنزانتى حائط مبكى جديدا للطيور تهرع اليه لتندب وتبكى وتصرخ وتصيح . ألم يكفنى أن زنزانتى غرقى فى دموع البائسين . تكاد تحترق من أشواقهم . تمتلىء بأحزانهم وأناتهم . كل المسجونين يجيئون الى زنزانتى ليبكوا فيها ، ليحملوا الى متاعبهم وآهاتهم وعذاباتهم كأنى أصبحت مخزنا لآلامهم . يفرغون عندى مافى قلوبهم من مآس . وما فى عيونهم من دموع . وما فى رؤوسهم من مصائب . يتركوننى مع كل هذه العذابات وينصرفون كأننى مكلف أن أحمل على ظهرى آلام البشر . كانه لايكفينى بلائى وعذابى وشقائى . وتعودت الا أقفل قلبى أمام باك ، ولا أغلق أذنى أمام صراخ مظلوم . أننى أحاول أن أبيع الأمانى للاشقياء ، وأبيع الاحلام لليائسين . أقبض دموعهم وأسلمهم أحلاما وآمالا وأمانى عذابا ! أنا البنك المفلس الذى يقرض المأزومين . أنا المريض الذى يصف الدواء للمرضى والاطباء . وفى بعض الأحيان أخاف أن يضبطنى هؤلاء الذين أبيعهم الاحلام ، ويكتشفوا أننى أبيع لهم الأوهام . أخشى أن يعلموا أن دوائى ليس ترياقا لبكائهم ، وأنما هو ذوب دموعهم . أخشى أن يكتشفوا أننى أنصب عليهم وأحتال . وأن شيكات الاحلام التى أعطيها لهم كلها بغير رصيد . ولكنهم يخرجون من زنزانتى سعداء ، كأنهم خلعوا عندى شقاءهم . وارتدوا أثواب الأمانى التى قدمتها اليهم . ومن حسن حظى أنهم لاينظرون الى المرايا ، والا لعرفوا أنهم عراة ! .

ولكن ما الذى جاء بهذا العصفور الى نافذة زنزانتى ليبكى ؟ ولماذا يبكى ؟ وضحكت أنه أختار شباك زنزانتى ، دون نوافذ الدنيا كلها ليذرف دموعه عندى وازداد ضحكى ! فالعصفور الطليق يبكى ، وأنا المسجون أضحك ! ماأغرب الدنيا . . على شفتى الحر دمعة ، وفى وجه الاسير ابتسامة !! هل العصفور يخدعنى كما أخدعه ؟ هل يبكى ليعزينى ، كما أنا أضحك لاسرى عنه ؟ هل يشقيه منظرى مقيدا فى الاسر ، ويسعدنى منظره وهو منطلق فى حياة الأحرار ! ولكن مايدرينى أن كان هذا العصفور حرا . كم من الذين لاقيود فى أيديهم يشعرون بأغلال فى قلوبهم ، وبسلاسل فى أرواحهم . لعل هذا العصفور يشعر أن أحدا يطارده ، والمطارد لايشعر بالحرية ، أو لعل العصفور يخاف من بندقية تصطاده ، والخائف يفقد حريته ، ماأدرانى أنه ليس مسجونا مثلى قادما من سجن أو فى طريقه الى سجن ؟

وشعرت برغبة فى أن أتحدث الى العصفور . ونحن المسجونين عندما تغلق علينا الأبواب نشعر برغبة شديدة فى أن نتحدث . نتحدث الى الجدران . نتحدث الى القضبان . نتحدث الى الباب المغلق . نتحدث الى أنفسنا . ثم نكتشف أثناء الحديث أننا تحولنا الى جدران وقضبان وسلاسل . قد لاتكون فينا صلابتها . ولكن فينا جمودها !

ولكن ماذا أقول للعصفور . ان فى فمى ماء ساخنا . النار المشتعلة فى نفسى تجعل لعابى يغلى ، فأقفل فمى ، حتى لاتخرج منه الحمم ، كما تخرج القذائف الساخنة من البركان . فى فمى ماء الحنظل ، فى حلقى مرارة الظلم ، أنفاس ساخنة كلعنات المظلومين . قلبى كالخرائب والاطلال فيه رائحة الهجر والترك والاهمال . كل كلمة من فمى ستخرج كرصاص مدفع رشاش ، كغازات خانقة حارقة ، كقنابل النابالم . فلأقفل فمى أيضا حتى لايصاب العصفور المسكين ببعض الرشاش !

ورأيت العصفور يتطلع إلى . هل رآنى من قبل فأدهشه الفرق بين ماكنت

وأصبحت ؟ . أنه يتطلع الى شعر رأسي . لعله يعد الشعرات البيضاء لعله تعب من عدها واحصائها . فاذا تعب من الاحصاء ، فسوف يتعب أكثر ، اذا عرف أن كل شعرة بيضاء فى رأسى تمثل عذابا وتعذيبا ، تمثل ضربة سوط ، أو طعنة خنجر . تمثل تهمة ظالمة ، أو حملة غاشمة .
تمثل خيانة صديق أو نكران جميل من شخص خدمته . تمثل ليالى لم أذق فيها النوم ، وأياما لم أذق فيها الطعام . العصفور يتطلع إلى تجاعيد وجهى . هل أستطاع الزمن أن يكتب على وجهى كل مأساتى ؟ أم أن الرقابة شطبت كثيرا من الخطوط ، لو أن الزمن حفر فى وجهى كل مارأيت لتحول وجهى كله الى خطوط وحفر وتجاعيد . العصفور يحملق فى عينى ، وكأنه يطل على قلبى . يبحث عن ذلك البريق الذى كان فى عينى فلا يجده . وما العيون الا مرايا . تنطبع عليها ماتراه . هى الأخرى تلمع وتنطفىء وتنير وتظلم ، ترتسم فيها مواكب الظافرين وطوابير المقهورين . لعل العصفور يطل في عينى ليرى أعماقى . ليرى مسيحا مصلوبا بلا خطيئة ، مشنوقا بلا جريمة ، معلقا على مقصلة بغير ذنب . مسجونا يجر سلاسله وقيوده . يعيش فى بحر من الوحل والطين . فى عالم مقلوب . نحن فيه الصاعدون الى الحضيض . الهابطون الى القباب . الراكعون واقفين ، والواقفون راكعين ! عالم يمشى على رأسه ، ويفكر بقدميه . عالم الصامتين فى ضوضاء الخرس الذين يثرثرون . عالم من المنبوذين الحائرين ، الممزقين الملعونين ، المغلوبين فى غير معركة ، المدفونين على قيد الحياة ! .

هذا العصفور سيىء الحظ . جاء إلى دكانى بعد مواعيد العمل . بعد أن أغلقت باب زنزانتى ، وأنصرف الزبائن . منذ دقائق فقط كنت أبيع الأمل بلا ثمن . وأبيع الأحلام بلا ثمن ، وأبيع الزهور بلا ثمن ، وأبيع الشمس بلا ثمن . كنت أضمد جراح زملائى المسجونين الذين يستنجدون بالصيدلية التى فتحتها فى قلبى أبيع مجانا بلسما لكل جرح ، ودواء لكل مرض . فهل بعت كل الأدوية التى عندى ، ولم يبق عندى دواء يشفينى ؟ أم أن أدويتى ومراهمى أعجز من أن تشفى مرضى العضال ؟ غريب أن أخترع الأدوية المنومة للناس وأبقى وحدى ساهرا وأن أضع كفى على رؤوسهم لاخفف حرارتها ، ولا أجد كفا

تمسح جروح روحى . . وأن أضع الضحكات فوق شفاههم ، ولا أجد بسمة أضعها فى قلبى الحزين . جراح قلوبهم أحدثتها شكة دبوس ، وجراح قلب صنعتها طعنات خناجر . النزيف من الخارج يمكن أن يشفى ، ولكن النزيف من الداخل مستحيل الشفاء . ماأقسى أن تشرب القلق والارق وتفرز الاطمئنان والنوم . ماأقسى أن تعيش فى كهف وتفكر بعقلية القصور . أن تضع أصابعك فى آذانك تسدها لتسمع ! أن تغلق عينيك لترى الحقيقة ! أن تدخل لسانك فى فمك لتتكلم . ماأقسى أن توزع كئوس الأحلام على الشاربين وأنت أكثر منهم عطشا ، تسكرهم خمرك ، وتجعلك تفيق فى وقت أنت فى أشد الحاجة أن تخدر روحك حتى لاتشعر بما فيها من آلام , قلبى سجين بغير قضبان . مقيد دون سلاسل . أبوابه مغلقة . نوافذه موصدة . ظلامه دامس . بين وقت وآخر أشعر أنهم نزعوا قلبى وأخذوه الى غرف التعذيب ، وصلبوه ، وجلدوه ، وعذبوه ، وضربوه بالسياط . زاد عدد الجروح فى قلبى حتى أصبحت أتصور أن قلبى كله أصبح جرحا . ومع ذلك فان وظيفتى فى السجن أن أضمد جروح المسجونين .

العصفور حسن الحظ لانه تأخر فى قدومه عندى ساعة . لولا ذلك لرأى صديقى السجين رقم واحد . دخل زنزانتى وهو ممزق مقطع الاوصال . كأنه دخل زنزانتى على دفعات . كأنه قطع ممزقة وأعضاء متفرقة وأوصال قطعت بالسكين . وظيفتى أن أحاول أن أعيد هذه البقايا الى بشر جديد . لقد تزوج لمدة شهر ونصف شهر ثم زجوا به فى السجن . ومضى على فراقهما ثلاث سنوات . تكتب هى اليه كل يوم ، ويكتب هو اليها كل يوم . ثم مضى شهر ولم تكتب له خطابا واحدا . وجاء موعد الزيارة فلم تحضر . ياللخائنة ! أنها لم تصمد لضربات الزمن . حنثت فى ايمانها . زاده يأكله غيره . الوردة التى زرعها وتعهدها قطعها الغريب . أخذ الغريب الرحيق وترك له شوك العذاب . كان يتحدث وكأن لعنات الدنيا أنصبت عليه . منبوذ . محطم . مغلوب . مقهور ! .

كنت أشعر فى قرارة نفسى أنه يظلم زوجته . يتصور أن الشهر ونصف الشهر

زواجا تكفى المرأة زادا تعيش عليه ثلاث سنوات من العذاب . لو أن قبلاته قسمت على سنوات الفراق لما أصابها قبلة واحدة كل أسبوع . كم نقسو عندما نطلب من المحرومين أن يعيشوا سنوات على ذكرى دقائق شبعوا فيها ! نحن ننسى أن الالم يترك فينا أثرا أكثر مما تترك السعادة . الفقير يذكر طوال حياته تفاصيل فقره وجوعه وحرمانه ، بينما الغنى لايكاد يذكر ماالستمتع به من مآدب شهية وحياة باذخة ! أردت أن أقول له يكفى هذه المرأة ان عاشت ثلاث سنوات شريدة طريدة مهجورة مهزومة ، تفكر طوال لياليها فى رجل مسجون الى الابد . تحتضن الورق بدلا من اللحم . تحاول أن تخدع نفسها بأن حرارة الانفاس يمكن أن تستغنى عنها بحرارة الكلمات . الناس كالمعادن ، بعضها لايتحمل النار الا دقائق ثم ينصهر ، وبعضها يصمد أياما . وأقلها شهورا ، وأندرها ثلاث سنوات ! ثلاث سنوات أنتظار أيها الظالم كم تريد منها أن تنتظر أكثر ! ولكن لم أرض أن أفجع صاحبى بهذه الأراء ، بل قلت له أن الغائب حجته معه ، ولانه لابد أن هناك من الأسباب الوجيهة الهامة ما جعلها تتوقف عن الكتابة . الحب لايموت بالسكتة القلبية . يموت بالشيخوخة عادة . غير معقول أن تكتب لك زوجتك خطابا كل يوم ثم تتوقف فجأة . الذى يحدث دائما أن تبدأ وتكتب كل يومين ، ثم كل أسبوع ، ثم كل شهر ، ثم تنقطع عن الكتابة . أنت تشكو من أنك حرمت من محاكمة عادلة . لم يسمع أحد دفاعك ، كيف تجيء اليوم وتظلم زوجتك كما ظلموك ، وتحاكمها غيابيا ، وتحكم عليها بغير أن تسمع كلمة دفاع ؟ عليك أن تختلق لها الاعذار اذا لم تقدم لك الأعذار والمبررات .

ولكن صاحبى لم يستمع لنصحى ، وكتب الى زوجته خطابا مليئا بالاتهامات : أنها غادرة كالزمان ، خائنة كالايام . متقلبة كالاحداث جبارة كالحكام !

وجاء الرد منها يقول « لم أكتب لك لأننى لاأملك ثمن طابع البريد . لم أزرك فى السجن لأننى لاأملك أجر الركوب . لولا مرضى لمشيت على قدمى ثلاث

ساعات حتى أصل من بيتى الى سجنك . أننى أخفيت عنك عذابى حتى لاأزيد عذابك . بعت كل مافى البيت لأكل وأكتب اليك ولازورك مرة كل شهر بقيت معى بضعة قروش ، وكنت أفضل ألا أشترى رغيف الخبز لكى أشترى طابع البريد . وأخفيت عنك عدة مرات أننى زرتك عدة مرات مشيا على الأقدام . كنت أغادر بيتى فى عابدين فى الفجر فأصل إلى ليمان طره عند الظهر . واقف عند بوابة السجن أمسح حذائى ، وأجفف عرقى ، وأخفى تعبى تحت المكياج الذى استعرته من جارتى ، لكيلا ترى ماتحت البودرة من شقاء . لم يبق جار لى لم أقترض منه ولا صديق لك لم يهرب منى . ياحبيبى ! ان الذى خانك ليس قلبى ؛ وانما هو طابع البريد الذى لاأجد ثمنه .

* * *

وخرج زميلى المسجون الأول ليدخل المسجون الثانى زنزانتى ، وقد كان له قبل أن يدخل الى السجن زوجة وعشيقة . ماكادت تحكم عليه المحكمة بالاشغال الشاقة المؤبدة حتى انكرته الزوجة وتخلت عنه ، ووقفت العشيقة بجانبه ، كانت العاشقة تبيع نفسها كل ليلة لتوفر لعشيقها السجين السجائر التى يدخنها ، والأطعمة التى يأكلها ، والدواء الذى يحتاج إليه .

ولم يعجب الزوجة أن تصمد الغانية وتنهار هى ، فأبلغت الزوجة سلطات الامن ضد العشيقة بأنها تقوم بنشاط سياسى مشبوه . وزج بالعشيقة الى السجن . وانقطع الطعام وانقطعت السجائر وانقطع الدواء . وانهارت صحة المسجون العاشق المريض ، ونقل بين الحياة والموت الى مستشفى الحميات . وهناك عرف ممرضه وأحبته وبدأت تقتطع من مرتبها البسيط ثمن سجائره وطعامه ودوائه . وشفى العاشق وعاد الينا فى الليمان من جديد . . وخرجت الغانية من سجنها ، وعادت تبيع نفسها من أجل أن تشترى الدواء للسجين المريض بأمراض أخرى غير الحمى . . ووبخ الزوجة ضميرها فقررت أن تعود وتقف الى جوار زوجها ووالد أولادها . وأستمرت الممرضة تحرم نفسها من ضرورات الحياة لترسل له كل شهر مبلغا على السجن .

وكان العاشق الدون جوان يكاتب الثلاث معا . ويوهم كل واحدة منهن أنها الوحيدة التى وقفت بجواره في محنته . وأستطاع حمدى أن يقسم الزيارات على العاشقات الثلاث ، وأفهم كل واحدة منهن أن الزيارة أصبحت مرة واحدة كل ثلاث شهور لا مرة واحدة كل شهر . . وصدقت العاشقات الساذجات . ثم حدثت المفاجأة . وأكتشفت العاشقات الثلاث علاقة العاشق المسجون بهن جميعا .

وأسقط فى يد العاشق وهرول حمدى الى زنزانتى يسألنى ماذا يفعل ازاء هذه الكارثة التى حلت به ؟ عليه الأن أن يختار بين الثلاث . هل يختار الغانية أو الممرضة أو زوجته السابقة أم أولاده ؟

قلت له أن أى شخص غيرى ستسأله سيقول لك أن تختار أم أولادك . ولكنى لاأقولها . المرأة التى تخلت بالأمس سوف تتخلى عنك غدا . أنها لاتقف بجوارك من أجلك ، وانما لتنتقم من كل امرأة أخرى وقفت الى جانبك . وأحب أن تعلم أننى لاأختار لنفسى وانما اختار لك . وأعتقد أن الممرضة لن تنفعك . أو على الأصح لن تنفعها ،

واجبك أن تتركها لتعيش حياتها ، وهى فى حاجة الى هذه القروش التى ترسلها لك كل شهر . ولهذا فأننى أختار لك الغانية . لأنها ضحت من أجلك أكثر مما ضحت الزوجة والممرضة ، لأنها دخلت السجن بسببك . لأنها عادت اليك بعد خروجها من السجن ، وقد كان يكفيها أنها فعلت لك كل مافعلت حتى سجنت من أجلك .

ولست أعرف هل قبل حمدى نصيحتى أم لا ؟

وقال أحد زملائنا أن حمدى سيختار من تحول له مبلغا أكبر

وضحك حمدى وقال أنه قرر أن يحاول الاحتفاظ بالثلاث معا !

وخبرتى به كدون جوان قدير تجعلنى أعتقد أنه سوف يستطيع ذلك .

ثم دخل المسجون الثالث وقد تقوس ظهره ، يحمل همومه على كتفيه . وذكر أنه تزوج وقبض عليه وهو فى شهر العسل ، وتعرض لتعذيب لايطيقه بشر ، واضطر أن يعترف كذبا على زوج شقيقة زوجته وعلى شقيق زوجته أنهم شركاؤه فى المؤامرة المزعومة !

وهاجمته أسرة زوجته لأنه أعترف على أولادها من وطأة التعذيب ، وبهذا خرب البيت كله ! وثارت أمه على أسرة عروسه ، وطردتها من البيت«لأنها جاءت وجاء النحس معها ، وأنه لولا شقيقها وزوج شقيقتها لما حكم على ابنها بالسجن المؤبد . وأرسلت الأم الى ولدها المسجون تقول له « أما أنا . . وأما زوجتك » . . وأرسلت الزوجة تقول له « أما أنا . . وأما أمك » . .

وجاء زميلى المسجون الثالث يسألنى ماذا يفعل ؟ هو يحب زوجته ويحب أمه . لايريد أن يتخلى عن أمه ولا يريد أن يتخلى عن زوجته . وأنا بطبيعتى أقف بجوار الأم فى كل مشكلة دون أن أفكر . هذه نقطة ضعف فى . قلبى هو الذى يفكر فى أى مشكلة فيها أم .

وقرأت خطاب الزوجة التعسة وهى تصف كيف أنها تعيش الأن فى بيت أمها فى جو عدائى لزوجها ، وهى ممزقة بين شقيقتها وبين زوجها . حائرة بين بيت عاشت فيه طوال عمرها ، وبيت عاشت فيه أياما . ثم هى فوجئت بجنين فى بطنها . لاأحد يريده ! والزوج المسكين لايستطيع أن يدافع عن نفسه ولا عن بيته ، ولا عن الجنين الذى فى بطن زوجته. . وهو يرى بيته يتهدم ولا يستطيع أن يمد يده ليمنع المعاول التى تهدمه . ولقد نصحته أن يؤجل قراره . وقد يستطيع الزمن أن يمحو الكراهية من قلب أمه . قد يستطيع الجنين عندما يولد أن يجمع بين الأسرتين المتنافرتين ، قد تشعر الزوجة أنها لاتستطيع أن تصبر أكثر مما صبرت وتطلب الطلاق . أو تصمد أمام الضربات فتستحق أن تقف بجوارها . الوقت هو الذى يصدر القرار ولست أنت .

أنظمة السجن فى بلادنا لاتحكم على المخطىء وحده . أنها تعاقب الأسرة

كلها تتفنن فى تعذيبها وتمزيقها وتشريدها . تقطع العلاقة بين رب الأسرة وأفرادها ، وتتركهم معلقين من أرجلهم فى الهواء . النظام الذى منع المسجونين السياسيين ثلاث سنوات من أن يكتبوا خطابا الى أفراد أسرهم ، أو يتلقوا منهم خطابات الا بطريق التهريب ! النظام الذى منع المسجونين السياسيين ثلاث سنوات من لقاء زوجاتهم وأولادهم . . النظام الذى يجعل المسجون يقابل أسرته لمدة دقائق وهو محشور فى قفص فيه عشرات المسجونين يتكلمون فى وقت واحد ! هذا النظام يحطم الأسر ، ويمزق العلاقات الانسانية ، ويشرد الأطفال الأبرياء ، يعهر الزوجات ويخرب البيوت فالحكم الذى يصدر لم يعد حكما ضد فرد واحد ، انما هو ضد الأسرة كلها . وهذا عودة الى شريعة الغاب أيام كانت تعذب القرية كلها بذنب فرد واحد من أفرادها !

وفجأة طار العصفور من نافذة زانزنتى .

لعل آرائى لم تعجبه ، لعله شعر أن هذه الآراء مسجونة مثلى ، مقيدة مثلى بالسلاسل والأغلال . أو لعله ضاق بالآهات والزفرات والعبرات فى زنزانتى فطار يبحث عن نافذة قوم أحرار !

البحث عن نوبتجى للدولة !

٢٥ يونيو ١٩٦٨

أخى العزيز

قلت لك أن العملة المستعملة فى السجن هى علبة السجاير البلمونت . وهى عملة صعبة مثل الدولار الأمريكى أو المارك الألمانى أو الفرنك السويسرى . وثمن علبة السجاير يرتفع وينخفض طبقا لبورصة خاصة . فهى تنخفض فى أيام فتح كانتين السجن وترتفع عند اغلاق الكانتين . وفى السجن بنوك . بعض المسجونين تخصصوا فى اقراض علب السجاير بالفايظ ، فهو يعطيك علبة سجاير اليوم ، ويأخذ بعد أسبوع أو أسبوعين علبة ونصف علبة أو علبتين . ويوجد فى السجن كما يوجد فى الحياة نصابون ، يقترضون السجائر من المسجون ، ولا يعيدون مايقترضون ، وكلما علت مراكزهم فى حياتهم قبل السجن زادت عمليات النصب والاحتيال . والعجيب أن الفقراء والجهلاء والمحتاجين لاينصبون ، وأنما الذين تخصصوا فى النصب مسجونون من أسر طيبة ومن القادرين . وكثيرا ماتشترى هنا علبة سجائر ، وبعد أن تفتحها لاتجد فيها سيجارة واحدة ، فقد حشيت العلبة ورقا وأغلقت بمهارة بحيث تخدع أى عين خبيرة . وحدث لى هذه الحادثة أخيرا . وعندما فوجئت بها أغرقت فى الضحك على خيبتى ! .

أمضيت أياما فى تعاسة لاحد لها . المسجون النوبتجى الذى ينظف زنزانتى ويحمل جردل البول ويجىء لى بجردل ماء الشرب نقلوه الى عنبر آخر لأنه رفض أن يكون جاسوسا على ! كان له عيوب كثيرة ، ولكننى تعودت عليه ، فأنا أكره التغيير والتبديل فى الذين يخدموننى ، وجربت مسجونين أخرين . وكان

أحدهم قذرا ، حتى عندما تراه يحمل جردل البول تتساءل من منهما جردل البول ! واذا حمل الطبق بين يديه أغمى عليك وعدلت عن تناول أى طعام . وعندما يدخل الزنزانة لينظفها يحمل اليها كميات لاحد لها من البق والذباب والصراصير والناموس حتى نحسبه جمعية الحشرات بنصها وفصها . وهو لايفهم أى شىء . تطلب علبة السجائر فيجىء لك بالحذاء ، وتطلب علبة كبريت فيحضر لك صابونة ، وتطلب كوب ماء فيجىء لك بجردل البول . وكنت أتصور أن هذه القذارة نتيجة الحرمان ، وعندما أعطيته سجائر ليستحم وليشترى ملابس جديدة أخذها واشترى قطعة حشيش ! ورفض أن يقتنع بأن النظافة من الايمان ، وهو يعتبر أن الاستحمام وقاحة وقلة أدب لأنه يضطر إلى خلع ملابسه أمام الناس والحمامات فى السجن جماعية ، ولهذا فهو لايستحم الا فى الأعياد الرسمية .

واستقال النوبتجى احتجاجا على تدخلى بين البصلة وقشرتها واصرارى على أنه لابد أن يستحم مرة كل يوم ! وكان النوبتجى الثانى قاطع طريق . لايدخل الزنزانة الا ويخرج منها وقد سرق شيئا وهو لايفرق بين الرخيص والثمين . يسرق الجريدة . وهو لايقرأ ولا يكتب ويسرق دواء السكر وهو ليس مريضا بالسكر . وفى خلال ٢٤ ساعة أكتشفت أنه سرق كل شىء فى الزنزانة ولم يبق فيها سواى . ولما كنت نصحتنى بأن أحرص على نفسى ، فقد رأيت أن استغنى عنه حتى لايسرقنى أنا أيضا ! .

والنوبتجى الثالث كان يعمل فى زاوية العميان . وهو يصطدم بكل شىء فى الزنزانة ، ولا يكاد يدخل الزنزانة حتى يقلب كل ما فيها ، الكرسى يقع الطبق يقع حتى السرير نفسه يقع أيضا . ولكى أتخلص من هذه « الواقعة السودة » تخلصت منه أيضا ! .

واذا بمسجون سياسى حاصل على شهادة كلية الآداب يعرض أن يقوم بخدمتى وخجلت أن يكون النوبتجى الذى يخدمنى حامل شهادة عليا ، ولكنه أصر على طلبه ، ووجدته شابا متعلما ممتازا أمينا فجعلته سكرتيرى الخاص ، واخترت

فلاحا من الصعيد ليكون النوبتجى وهو قاتل ولكنه يخاف من خياله . الحكم عليه يقول أنه مجرم أثيم وحقيقته أنه مظلوم برىء . كان يعمل خادما عند عمدة ثرى ، وأراد العمدة أن يتخلص من خصم له فأطلق عليه الرصاص

وقتله . واتفق مع نجيب على أن يعترف بأنه القاتل فى مقابل أن يدفع لاسرته ثلاثة جنيهات كل شهر . وقبل نجيب أن يحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لتأخذ أسرته ثلاثة جنيهات كل شهر ! وهو يتصور أنه عقد صفقة رابحة . أسرته تأكل بالجنيهات الثلاثة وهو يأكل مجانا فى السجن . وفى السجن تجد كثيرا من هذا النوع من المتبرعين بأنهم أرتكبوا جرائم لم يرتكبوها ، أو قتلوا أشخاصا لم يقتلوهم ولم يعرفوهم ! .

تنص لائحة السجن على أن المستشفى يصرف للمسجون المريض بالسكر ربع فرخة . . ولما كانت عين الحكومة بصيرة ويدها قصيرة ، فانها استبدلت بالفراخ البيض ، وهى تصرف لنا الأن ١١ بيضة كل أسبوع . وأفاجأ كل مرة بأن عشر بيضات فاسدة وبيضة واحدة طيبة ، ويقول الممرض أن حظى من السماء أن وجدت بيضة جيدة من ١١ بيضة . وأن غيرى من المسجونين غير المحظوظين لم يجدوا بيضة واحدة جيدة ، ويظهر أن السر فى ذلك أن البيض يصرف لنا بدل الفراخ ولهذا يحرص بائع البيض على أن يضع كتكوتا في كل بيضة !

وأنا أستطيع وأنا جالس فى زنزانتى أن أعرف حالة الدولة فى الخارج . الظلم الذى أراه هنا . الاستبداد . السرقة . الرشوة . استغلال النفوذ . المحسوبية . الرغبة في اذلال الناس . تحكم القوى فى الضعيف . الطلاء الخارجى الذى يخفى الخرائب الداخلية . النهب والتهليب . كل هذه صور مصغرة لما يحدث خارج السجن . أنا أرى بلدى فى داخل السجن . أؤمن أن القيود هى التى تولد المخالفات . الأنظمة الدكتاتورية هى التى تقتل شخصية الافراد وتحولهم الى قطيع . لقد مضى الأن أكثر من عام على الهزيمة ولم يحدث فى مصر أى شىء يدل على أننا تقدمنا شبرا واحدا . لم نستطع أن نحرر شبرا واحدا من أرضنا المحتلة لم

نستطع أن نحطم سلسلة واحدة ولا قيدا واحدا من الاغلال المقيد بها هذا الشعب . مازلنا نحارب بالكلام وبالشعارات . لم يحدث فى التاريخ أن دولة كبيرة قامت على الشتائم والسباب . . من يقرأ صحفنا يشعر أننا لم نتعلم شيئا ! مازالت الصحافة مكممة ، والرأى الأخر محجوبا عن الناس . مازلنا نحاول الانتصار بعقلية الهزيمة وأسلحة الهزيمة ورجال الهزيمة .

أن الأنباء التى تجىء الينا من خارج السجن عن حالة البلد مروعة . عملية بناء القوات المسلحة سوف تحتاج الى بضع سنوات ، الروس يعتقدون أن أستمرار حالة اللاحرب واللاسلم سوف يؤدى الى قيام حكم شيوعى في مصر . . الامريكان يعتقدون أنه لن تقوم لنا قائمة . وأن هزيمتنا أبدية . . الدولة يهمها أن يدافع الجيش عنها . ثم بعد ذلك يدافع عن البلد . . لايهم أن العدو يحتل هذه المساحة الضخمة من أرض مصر . . مادام حكامنا يحتلون مقاعدهم ، الاذاعة تنشر انتصارات وهمية ومعارك خرافية . الشعب أصيب بأزمة عدم تصديق . عندما أكتشف الخديعة التى كان يعيش فيها أصبح لايصدق أى شىء ولايثق بأى شىء !

الدولة فى حاجة الى « نوبتجى » يتولى تنظيفها . . يتولى القضاء على مافيها من حشرات وصراصير وذباب . .
فلنفتح النوافذ والأبواب . . لتختفى كل الصراصير . . والحشرات .

سر الملك

٢٧ يونيو سنة ١٩٦٨ .

أخى العزيز :

أنني متشوق لأن اقرأ في يوم من الأيام كتاب هيوماكلين عن فاروق وأنا أوافق على وجهة نظره التى نقلتها عنه الصحف البريطانية التى لخصت الكتاب الجديد بأن الملك السابق كان ضعيفا جنسيا . وأن هذه كانت عقدة حياته . وكان الملك السابق بحكم نشأته بين خدمه المصريين والأيطاليين يعتقد ما يعتقدون بأن قيمة الرجل فى فحولته وقوته جنسيا . وكان كل واحد منهم يعود من بيته إلى القصر ويتفاخر أمام الأمير الصغير بالليلة الحمراء التى أمضاها بين ذراعى عشيقته أو زوجته .

وكان الأمير الصغير يبهر بما يسمع ، ويحاول أن تكون له علاقات مع الكلفاوات من خادمات القصر فيفشل .

وكان هذا الفشل ينغص عليه حياته . وأصبح يحاول أن يعوض هذا النقص فيقوم باستعراضات كاذبة ، ليظهر أمام الناس أنه زئر نساء فتاك ، وأنه دون جوان لامثيل له ، وأنه قاهر النساء الذى يستبدل كل ليلة امرأة جديدة . . وكان يخترع القصص عن مغامرات غرامية لم تحدث ، وعن انتصارات مع نساء لم تحدث .

وكان يتعمد أن يظهر فى المجتمعات العامة فى صحبة نساء جميلات ، ويتعمد أن يغازلهن أمام الموجودين ، ويضحك معهن بصوت عال لافت للنظر ، ليوهم الناس أنهن عيشقاته ومحظياته ، ثم يتعمد أن يظهر أمام الناس وكأنه يصحب الواحدة منهن الى بيتها .

ولكن الذى يحدث عادة أن يودع الملك الدون جوان المرأة الفاتنة أمام باب بيتها ، ولا يصعد ابدا الى مخدعها ! . ثم يعود ادراجه يحكى لخدمه واخصائه تفاصيل عن مغامراته وبطولاته فى مخادع النساء ! .

وكان خدمه الايطاليون يتظاهرون بأنهم يصدقونه ، ويتغامزون عليه فيما بينهم . فهم يعرفون أن مأساته أنه أضعف كثيرا جدا من أى شاب فى عمره .

وقد روى لى أحمد حسنين باشا الذى كان رائده ، ومن أقرب الناس اليه أنه بعد أن تزوج الملك فاروق من الملكة فريدة كان يسمع من بعض قريبات الملكة ان الملك يخون عروسه كل ليلة . .

وكان حسنين يكذب هذه الاشاعات ، فكانت السيدات يقلن له ان الملك نفسه اعترف للملكة بهذه العلاقات بكل تفاصيلها !

وكان حسنين يقول أن أى زوج يخون زوجته لايذهب اليها كل ليلة ويعترف لها بخيانته الزوجية ، بل هو يتعمد اخفاء هذه الخيانات ، ولكن الملك كان يدعى هذه العلاقات المزعومة ، ويؤلف هذه القصص المختلفة عن غرامياته ، ويرويها بكل تفاصيلها للملكة ليعتذر عن عدم قيامه بواجباته الزوجية ، وحتى لاتعرف الملكة فريدة أنه ضعيف فتعيره بهذا الضعف وتحتقره وهو يعتقد أن الرجل المحترم هو الرجل الفحل ذو العلاقات الغرامية المتعددة . .

وقال لى حسنين باشا أن الملك كان يروج هذه الاشاعات الكاذبة عن صديقات الملكة ، فتصدق الملكة الصغيرة السن العديمة التجارب هذه الأكاذيب وتقطع علاقتها بصديقاتها ، وتصدر أوامر بمنع دخولهن القصر ، وتتناثر الأقوال عن اتهامات الملكة لصديقاتها ، فيعجب الناس لان الملكة تظلم صديقاتها بلا دليل . بينما الملكة هى المظلومة لان زوجها الملك هو الذى يعترف لها بأنه ارتكب الخطيئة مع الاميرة فلانة أو النبيلة علانة .

وعندما تواترت هذه الاشاعات بين الناس وترددت ، وعندما كان يقول

الناس ان الملك لم يترك زوجة كبير الا وأغتصبها ، ولا توجد سيدة مجتمع الا وبينها وبين الملك علاقات غرامية كانت هذه الأخبار تسعده وكأنها أخبار فتوحات حربية وانتصارات سياسية .

وقد حدثني كريم ثابت باشا مستشاره الصحفي وأقرب رجال حاشيته اليه انه ذات مرة وصله تقرير يقول فيه صاحبه أن الوفديين يشيعون فى كل مكان أنه زئر نساء وأنه يستبدل عشيقاته كما يستبدل جواربه ، وأنه لايشبع من النساء وأنه مثل جده الخديو اسماعيل لايفرق بين الملكة والخادمة . .

وتصور كريم أن هذا التقرير سوف يزيد من عداوة الملك للوفديين ، وكان كريم يعمل على تقريبهم من القصر وأنتظر كريم ثابت أن يثور الملك ، واذا بفاروق يقرأ التقرير وهو يهتز طربا ، ويهز رأسه فخرا ، ويعرض التقرير على خدمه مباهيا مزهوا . .

ثم قال كريم أن الملك التفت نحوه فجأة وقال :

ـ تعرف ياكريم الوفديين دول ناس طيبين ، ويجب أن ندخلهم فى وزارة قومية .

وذكر كريم أن هذا التقرير الذى كتبه مفتش فى الداخلية من أشد خصوم الوفد كان سببا مباشرا من أسباب أدخال الوفديين فى وزارة حسين سرى الائتلافية بعد أن كان فاروق لايطيق ذكر أسمائهم !

وهذه الرواية تفسر حرص الملك فاروق على أن يظهر دائما فى المنتديات العامة برفقة سيدات جميلات انيقات ، ولم يحدث مرة واحدة أن قابل امرأة فى قصر عابدين أو قصر القبة أو قصر رأس التين أو قصر المنتزه ، وأنما يصحبها الى ملهى الاوبرج بشارع الهرم أو نادى السيارات أو نادى الصيد فى القاهرة أو نادى الصيد فى الاسكندرية .

ولقد عشق الملك نساء كثيرات واحب ، وتدله فى الحب . ولكن ماذاع وشاع

من أنه فارس مغوار فى ميدان الحب والغرام ينصب غالبا على الحب الافلاطونى الذى كان هو يشيعه فى كل مكان أنه حب دنس فاجر وأنه يرتكب الخطيئة كل يوم عدة مرات . وكأن معه دائما شهود من خدمه الايطاليين يشهدون له شهادة الزور التى يحب ان يسمعها بأنه كازنوافا زمانه .. وفالنتينو عصره .

ومن الغريب أن زوجته الملكة فريدة صدقت أكاذيبه ، ونظرا لحداثة سنها تصرفت على ضوء هذه الأكاذيب والاعترافات الخيالية . ولو كانت أكبر سنا لاكتشفت دوافعها ، وعرفت أنها لا أساس لها من الصحة ، ولما أصرت على طلب الطلاق من الملك ، هذا الطلاق الذى كان المسمار الأخير فى نعش الملكية فى مصر . ومما يستحق الذكر أننى كتبت سلسلة مقالات عن غراميات فاروق نشرتها فى الأخبار وأخبار اليوم . وكتبت المعلومات التى عندى عن ضعف فاروق الجنسي ، وجاء الرقيب وشطب هذه الفقرات وقال لى :

ـ من مصلحة الثورة أن يقال ان الملك فاروق كان فاتن النساء ، وكان رجلا فتاكا ، وفحلا مغوارا . له كل ليلة محظية . وذلك حتى يكرهه الناس .

وعبثا حاولت اقناع الرقيب أن هناك أشياء كثيرة جدا تجعل الناس تكره الملك السابق غير فحولته وقوته الجنسية المزعومة .

التليفزيون القاتل !

٣٠ يونيو سنة ١٩٦٨ .

أخي العزيز . .

أعيش هنا قصص المسجونين . أنها دوامة من العواطف البشرية قصص الذين يتحاورون بغير حوار . يتكلمون بغير شفاه . يصرخون بغير صوت ينزفون بغير أن يسقط منهم الدم . شخصيات تبحث عن مؤلف . ويوم يدخل السجن كاتب قصة لن يشكو من قلة موضوعات القصص والروايات . كل واحد من هؤلاء الالوف من المسجونين هو قصة . أعجب ما فى القصة أن صاحبها لايعرف كيف يرويها . فهو يحذف منها ويضيف اليها . يحذف منها ما يتصور أنه يدينه . ويضيف ما يعتقد أنه يبرئه . ولو روى القصة كما هى لكانت رائعة .

هذه قصة عبده المسجون معى . . ترك زوجته وثلاثة أطفال . كان يتلقى من زوجته كل أسبوع خطابا يفيض بالحب والشوق والحنين . كانت هذه الخطابات هى المناديل التى تجفف دموعه ، وهى المراهم التى تضمد جراحه ، وهى الشمعة الوحيدة التى بقيت مضيئة فى ظلام حياته . كان ينتظر هذه الخطابات كأنه ينتظر لقاء حبيب . يعيش مع كل خطاب الى أن يصل اليه خطاب تال . يجمع الخطابات بعضها فوق بعض ، ويخفيها تحت رأسه ، وينام فى زنزانته وهو يحلم بكلمات الخطابات الساذجة . التى تبدو فى أذنيه أجمل وأروع وأبلغ ماسطر العشاق . وكانت زوجته وهيبة لاتعرف القراءة والكتابة ، ولكنها كانت تملى خطاباتها على صراف القرية وهو أعز أصدقائه . وكان الصراف الصديق يلبى رغبتها ويدون كلمات وهيبة الساذجة ويحولها الى جمل كالاغانى وعبارات كالموسيقى . وكان السجين عبده سعيدا بوفاء صديقه ، وبأنه يترك أعماله

الكثيرة ليكتب له ماتمليه وهيبة من لهفة وشوق وحنين لعبده . وكأن عبده يصعد الجبل ، ويكسر الاحجار ، ويؤدى عقوبة الاشغال الشاقة ، فاذا انهكه العمل المضنى سرح فى خطابات وهيبة . وأخرج آخر خطاب من جيبه ، وراح يتغفل الشاويش ويقرأ خطاب وهيبه وكأنه يجفف عرقه . كأن الخطاب هو مياه كولونيا يرشها على وجهه ، فتبعث فيه النشاط ، وتنسيه قسوة حرارة الجبل وقسوة أحجار الجبل . كانت أشبه بالكمادات يضعها على تسلخات أصابعه التى جعلتها الفأس الغليظة تتحول الى شقوق . أنه لايندم لانه قتل ! ارتكب الجريمة من أجل وهيبة . هذه المرأة الوفية تساوى أن يقتل من أجلها كل سكان القرية . عاش سنوات يسمع أن فى بيت العمدة تليفزيون . زوجة العمدة تجلس أمام التليفزيون طول الليل والنهار . ترى القاهرة وهى جالسة فى أبو قرقاص . تسمع أم كلثوم وهى تغنى فى باريس . ترى المسرحيات وتشهد الافلام ، وتروى لزوجات الفلاحين الاعاجيب التى تراها على الشاشة . مرة واحدة دعت زوجة العمدة وهيبة لتشاهد التليفزيون . ومكثت وهيبة خمس سنوات كاملة تروى له وتعيد وتكرر مارأته فى التليفزيون . وتساءل عبده لماذا لايكون لدى المرأة التى يعبدها تليفزيون كتليفزيون زوجة العمدة . وهيبة أجمل ألف مرة من زوجة العمدة وأكثر منها نضارة وشبابا . وهو يحب وهيبة أكثر مما يحب العمدة زوجته . ولكن من أين يأتى بالمبلغ الكبير الذى يشترى به هذه الآلة السحرية . لقد قالوا له أن تليفزيون العمدة من النوع الفاخر . ثمنه ١٨٠ جنيها . لو وفر من أجره قرشا كل يوم لاشترى أحفاده التليفزيون ! وكيف يستطيع أن يوفر قرشا من أجره البسيط الزهيد أصبح التليفزيون شبحا يعكر عليه حياته . . يؤرقه عندما ينام . يزغده عندما يسرح . كل حياته تحولت الى حلم بالتليفزيون الذى يريد أن يهديه الى زوجته وهيبة . قبل أن يسمع عن هذه الآلة الملعونة كان يحلم بأن يمتلك قطعة أرض . وكان يحلم بأن يملك البيت الذى يقيم فيه كل هذه الاحلام شحبت وتضاءلت واصبحت لا قيمة لها بجوار الحصول على تليفزيون , لو كان يملك ارضا لباعها واشتراها ,

ولكنه يعمل فلاحا اجيرا فى ارض الحج حسين تاجر الاصواف المقيم فى البندر

يابخت الحاج حسين لابد أنه يملك تليفزيون هو الآخر بإعتباره علية اليسى . . .

أليس هو يملك عشرين فدانا فى القرية ويملك عمارة فى البندر . ويملك محلا تجاريا فى القاهرة . ثلاث معجوزات لا معجزة واحدة . أنه شخص فوق البشر ، وإلا لما ملك كل هذا . هو قادر على أنه يشترى مائه تليفزيون لا تليفزيون واحدا . وعم حسنين رئيس الأنفار قال له أن الحاج حسين يغير التليفزيون كل عام . قال له أن التليفزيون له موضه كالملابس ، والأثرياء يغيرون تليفزيوناتهم كما يغيرون ملابسهم . وجلس عبده يدرس ميزانيه . لو أختصر طعامه . لو بقى بجلابية واحدة . لو ضاعف ساعات عمله . فهل يستطيع أن يجىء بالمائة والثمانين جنيها ؟ ! ورمى القلم من يده . مهما اقتصد ! لو أنه بقى عشر سنوات جائعا لما حصل لوهيبة على تليفزيون .

وسمع عبده أن الحاج مطاوع وكيل الحاج حسين صاحب الأرض قدم الى القرية ليحصل من المزارعين على الايجار . الحاج مطاوع هو رسول الاله الذى لايرونه . يحمل اليهم كل عام كتبا مقدسه على شكل ايصالات بقيمة الايجار . أوراقا مقدسة لا تقبل المناقشة أو التأويل والتغيير . ويدفع الفلاحون صاغرين . وفى دقائق يحمل الحاج مطاوع مبلغا يزيد على المائتى جنيه ، ويركب حماره فى طريقه الى محطة البندر ليسلم المبلغ الى الاله صاحب الأرض .

وتلفت عبده الى زوجته وهى نائمة ، فوجد وجهها الجميل الفاتن مقطبا . لابد أنها هى الأخرى حزينة لأنها لاتملك تليفزيون . ولمعت فى رأس عبده فكرة . لماذا لاينتظر الحاج مطاوع بقرب المحطة ويطلق عليه الرصاص ويستولى على المائتى جنيه ويشترى التليفزيون لوهيبة . وشعر أن الرصاصة سوف تحل كل مشاكله وستحقق كل أحلامه . ستسهل الصعب . ستقرب البعيد . ستحدث المعجزة ويصبح المستحيل ممكنا . ستجعل هذا الوجه الجميل القانط اليائس المقطب مشرقا تملؤه السعادة ويرفرف عليه الهناء . وحمل عبده بندقيته وأنتظر فى

الظلام خلف عيدان القصب قدوم الحاج مطاوع وأطلق عليه رصاصة أردته قتيلا ، وأسرع إليه وأنتزع محفظته وعاد بسرعة الى بيته ونام فى فراشه بجوار وهيبة ، ولكنه لم ينم . جلس يحصى المبلغ المسروق فوجده ٢٢٥ جنيها ، يزيد ٤٥ جنيها على ثمن التليفزيون المطلوب . وقرر أن يشترى ملابس جديدة لوهيبة لتزداد جمالا فوق جمالها . سيشترى لها قميص نوم شفافا كالذى رأته فى التليفزيون عند زوجة العمدة ، وكانت ترتديه نجمة السينما وملكة الاغراء .

ستكون وهيبة أروع من نجمة السينما والاغراء . . وقام وحفر فى الأرض حفرة عميقة وأخفى فيها البندقية ، وأخفى مع البندقية المبلغ المسروق ، وذهب فى الصباح الى الحقل كالمعتاد ، وبدأ يعمل فى هدوء ، وسمع زملاءه الفلاحين يتحدثون عن مصرع الحاج مطاوع ، وأن الشرطة قبضت على القاتل ، وأنه أعترف ! وأنتفض عبده ، وسأل عن اسم القاتل المقبوض عليه فعرف أنه جاره عواد !

وروى الفلاحون أن عواد تشاجر مع الشيخ مطاوع عندما طالبه بالايجار المتأخر فلم يدفع ، فهدده الحاج مطاوع بأن سيطرده من الأرض التى عاش هو وأباؤه وأجداده يزرعونها ، وثار عواد على الحاج مطاوع وقال أنه سيقتله قبل أن يترك الأرض التى رواها بعرقه ودمه ودموعه . وبعد دقائق من هذا التهديد وجد الخفير جثة الحاج مطاوع ملقاة على الأرض . وأقبل ضابط النقطة والعمدة وضربوا عواد ضربا مبرحا حتى أعترف بأنه هدد الحاج مطاوع بالقتل ، وأنهالوا عليه بالسياط حتى تهاوى وأعترف بأنه القاتل ! ثم تقدم شهود من القرية يقولون أنهم رأوا عواد وهو يطلق الرصاص على الحاج مطاوع ، وذهل عبده مما سمع ، أنه واثق أن الرصاصة التى قتلت الشيخ مطاوع كانت من بندقيته هو . ولم يسمع رصاصة سواها . فكيف يكون القاتل سواه ! وأحس أن ضميره يعذبه . وفكر فى أن يتقدم لوكيل النيابة ويعترف بأنه القاتل ، ثم تذكر تليفزيون وهيبة الذى سيشتريه لها . ووجد ضميره ينام من جديد ، ويستريح الى ماوصل اليه

التحقيق . وجلس مع زملائه الفلاحين يشيد بعدالة وكيل النيابة المحقق وبذكاء ضابط النقطة ويلعن القاتل السفاح عواد . وشعر عبده أن الدنيا تبتسم له . لقد حصل على ٢٢٥ جنيها ، وليس هو القاتل فهو لم يرتكب جريمة لأن القانون والعدالة والتحقيق أثبتت أن القاتل سواه . ومع الوقت بدأ يصدق التحقيق ويكذب عينه . لعل رصاصته طاشت ، ورصاصة عواد هى التى أصابت القتيل . لابد أنه فى رهبة الموقف لم يسمع الرصاصة الأخرى . واطمأن أنه لم يقتل ولم يسرق . كل ماحدث أنه وجد كنزا فى جيب جثة فأخذ الكنز وأخفاه . المهم أنه سيشترى التليفزيون ، ويسعد وهيبة ويحقق حلمها الطويل . وأنتظر عبده حتى قدم عواد الى المحاكمة . وحكم عليه بالاعدام . ونفذ الحكم . وفى يوم التنفيذ ذهب وأشترى التليفزيون . وعانقته وهيبة والدموع فى عينيها ، وروى لها فى فخر وزهو كيف قتل وسرق من أجلها . الحب الذى يلد أنبل المشاعر قد يخلق أخطر الجرائم ، قد يحول القديس الى شيطان . قبل أن يحب وهيبة جاع عبده . ولم يفكر فى أن يسرق ليشترى خبزا . فضل أن يبيت جائعا ولا يلمس المال الحرام . عاش سنوات فى الحرمان والجوع والعدم والشقاء ، ولم يخطر بباله يوما أن يرتكب جريمة . ولكن حبه المبرح لوهيبة جعله يتحول الى لص وقاتل . هو لم يقتل رجلا واحدا من أجلها . بل قتل رجلين القتيل والمحكوم عليه بالاعدام . . وعاش أياما قليلة سعيدة مع وهيبة أمام التليفزيون . ثم بدأ يقشعر بدنه عندما يسأل الناس كم دفع ثمنا للتليفزيون الذى اشتراه . كان يكذب عليهم ويقول أنه دفع ١٨٠ جنيها ، والواقع أنه دفع ١٨٠ جنيها وحياة رجلين . .

وبدأ الفلاحون فى القرية يتحدثون عن قصة الثروة المفاجئة التى هبطت على عبده . وذات يوم وصل الى الشرطة خطاب من مجهول أن ثمن التليفزيون هو المبلغ الذى كان فى جيب الحاج مطاوع القتيل وتحركت النيابة وفتشت بيت عبده فوجدت فيه البندقية المدفونة فى التراب . وقال الطبيب الشرعى أن رصاصة البندقية هى التى قتلت الحاج مطاوع . .

وقبضت النيابة على عبده . وقدمته الى المحكمة بتهمة عجيبة . وهى أنه شريك عواد فى قتل الحاج مطاوع ، لم يشأ رجال التحقيق أن يذكروا الحقيقة ، خجلوا من أن يعترفوا بأنهم أعدموا بريئا ، فغيروا وبدلوا فى وصف الجريمة ، وقدموا عبده بأنه شريك فى قتل الحاج مطاوع . صحيح أن عواد قتل الحاج مطاوع ، ولكن المؤكد أنه أعطى البندقية لعبده فأخفاها فى بيته ، وأعطاه نصف المبلغ المسروق . . وأقسم عبده أنه لم يكن شريكا لعواد ، وأنه لم يتفق مع عواد على قتل الحاج مطاوع ، ولم يستطيع أن يثبت مصدر المائتى جنيه ، وحكمت محكمة الجنايات عليه بالسجن عشر سنوات .

وأعتبر عبده هذا الحكم انتقام الله منه لأنه سكت عن ظلم برىء ولم يحزن لما أصابه ، فقد كان كل مايهمه الا يصادر الحكم التليفزيون . وفعلا صودرت البندقية التى قتلت الحاج مطاوع . ولم يصادر التليفزيون الذى هو القاتل الحقيقى !

وكان عبده واثقا بأن التليفزيون سيذكر وهيبة به كلما فتحته فى الصباح والعصر والمساء . سوف يصبح التليفزيون صورته المعلقة فى البيت . صورة تتحرك وتتكلم وتقول أن عبده لايزال هنا . سوف تذكره وهيبة كلما سمعت فى التليفزيون أغنية حب ، كلما شهدت مسرحية غرام ، كلما رأت قميص نوم شفافا ترتديه بطلات الافلام .

وفى كل خطاب كان يرسله عبده من السجن الى زوجته فى القرية كان يسأل عنها وعن أولاده وعن التليفزيون . لقد أصبح التليفزيون أحد أفراد الأسرة . هو مندوب عندهم ورسول لديهم . هو صورته التى تعلقها وهيبة فى غرفة النوم . هو صوته الذى يملأ عليها البيت . لن تشعر وهيبة بالوحدة الا ساعات توقف الارسال . سوف يحدثها بالنيابة عنه . يناجيها . يسليها . وهاهى ذى خطاباتها الأسبوعية أدلة حية على وفائها وحبها . أنها تذكر دائما التضحية التى قدمها من أجلها ليسعدها ويحقق أحلامها ، لقد أمضى فى السجن ثلاث سنوات . وسوف يخرج بعد عامين فى عفو انتهاء العقوبة لمناسبة انتهاء نصف المدة . وسيعود الى

زوجته الحبيبة . وسيجلسان معا الى جوار التليفزيون يستمتعان ببرامجه وهما يتبادلان العناق والقبلات .

وذات يوم حضر الى السجن وكيل النيابة ليسمع أقوال عبده فى بلاغ تقدمت به أم عبده الى العمدة . تقول أم عبده فى بلاغها أن وهيبة زوجة عبده حملت وأنها فى شهرها الثامن وأن زوجها مسجون منذ ثلاث سنوات . ومن غير المعقول أن تحمل وهيبة ويبقى الجنين فى بطنها ثلاث سنوات . . وأن هذا يدل على أن وهيبة خانت زوجها . وطلبت تقديم زوجة ابنها الى المحاكمة بتهمة الزنا . .

وعرض وكيل النيابة الزوجة على الطبيب الشرعى فأثبت أنها حامل فى ثمانية شهور . والقانون يقول أن الزوجة لاتقدم الى المحاكمة بتهمة الزنا الا بموافقة زوجها ، ولهذا جاء وكيل النيابة ليعرف رأى عبده .

وتهاوى عبده وسقط على الأرض . أحس أن مطرقة هائلة سقطت فوق رأسه .

لايمكن أن يكون هذا صحيحا . وزوجته الحبيبة تكتب اليه كل أسبوع لم تنقطع أسبوعا واحدا . تملأ خطاباتها بكل الحب والاخلاص والوفاء . آخر خطاب كتبته له منذ أسبوعين . لابد أن أمه تتجنى على وهيبة . تنتقم من الزوجة التى كانت سببا فى دخول أبنها السجن . لايمكن أن تكتب وهيبة كل عبارات الهوى والغزل والشوق وهى حامل من رجل آخر .

وقال وكيل النيابة لعبده أن الزوجة أعترفت بأنها استدعت صراف القرية وصديق عبده لتملى عليه خطاباتها لزوجها ، وكافآته على ذلك بأن دعته ليتفرج معها على التليفزيون . وحدث عندما كانا يشاهدان منظرا غراميا على الشاشة أن لسعتهما حرارة المشهد ، ووجدت الصراف يحيطها بذراعه وراحا يكملان ما لم تقله شاشة التليفزيون أو تجرؤ على البوح به .

وأحس عبده بطعنة أكبر من الطعنة الأولى وأشد إيلاما . صديقه الصراف دون جميع أهل القرية هو الذى خانه . الرجل الذى تمليه وهيبة كل الخطابات

الغرامية التى تلقاها طوال هذه السنوات الثلاث . اذن عبارات الغزل هذه لم تكن موجهة له . كانت موجهة الى الصراف . كانت محاضر أسبوعية تدون فيها عبارات الهوى والغزل التى يتبادلها العاشقان الفاجران . فجأة تحولت الخطابات التى كانت مكمدات الى سكاكين . الخطابات التى كانت مناديل تجفف دموعه أصبحت أشواكا ومسامير . عاد يسترجع العبارات التى كان يحفظها من رسائل وهيبة . أصبح لكل كلمة معنى آخر . ماأغرب القدر وأقساه . الكلمة التى كانت تسكره أصبحت الأن تلسعه . الكلمة التى كانت تشفيه أصبحت تقتله . نفس العبارات التى كانت رحيقا من السعادة والهناء واللذة . أصبحت جرعة من المر والصاب والعذاب .

واستعجله وكيل النيابة أن يبدى رأيه . هل يطلب تقديم وهيبة الى المحكمة بتهمة الزنا ؟ .

وشعر أن هذه الكلمة توقظه من غفوته . ماذا يقول ؟ لو قدمها بتهمة الزنا فسوف يزج بها فى السجن . سوف يشرد أولاده . يبقى أولاده طوال حياتهم مدموغين بتهمة أنهم أولاد المرأة الزانية . سوف يمشون فى طرقات القرية منكسى الرأس ، يدفعون ثمن جريمة لم يرتكبوها ، بل كانوا بعض ضحاياها .

وزادت حيرته . هل ينتقم منها . لقد قتل رجلين من أجلها ولو أنه أودعها السجن فسيشرد أطفاله الصغار وسوف يبقى الصراف حيا يخدع زوجات باقى الفلاحين . وقال عبده بصوت يشبه رنين القدح المكسور : لاأريد أن أقدمها الى السجن أريد أن أقابلها هنا مرة واحدة ، وبعد ذلك سوف أطلقها .

ودهش وكيل النيابة أن يظهر هذا المسجون المسحوق كل هذا التسامح فى لحظة لايرتفع فيها ، الا صوت الرغبة فى الانتقام .

وسأله وكيل النيابة : لماذا تشفق على المرأة التى لم تشفق عليك لماذا تحافظ على عرض امرأة لم تصن عرضك ؟ لماذا ترحم امرأة لم ترحمك .

ولم يستطع عبده أن يجيب . أجابت عنه دمعة ساخنة سقطت على ورق محضر التحقيق الذى فتحه وكيل النيابة فعبثت بحروف بعض كلمات التحقيق .

وعاد عبده الى فى العنبر يتعثر فى خطواته ، وعاد الى رسائل وهيبة وعشيقها يقرؤها من جديد .

ووجدت فى عينيه لمعانا غريبا فقلت له : أنك تريد أن تقابلها لتقتلها . . تذكر أنك قتلت قبل ذلك اثنين . .

ووعدنى عبده وأقسم أنه لن يقتلها .

وجاءت وهيبة الى السجن . . وطلبت مقابلة خاصة .

وارتدى عبده أنظف ملابسه . . وحلق ذقنه وكأنه يذهب الى حفلة زفافه . .

ودخلت وهيبة الى غرفة الضابط ، واذا بها تجد عبده يهش لها ويبش ، ويأخذها فى أحضانه ويضمها الى صدره وهو يقول :

ـ ياحبيبتى ياوهيبة . . ياحبيبتى يا وهيبة . .

ثم مد أصابعه فجأة وقلع عينيها !

وأقبل حراس السجن على صراخ وهيبة . . وقيدوه بالحديد وحملوه الى عنبر التأديب . .

وقابلته فى الطريق فوجدته يضحك ويقول :

ـ لن ترى وهيبة التليفزيون بعد الأن .

الجبهة الوطنية فى الزنازين !

٧ يوليو سنة ١٩٦٨ .

عزيزتى . .

كل يوم تجىء من معتقل طرة أخبار جديدة . فى كل يوم أسمع اسم معتقل جديد . أشعر فى بعض الأحيان أن مصر كلها فى السجن . أبرز المحامين فى مصر مقبوض عليهم وموجودون فى معتقل مزرعة طره . عندنا شوكت التونى المحامى وحماده الناحل المحامى والدكتور نور الدين رجائى المحامى والدكتور عبد المنعم الشرقاوى المحامى وعلى عبد العظيم المحامى وعبد الوهاب حسنى المحامى والأستاذ عيسى العيوطى المحاسب وغيرهم وغيرهم . .

وفى المعتقل عدد من الشعراء منهم الشاعر الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى الأستاذ بكلية اللغة العربية والشاعر السعودى عبد الله عبد الجبار والشاعر كامل أمين والشاعر محمد وجدى والشاعر الفلسطينى سليم اليعقوبى والشاعر محمد بدر الدين والشاعر محمود شاوير ربيع والشاعر الماحى . . وبعض هؤلاء يهربون لى من المعتقل أشعارهم ، وهى أشعار تلعن الظالمين وتطالب بالحرية وتصف سوط الجلاد ! .

ومن بين القصائد التى وصلتنى قصيدة للشاعر محمود شاوير ربيع يصف فيها السجن الحربى والتعذيب فى ملحمة جاء فيها :

ياحمزة ياابن البسيونى — أعوانك يوما جلدونى
كتبوا فى جسدى ملحمة — بسياط الباغى المأفون
لادين لهم . . ولسيدهم — والظلم يعيش بلا دين !

وفى المعتقل عدد كبير من الوفديين ، وقد شاهد ليمان طره الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية السابق وعبد الفتاح حسن وزير الشئون الاجتماعية السابق ، فقد حكم عليهما الدجوى بالأشغال الشاقة المؤبدة فى مؤامرة ملفقة . . ومن الطريف أن عددا من الوفديين الذين اشتركوا فى جنازة النحاس باشا فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٦٥ قبض عليهم مساء يوم الجنازة ، ولا يزالون فى السجن حتى اليوم بغير محاكمة ، ولم يثبت أنهم نظموا الجنازة ، ولكن الأمر صدر بالقبض عليهم وابقائهم فى السجن عقابا لهم على أن الشعب أقام جنازة شعبية للنحاس باشا !

وفى السجن عدد من الشيوعيين . . وعدد آخر من مختلف الاتجاهات يسمونه « النشاط المعادى » . . وهكذا فإن مصر ممثلة خير تمثيل فى ليمان طره ! وإذا رأت الحكومة أن تؤلف جبهة قومية لمواجهة الموقف فلن تتعب فى البحث عنها فهى موجودة فى زنازين الليمان !

وقد التقيت فى مستشفى الليمان بالنائب الوفدى السابق الاستاذ الدرملى فأخبرنى أنه يوم أن فرضت الحراسة عليه كانت زوجته وأولاده فى قريته ببنى سويف ، وكان هو فى القاهرة . وجاءت قوة من البوليس الحربى واقتحمت داره في القرية واستولت على كل مالدى زوجته من نقود ومجوهرات . ثم رأى الضابط خاتما فى يد زوجته وحاول أن يخلعه فقالت أن هذا خاتم زواجى فنهرها وقال أن الأوامر أن نجردك من كل شيء ! وحاول أن يجذب الخاتم الذهبى فلم يخرج من أصبعها ، فقال لها أمامك ثلاث دقائق أم أن تنتزعى الخاتم من أصبعك . أو أقطع أصبعك وآخذه هو والخاتم ! .

وأخذت الزوجة المسكينة تجذب الخاتم ، حتى انتزعته مع بعض لحم أصبعها وقدمته له ملوثا بدمها !

ثم قال لها الضابط : أن الأمر يقضى بأن أقبض عليك أنت وأطفالك . وأن تغادروا القرية . . فجزعت الزوجة وقالت أن زوجها فى القاهرة ولاتعرف عنوانه

هناك ولاتستطيع أن تترك بيتها بغير أذنه . فجذبها الضابط ودفع الأطفال خارج البيت ، وأقفله بالشمع الأحمر ، ثم وضعهم فى سيارة بوكس فورد حملتهم الى القاهرة . وتوقفت السيارة فى ميدان التوفيقية ، وطلب منها الضابط النزول هى والأطفال . .

وكانت الساعة الثانية صباحا ! . .

ومشت الزوجة هائمة فى الشوارع . لأنها لاتعرف اسم الفندق الذى يقيم به زوجها . .

ومشى خلفها الاطفال يبكون !

واستمروا يهيمون فى شوارع القاهرة الى أن أشرقت الشمس وهنا تذكرت الزوجة أن لها أقارب فى القاهرة ، فمشت على قدميها أكثر من ساعة ونصف حتى وصلت الى بيت أقاربها . . ذلك لأن الضابط الشهم لم يترك لها قرشا واحدا أجر الترام ! .

محاولة قتل مسجون سياسى

أخى العزيز . .

١٤ يوليو سنة ١٩٦٨

بين المسجونين معنا مسجون اطلقنا عليه اسم « شنبو » تيمنا بقصة أحمد رجب فى الأذاعة بعنوان « شنبو فى المصيدة » . كان ضابطا فى القوات المسلحة وعمل فى البوليس الحربى ، وأتهم بتهديد الراقصات فى الكباريهات فطرد من الخدمة ، وسافر إلى أسرائيل وأدعى أنه عالم مصرى فى الصواريخ واحتفلوا به ثم اكتشفوا أمره فطردوه ، ولجأ إلى الأردن ، وأدعى أن لديه تنظيما فى الجيش قادرا على عمل انقلاب ثم عرفوا أمره ، فهرب الى بيروت وبلغت سذاجة مخابرات صلاح نصر أن صدقت ادعاءاته ، وتوهمت أنه شخصية خطيرة فأرسلت عددا من ضباط وجنود المخابرات الى بيروت ، وخدروه بمادة مخدرة ، ثم شحنوه فى صندوق فى احدى سيارات السفارة المصرية الى القاهرة ، وتكلفت هذه العملية الدولية حوالى مائة الف جنيه بينما لو كانت أعطت هذا الشاب مائة جنيه لعاد إلى القاهرة من تلقاء نفسه . ولكن المثل الذى يقول « رزق الهبل على المجانين » كان شعار الدولة فى وقت من الأوقات . المهم أنه حكم على هذا الشاب وهو مختل القوى العقلية بالاشغال الشاقة المؤبدة !

والغريب فى عقلية هذا الشاب أنه يؤمن بأن « التلفيق » هو أساس الملك ! وأن كل كبار رجال الدولة وصلوا الى مناصبهم بالتلفيق . ويعتقد أن عمل المخابرات هو التلفيق ، ولهذا لاعمل له فى السجن الا تلفيق التهم والاكاذيب حتى يعتقد الجميع أنه من رجال المخابرات !

والغريب أيضا أن هذا المجنون عاقل فى أمر واحد ، وهو يعتقد أن الدولة

تريد تعذيب المسجونين السياسيين ، وأن تنكد عليهم الحياة ، وأن تجعل حياتهم لاتطاق فى زنازينهم ، ولهذا فهو يقوم بهذه المهمة خير قيام بالنيابة عن الدولة ! .

حدث مرة أن جاء النوبتجى الذى يتولى بريد المسجونين ، جاء يوزع الخطابات على المسجونين السياسيين وفوجئت بهذا الضابط المسجون يقول لى : سأذهب الأن لاقدم بلاغا ضد موزع البريد لأنه يتاجر فى الحشيش !

وسألته : هل يتاجر فى الحشيش ؟

قال ببساطة . لا . . ولكنه سلم خطابات المسجونين المدنيين اليهم قبل أن يسلمنى خطابى . . والمفروض أن المسجون العسكرى أعلى مقاما من المسجون المدنى ! .

وفعلا قدم البلاغ الكاذب ضد المسجون البرىء !

وقامت الدنيا وقعدت . وحفظ البلاغ بعد أن عرف المسئولون فى السجن أن الذى قدم البلاغ هو مديرعام التلفيق .

وكثرت اعتداءاته على الضباط والاطباء والمسجونين فتقرر وضعه بعيدا عنا فى سجن التأديب ! ولكن ولاة الأمور أعادوه ليعيش معنا ، لانهم علموا أنه يعكنن علينا الحياة ، فآثروا أن يبقى ليستمر فى مهمته ويقوم بها خير قيام .

ثم حدث أن رأى أحد المسجونين السياسيين فى المستشفى وهاجمه بآلة حادة فى أنفه ، وقال لزملائه أنه فعل ذلك لانه علم أن كل من يقتل مسجونا سياسيا يصدر له قرار جمهورى بالعفو عنه على الفور .

ثم حدث أن قدم بلاغا يقول أننى أنا وعددا من المسجونين السياسيين وضابط العنبر اقتحمنا زنزانته وقيدناه وأن الضابط قام بحرق ظهره بالسجائر المشتعلة . . والغريب أن وزارة الداخلية تصورت أن الهضيبى الذى يبلغ من العمر ٧٥ سنة وانا عمرى ٥٤ سنة وغيرى من المسجونين السياسيين نهاجم شابا قوى

العضلات ونقوم بتعذيبه ، واذا بمصلحة السجون ترسل وكيل المصلحة للتحقيق معنا ، وهى تعلم طبعا أن البلاغ كاذب ، ولكن التعليمات العليا هى جعل حياة المسجونين السياسيين لا تطاق .

واذا بأحد المسجونين العاديين الذى يجاوره فى زنزانته يعترف بأن شنبو أعطاه خمس علب سجائر ليطفىء السجائر فى ظهره حتى يدعى أن ضابط السجن هو الذى قام بتعذيبه ! وجاء كبير الاطباء . وأثبت أن كل الاصابات فى شنبو مفتعلة !

ولكنى أصررت على أن يجرى تحقيق بمعرفة النيابة فى هذا البلاغ الكاذب ، وقلت أنه لو ثبت أن المسجونين السياسيين فعلوا فى « شنبو » مايدعيه فهذا دليل على أنهم جميعا مجانين ويجب أحالتنا كلنا الى مستشفى المجاذيب . واذا ثبت أن شنبو كاذب فيجب احالته الى مستشفى المجاذيب . واذا لم تفعل ادارة السجن شيئا فيجب أن تحال الادارة الى مستشفى المجاذيب .

ولكن ادارة السجن لم تستطع أن تفعل شيئا .

كل ماحدث أن مدير السجن قال لنا أنه مجنون !

ومادام هو مجنونا فلماذا تبقونه مع المسجونين السياسيين فى طابق واحد ! قالوا أنها الأوامر !

وكان أغرب مافعلوه أنهم وضعوه بجوار المسجون السياسى الذى حاول أن يقتله قبل ذلك . ثم نقلوه الى زنزانة أمامه ، بعد أن أحتج على وضع القاتل بجوار القتيل .

ثم حدث أن فوجىء المسجونون السياسيون بصدور أمر بأن يوضع معنا فى نفس الطابق المخصص للسياسيين مجرم قتل أحد أصدقائه ليسرق منه خمسة وعشرين قرشا ومزق جثته الى قطع صغيرة وأحرقها ، وحكم عليه بالسجن المؤبد !

ودهش المسجونون السياسيون لهذا التصرف الغريب . . وقالت الادارة فى تبرير هذا التصرف أنه مجرم كثير الشكاوى والاتهامات ، وأنهم وضعوه معنا حتى يمتنع عن الشكوى من ادارة السجن ! ولكن هذه الأجابة أثارت ريبة المسجونين السياسيين وشكوكهم . . وأرادوا أن يحتجوا على هذا فقلت أن أحتجاجنا لن يفيد أحدا سوى الذى أصدر هذا القرار المجرم . اذا كان هو مدير مصلحة السجون فسيرقى وكيلا للداخلية ، واذا كان وكيل الداخلية فسيرقونه وزيرا للداخلية فاذا كان وزيرا للداخلية فسوف يرقونه رئيسا للوزراء لأنه نكد الحياة على المسجونين السياسيين .

وبدأ المسجون القاتل يقوم بمهمته المكلف بها . فى كل مساء عندما يهدأ كل شىء فى العنبر يصعد على نافذة زنزانته ويصيح :

ـ أيها المسجونون السياسيون ! ياكلاب ياخونة ياأعداء الوطن ثم يوجه اليهم شتائم وسبابا وكلمات قذرة لاتكتب !

وكنت أتحمل هذه الشتائم كل ليلة ، وأقول لزملائى أنه لابد أن يتعب فى يوم من الأيام ويكف عن الشتائم ، أو أنه سيتوقف عن الشتائم عندما يكتشف أنهم لم يدفعوا له الثمن المطلوب وهو الافراج عنه . وكانوا يثورون عليه ، وكنت أقول لهم أن الذنب ليس ذنبه . وانما ذنب الذين ظلمونا ووضعونا فى هذا المكان . واذا كنت سامحت الذين حكموا على ظلما . فلماذا لا أسامح الذى يشتمنى ظلما .

وبعد أيام ذهلنا عندما سمعنا المسئولين فى السجن يقولون فى أذاعة السجن أن هذا المسجون ـ المسجون الذى يشتمنا كل ليلة ـ هو المسجون النموذجى فى الليمان ! .

ولم أصدق أذنى عندما سمعت هذا الكلام فى أذاعة السجن واذا بإدارة السجن تقوم بعمل شريط لهذه الخطبة العصماء ، وتقوم بأذاعة الشريط كل يوم . وكأنه أخر أغنية من أغانى أم كلثوم

وأعتقد المسجون القاتل أن هذا النطق الملكى هو أمر له بأن يضاعف شتائمه وسبابه ضد المسجونين السياسيين !

وثار المسجونون العاديون على التعذيب اليومى .

وأرسل لنا مأمور العنبر رسولا يقول لنا أن علينا أن نعطى المسجون القاتل سجائر وطعاما حتى يكف عن سبنا .

وشكرنا الضابط على نصيحته « الغالية » . وقلنا له أن الشتائم أرخص كثيرا من السجائر فى السجن ، وما لدينا منها لايكاد يكفينا ، وأننا إذا فتحنا هذا الباب فلن ننتهى ، وأننا لانقبل أن ندفع للمسجون القاتل الجزية التى كانت تدفعها الدول الصغرى للدول الكبرى !

وتضاعفت شتائم المسجون القاتل أكثر وأكثر .

ولم تحتمل أعصاب أحد المسجونين السياسيين ، وهو الضابط البحرى أحمد لطفى ، الذى كان ياورا للرئيس محمد نجيب فى أول الثورة ، فرد على المسجون بعنف .

وتدخل الضباط وصالحوا الاثنين ، واعتذر المسجون القاتل للسجين أحمد لطفى وقبل رأسه .

وعندما قص على أحمد لطفى ماحدث قلت له : انى لااطمئن الى هذا الصلح وأتوقع غدرا !

وكانت الأخبار تجىء الى المسجونين السياسيين بأن « شنبو » يحرض هذا المسجون القاتل على أن يذبحنى بسكين ، ويؤكد له أن قتل المسجون السياسى خدمة عظيمة للدولة ، وأن من يفعل هذا سينال عفوا شاملا ، وأن بعض الوزراء الحاليين لم يصلوا الى مناصبهم فى الوزارة الا لانهم قتلوا بأيديهم مسجونين سياسيين !

وأقترح أحمد لطفى على المسجونين السياسيين ، بطيبة قلبه ، أن ندعو السجين القاتل ليشاركنا طعامنا . ونعطيه سجائر ، باستمرار . وبذلك ننتزع السم الذى فى أنيابه ، ونعالج الحقد الذى يملأ قلبه .

ورفض المسجونون السياسيون اقتراح أحمد لطفى .

وأصر أحمد لطفى الطيب القلب على أن يتولى هو وحده تنفيذ اقتراحه ، على الرغم من سوء حالته المالية .

وفى صباح اليوم التالى كان أحمد لطفى يتمشى معى أمام الزنزانة ، ثم تركته لاتناول طعام افطارى فى زنزانتى . واذا بى أسمع صراخا . وتركت طعامى وأسرعت الى خارج زنزانتى ، فوجدت المسجون القاتل ينقض على أحمد لطفى ويحاول ذبحه بسكين !

فقد جاء السجين القاتل وحيا زميلنا أحمد لطفى قائلا له : صباح الخير . .

ورد أحمد لطفى : صباح النور .

ومضى أحمد فى طريقه . واذا بالمسجون القاتل يخرج من جيبه سكينا كبيرا . ويهاجم أحمد لطفى من الخلف ، ويطعنه طعنات متوالية ، ويسقط أحمد لطفى على الأرض ، ويبرك السجين القاتل فوقه يحاول أن يذبحه بالسكين .

ووجدت دما يغطى مساحة طولها متر وعرضها متر من أرض الردهة الخارجية لزنزانتى . وتجمع المسجونون والسجانون حول المجرم ، وانتزعوا منه السكين ، وهو يصر على الاجهاز على أحمد لطفى ذبحا . . أحمد لطفى الذى كان يصر من بضع ساعات على أن يقتسم طعامه وسجائره مع الذى يريد أن يذبحه .

ورأيت جثتى مكان جثة أحمد لطفى ! كان المفروض أن تكون هذه الطعنات فى أنا ، لولا أننى دخلت زنزانتى قبل الحادث ببضع ثوان . . ولولا ذلك لاصبت بعدد من الطعنات ، وشاركت أحمد لطفى فى المذبحة ! .

وكان من حسن الحظ أن بين المسجونين السياسيين طبيبا نابغة هو الدكتور محمد حلمى عفيفى ، المحكوم عليه بالسجن عشر سنوات ، وأسرع يحاول وقف النزيف . . واذا به يكتشف أن طعنه السكين العميقة تبعد عن القلب بنصف سم ، ولولا هذا النصف سنتى لمات هذا الشاب المسكين .

ونقل أحمد لطفى الى مستشفى السجن حيث أسعف بالعلاج . وتصادف أن كان هذا اليوم ، هو أول يوم فى أيام أجازة مدير الليمان فى الاسكندرية ، وفوجئت بمحاولة للتستر على الحادث !

فقد اتجه رأى بعض الضباط الذين يهمهم رضاء ولاة الأمور الى كلفته الموضوع .

أن مايهم بعض رجال الشرطة عندنا حينما يقع حادث أن يتخلصوا من المسئولية ، حتى لايمسهم التحقيق من قريب أو بعيد ، والا يخصم من عسكرى أهمل فى واجبه . هذا هو المهم . . أما حياة المعتدى عليه نفسه ، وجريمة المجرم الذى شرع فى قتل أحد زملائه فهى مسألة ثانوية جدا . تجىء بعد أن تتخلص الوزارة من المسئولية تتخلص المصلحة من المسئولية ويتخلص الضباط والصولات والباشجاويش والعساكر من المسئولية . حياة المسجون السياسى لاتساوى خصم يوم من مرتب عسكرى !

ولهذا بدأت المحاولة تتجه الى « لم المسألة » . لتصغير الشروع فى قتل انسان الى خناقة عادية . وتضاءل السكين الى موسى حلاقة ـ وتضاءلت الجروح القاتلة الى جروح سطحية لاتستدعى علاجا أكثر من ٢٠ يوما . ومادامت الجروح لاتحتاج لعلاج أكثر من ٢٠ يوما فلا داعى لابلاغ النيابة .

وذهب الضابط ليسمع أقوال أحمد لطفى الجريح ، ورفض أحمد أن يتكلم ويصر على أنه لن يتكلم الا أمام النيابة العامة . وبذلت محاولات متعددة معه ، واضطر المسكين وهو فى حالة اعياء وضعف نتيجة النزيف الشديد أن يعدل عن التمسك بحضور النيابة . ولم أستطع أن أسكت ، وأنا أرى هذا التزوير يرتكب

أمامى ، كان بحر الدم لايزال كما هو أمام زنزانتى ينادينى بأنه لابد أن أتحرك وأفعل شيئا !

قلت : أننى لايمكن أن أسكت على الجريمة الجديدة ، المراد بها طمس الجريمة القديمة . وأصررت أن أقابل مدير الليمان بالنيابة وقلت لهم أننى أعتبر أن القاتل الحقيقى هو وزير الداخلية . ومصلحة السجون هى شريكة للقاتل ، لانها هى التى أمرت أن يقيم هذا القاتل مع المسجونين السياسيين ، وشجعته على أن يسب المسجونين السياسيين كل ليلة ، وحرضته عندما أثنت عليه ادارة السجن فى أذاعتها بعد أن شتمنا وقالت أنه سجين نموذجى !

وزارة الداخلية هى التى أعدت الجريمة وأشتركت فيها عندما وضعت مجرما قاتلا بين المسجونين السهاسيين .

أنها هى التى أبقت المسجون القاتل فى الطابق الذى نقيم فيه وأعتبرته مسجونا سياسيا ، بعد أن أمر طبيب السجن الدكتور أحمد كمال باخراجه من هذا الطابق قبل الحادث بثمان وأربعين ساعة ، وأعطى هذا الأمر كتابة ، فلم تنفذ تأشيرة الطبيب المسئول .

أن وزارة الداخلية هى التى أحضرت المسجون « شنبو » الذى حاول أن يقتل أحد المسجونين السياسيين ، ووضعته فى الزنزانة المجاورة للمسجون الذى حاول شنبو أن يقتله قبل ذلك بأسبوعين . كل هذا يثبت أن وزير الداخلية شريك فى حادث الشروع فى القتل . .

ورجانى بعض الضباط أن اهدأ ، وأكدوا أن الادارة ستتصرف فورا . فقلت أننى مستعد أن أهدأ بشرط أن تكتبوا تعهدا بالمحافظة على حياة المسجونين السياسيين . . أننى أخشى أن يتحول التحقيق من : « لماذا قتلت المسجون السياسى » الى « لماذا فشلت فى قتل هذا المسجون السياسى » . . كل شىء أمامى يدل على أن الدولة متلبسة فى جريمة الشروع فى قتل مسجون سياسى ! . . والدولة لها سوابق فى هذا الموضوع .

وبدأ التحقيق فاذا به يسفر عن أشياء خطيرة . شهد عدد من المسجونين أنهم رأوا هذه السكين مع شنبو قبل الحادث بيوم . وشهد مسجونون آخرون بأنهم رأوا شنبو يسلم السكين للقاتل فى ليلة ارتكاب الحادث . كما شهد مسجونون غيرهم بأنهم سمعوا شنبو يقول للقاتل : شد حيلك ياسعادة البيه وخلص عليهم . . وأنا تحت أمرك ! .

ووضع المسجون القاتل فى مبنى التأديب . كما وضع المسجون شنبو فى نفس المبنى .

ولكن وزارة الداخلية منعت السجين من ابلاغ النيابة .

وأستطعنا أن نهرب برقية الى النائب العام بأمضاء أحمد لطفى نطلب فيها التحقيق وارسال رئيس النيابة الى السجن .

ولا أعرف ماذا سيحدث ؟

هل سيمنع وزير الداخلية رئيس النيابة من الذهاب إلى السجن ؟ .

هل سيخرج القاتل من التأديب ويعود الى عنبرنا يشتم المسجونين السياسيين من جديد ويحاول ذبحهم من جديد .

هل سيعاقب القاتل لانه فشل فى قتل المسجون السياسى . مسكين هذا القاتل الفاشل . . ربما لو نجح فى قتل زميلنا أحمد لطفى لاصبح وزيرا ! .

الغريب . . الغريب أن الكلمة المجنونة التى قالها شنبو عن الذين قتلوا مسجونين سياسيين وأصبحوا وزراء . . هى حقيقة تاريخية !

وفى يوم من الأيام سوف تتكشف كثير من الأسرار التى مازالت وراء الستار ! .

كلنا شركاء فى الجريمة

٢٠ يوليو سنة ١٩٦٨ .

أخى العزيز . .

اليوم تنتهى السنة الثالثة لى فى السجن ، وغدا تبدأ السنة الرابعة .

احمد الله كثيرا على أنه أعطانى كل هذا الايمان والصبر والاحتمال ! عندما أنظر خلفى أشعر بدهشة كيف أستطعت أن أحتمل كل ما أحتملت من ظلم وتعذيب وسجن وتنكيل .

الله يعطى عندما يأخذ . وقد أعطانى من الايمان والصبر والاحتمال مايذهل جميع المسجونين والحراس والضباط . . وما يذهلنى أنا أيضا .

ترى كم سنة أخرى سوف أستطيع أن أحتملها ! ؟ لاأعرف.. ولكننى مصمم على أن أستمر أقاوم ، بقائى حيا هو نوع من المقاومة . فعلوا كل شيء بالمسجونين السياسيين ليقضوا عليهم ، فلما عجزوا دفنونا أحياء . وهم يتوهمون أنهم أنتهوا منا ولن تقوم لنا قائمة ، وأنا أقول لزملائى أن بقاءنا أحياء هو مظاهرة يومية بسقوط الطغاة ، فيجب أن نبقى أحياء لكيلا ينقص عدد المشتركين فى المظاهرة ! وفى كل يوم يجيء لنا مسجون سياسى جديد . فالقضايا لاتنتهى والتلفيقات لاتنتهى . وأنا أشبه الحكومة والشعب الأن بالقصة التى كان يرويها عمر بن الخطاب وملخصها أنه رأى امرأة جالسة مع أولادها وأمامها نار مشتعلة عليها قدر مغطاة وأطفالها حولها ينتظرون ، وكشف عمر الغطاء عن القدر فوجد ماء ولم يجد طعاما . . وسألها عن السبب . . فقالت الأم أنها تغلى الماء حتى توهم الاطفال أنه طعام فيصبرون على الجوع ! والحكومة توهم الشعب أنها

تستعد للحرب فى أى لحظة . . ولا يوجد عندنا عمر بن الخطاب ليكشف عن غطاء القدر !

أنتقلت من الزنزانة التى كنت بها فى الجهة القبلية الى زنزانة أخرى بالجهة البحرية تماما كما كانت الحكومة تنتقل فى الصيف من القاهرة الى مصيفها فى الاسكندرية . كان الحر لايطاق فى زنزانتى . حمو النيل ملأ كل جسمى حتى كنت أشبه بالمريض بالحصبة عجزت المراهم والبودرة عن القضاء عليه . كنت أستيقظ فى منتصف الليل فأجد سريرى تحول الى بركة سباحة من العرق ، فاضطر الى تغيير الملاءة وتغيير ملابسى ، وتتكرر المأساة وفى بعض الليالى أحس أننى أكاد أختنق . وكنت أنتظر بفارغ الصبر فتح باب الزنزانة فى الصباح لاخرج الى الردهة الخارجية واستنشق نسمة هواء . ومن الغريب أننى أمضيت صيفية قبل هذا العام فى نفس الزنزانة ولم أشعر بهذه الحرارة وهذا الاختناق . ولا أعرف هل السبب هو تقدم السن أو تأخر الصحة . . أو هو سوء الجو فعلا . . وأخيرا وافق طبيب السجن على انتقالى الى زنزانة فى الجهة البحرية ، ووافق مأمور السجن ، ووافق مدير السجن ، ووافق مدير المصلحة ، ووافق مدير المباحث العامة ، ووافق وزير الداخلية .

وكان الأمر يقتضى أن أقوم بعملية تنظيف واسعة النطاق ، كما تفعل الحكومة الجديدة عندما تحل مكان الحكومة القديمة ! وكان الجو فى الزنزانة الجديدة يختلف عن الجو فى الزنزانة القديمة كانت زنزانتى الأولى تطل على زنزانات أخرى . السجن ورائى وأمامى ! أما نوافذ زنزانتى الجديدة فهى ترى الشارع بعيد . أستطيع لأول مرة منذ ثلاث سنوات أن أرى المارة فى الشوارع ، أن أرى مترو حلوان ، أشهد السيارات والدراجات وعربات الكارو .

أرى من بعيد آنسة ترتدى المينى جيب وبجوارها سيدة ترتدى الملاية اللف . شعرت كأننى أطل على الحياة من جديد . ثلاث سنوات لاأرى الناس الطلقاء ! رأيت رجلا حافيا يرتدى جلابية . حسدته على حفائه وهو يمشى فى أرض الحرية . ماقيمة حذائى وأنا أدوس به على أرض السجن . هذا الرجل ينتقل من

رصيف الى رصيف ، وأنا لاأستطيع أن أنتقل مترا الا بعد أن أستأذن ! هذا الرجل يمشي وحده . وأنا لاأستطيع أن أسير الا وأمامى حارس وخلفى رقيب ! وتمنيت أن أعيش الى اليوم الذى أستطيع أن أمشى فيه على أرض الحرية حتى ولو كنت حافى القدمين ! .

ثم ساءلت نفسي مايدريني أن هذا الرجل لابس الجلابية حر ؟ هل كل الذين خارج السجون أحرار ؟

ما أكثر أشكال الزنازين التى يجد فيها الناس أنفسهم .

ربما كان بعضها أضيق من زنزانتى ! مابال خطوات الرجل متعثرة . الرجل الحر يكون واثقا من نفسه وخطواته ثابتة !

أيكون مقيدا بقيود غير منظورة لاأرها من بعيد .

هل يكون كل هؤلاء المارين فى الشارع أمامى سجناء من أنواع مختلفة ؟ !

بعضهم سجناء الاستبداد ، وبعضهم سجناء الهزيمة . وبعضهم سجناء الخوف . الناس لم تعد هى الناس التى كنت أعرفها . على وجوهها كآبة غريبة . كل واحد منهم أشبه بجيش مهزوم أو شعب مقهور . كأن تعاسة الأمة كلها حلت فى كل رجل وكل امرأة . لاأرى فى الشارع المرح الذى كنت أراه فى الشوارع فى السنوات الخالية . وجوه مكفهرة . قسمات واجمة . نظرات حزينة . لاأحد يضحك . زاد عدد الناس فى الشوارع . تضاعفت أحزانهم ومآسيهم وخيبة آمالهم وأقفلت نافذتى بورق كارتون . وتحسرت على نافذة زنزانتى الأخرى التى تطل على زنازين السجن ! .

الشعب كله مسجون . . كله محكوم عليه بالسجن المؤبد والأشغال الشاقة المؤبدة . ليس فينا أحد برىء ! كلنا شركاء فى الجريمة . . كلنا أشتركنا فى صنع السلاسل التى قيدنا بها . فى صنع السوط الذى ألهب ظهورنا . فى صنع الصنم

الذى حكم علينا بالاستعباد ! جريمتنا كانت كبيرة ، ولهذا كان عقابنا هائلا !

وأستطعت أن أرقد فى فراشى دون أن أحس لأول مرة بمطر العرق ينهمر على وجهى وجسمى كله ، ولم أغير الملاءات ولا ملابسى الداخلية ولا الخارجية . . وفوجئت أثناء الليل بزائرتين غير منتظرتين . وهما بقتان . ظهرت البقة الأولى على النافذة والبقة الثانية على الباب . وهكذا أصبحت محاصرا من جميع الجهات . شعرت أننى أواجه كارثتين فى وقت واحد . لو كان من الممكن فتح باب الزنزانة فى الليل لهرولت الى زنزانتى القديمة مفضلا الحر القاتل على حشرة البق . وأمضيت الليل كله فى قتل البق . اكتشفت أن البقتين اللتين رأيتهما أولا كانتا عبارة عن وفد رسمى أرسلته جيوش البق الموجودة فى الزنزانة لترحب بمقدمى السعيد !

وما أن أنتهيت من القضاء على البق ، حتى فوجئت بجيش من النمل . نعم جيش . لانملة ولا خمس نملات ولا عشر ولا مائة . أنما هى كتائب وألوية وفرق ! .

وأعلنت الحرب على النمل ، ثم فوجئت بزحف جيش آخر من الناموس والذباب ورحت أقاومه بالفليت وجميع المبيدات الحشرية . . واحترت فى الصباح بين أن أعود الى الحر الملعون فى زنزانتى القديمة أو أن أبقى مع الحشرات فى زنزانتى الجديدة . وفضلت أن أبقى فى الزنزانة الجديدة لأستطيع أن أطل على الطريق فأرى وجوه المارة . وأتخيل أن هذا الأب سيلتقى بعد دقائق مع أولاده ، وهذا الولد سيجتمع بعد وقت قصير مع أمه . وأغبط الناس الذين يستطيعون أن يروا أهلهم وأحباءهم واصدقاءهم مرة كل يوم وكل ساعة . كل المتاعب تهون مع الحرية . وأسمع من بعيد نبض الشارع . الشارع يتحرك . يتكلم . يرقص . يضحك . فيه حركة وفيه حياة . وأتلفت الى الزنازين فاذا بها أشبه بالقبور . صامتة . خرساء . حزينة . مقبضة فيها طعم الموت ورائحته ورهبته .

لقد جاء المخرج حلمى رفله الى السجن ليصور فيلما للتليفزيون . ماكاد يرانى

بملابس السجن حتى أنهار وبكى . . ودعوته الى الصعود من الطابق الأول الى الطابق الرابع لأتحدث إليه . . ووضع قدمه على درجات السلم وكأنه يضع قدمه على سلم المشنقة . وماكاد يصعد درجتين من السلم حتى تراجع رعبا وعاد أدراجه ! .

وأكتفيت بأن اتحدث الى حلمى رفله بالاشارة ! وفهمت أن الحكومة اشترطت لعرض فيلم معبودة الجماهير الذى ألفته ، ومثله عبد الحليم حافظ وشادية أن يحذف اسمى من الفيلم .

وقال حلمى رفله أنه يخشى لو حذف اسمى أن أرفع عليه قضية وأطالبه بتعويض عشرة آلاف جنيه لانه حذف اسم المؤلف . . وأشترط أن تصدر الدولة أمرا كتابيا برفع اسم المؤلف من الفيلم ! .

وسلمته الدولة الأمر الكتابى . . متصورة أنها أخفت الى الابد اسمى من الدنيا والأخرة .

المساكين لايعرفون ان ليس فى يد انسان أن يملك الى الابد الدنيا والأخرة ! .

فان الله لن يتخلى عن المظلومين حتى لو كانوا ظلموا بقرار جمهورى

يسقط الظلم !

٢١ يولية سنة ١٩٦٨

أخى العزيز

أحتفلت منذ بضعة شهور بمرور الف ليلة وليلة فى السجن . مضى على الآن الف ليلة وليلة وفوقها ثلاثة أشهر فى السجن . ولم أتنبه الى الموعد الا بعد أن فات الميعاد ، وفى يوم الاحتفال حدثت أشياء لاتخطر على البال . أحد المسجونين معنا فى العنبر أشعل فى نفسه النار ، ومات محترقا على طريقة كهنة البوذيين فى فيتنام . كان منظرا يفتت الاكباد أن ترى رجلا تحول الى كومة من رماد . هو مسجون محكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . أمضى فى السجن ١٤ عاما ، وبقى له عام واحد ليخرج بالعفو عن المسجونين الذين أمضوا نصف المدة وكانوا حسنى السير والسلوك . شعر المسكين أنه مظلوم ومضطهد . . احتمل ١٤ عاما فى السجن ، ولم يستطع أن يحتمل سنة واحدة من الظلم .

جريمته أنه وجد « البرش » الذى ينام عليه فى الزنزانة ممزقا ، ووجد زملاءه الثلاثين معه فى زنزانة واحدة ينامون على أبراش مهترئة ينفذ اليها من بلاط الزنزانة البرد القارص والروماتيزم الملعون . وطالب المسكين بأبراش سليمة فلم يستمع أحد لطلبه . وفتح مخزن الأبراش . وأخذ منه ثلاثين برشا جديدة وزعها على زملائه في الزنزانة الذين يكاد يفتك بهم البرد . وجرى تحقيق كيف يجرؤ هذا المسجون الوقح على أن يدخل الغرفة المقدسة بدون اذن . كيف يجرؤ على أن يوزع الأبراش الجديدة وينقذ زملاءه من الموت والسل ! وأمرت مصلحة السجون بعقابه بوضعه فى زنزانة فى الطابق الأسفل فى عنبرنا أشبه بالجب . طولها متر ونصف وعرضها متر . لاتدخلها الشمس ولا الهواء ، وليس فيها نور كهربائى . وأعترض المسجون المسكين على هذا الحكم الجائر . وقيل له أن

حكم مصلحة السجون هو حكم نهائى لايقبل الاستئناف أو النقض والابرام . هو حكم الهى . وقال المسجون للضابط أنه لايستطيع الحياة فى هذا الجب ، وسوف يقتل نفسه ، لعله بهذه الطريقة يستطيع أن ينبه الغافلين ويوقظ النائمين ، ويوصل صوته ميتا الى آذان الذين أبوا أن يسمعوا صوته حيا ، وضحك الضابط والحراس ساخرين من هذا التهديد .

بعضهم لم يصدق أنه جاد فيما يقول ، وبعضهم صدق ولم يهتم بما سوف يحدث . . ماذا لو أن عدد المسجونين نقص منه مسجون واحد من بضعة آلاف . .

وجاء المسجون بأناء فيه غاز ، وسكبه على نفسه ، وأشعل النار كانت زنزانته مغلقة ، وسمعنا صراخا من المسجونين ، ودخانا يتصاعد ورائحة اللحم المشوى .

وأسرع الحارس بفتح باب الزنزانة وحاول أطفاء النار ، وحمل المسجونون بقايا جثة زميلهم الى مستشفى السجن ، وهرول الأطباء يحاولون انقاذه ، وسألوه لماذا أنتحر؟ فقال أنه أنتحر لأن مصلحة السجون هى التى قتلته بأجراءاتها الظالمة وأسلم الروح ! وبدأت عملية توضيب شهود الزور . الضابط يلقن العساكر مايقولون ، والعساكر يلقنون المسجونين مايقولون ، وهكذا تم طبخ محضر التحقيق .

وتحول السجن كله الى مأتم . كل واحد منا يجلس منكس الرأس فى زنزانته وكأنه يشيع جنازة . هذا المسجون مات من أجل كل واحد منا . فى أى بلد آخر كان وزير الداخلية ينتقل فورا الى السجن . كانت الصحف تنشر النبأ فى الصفحة الأولى . كان هذا الحادث كفيلا بأن يثار فى البرلمان ويطالب بتأليف لجنة برلمانية للتحقيق عن الحالة فى السجون . شىء من هذا لم يحدث . أحسست أن بعض الحراس فقدوا فى عملهم فى السجن كل ذرة من الانسانية . كانوا سوف يتأثرون لو أن الذى قتل هو كلب مدير السجن أو قطة المأمور ، أو بطة من عهدة

البط الذى يتولى السجن تربيته فى الليمان ! عدد قليل من الضباط والحراس أبدى تأثره وحزنه وألمه لهذا الحادث البشع ، وأخشى عليهم أن ينقلوا من مناصبهم عقابا لهم على هذه الانسانية المخالفة للوائح والأوامر والتعليمات ! . .

وفى نفس اليوم ألقى مسجون نفسه فى عنبر آخر من الطابق الرابع فمات على الفور . لأنه عوقب فى السجن على جريمة لم يرتكبها . وقدمت أسرته بلاغا للنيابة تقول أنها تشك فى أسباب مقتلة ، وبدأت النيابة التحقيق . ولا أعتقد أن التحقيق سوف يؤدى الى أى شيء لأن فرقة شهود الزور بدأت تستعد للادلاء بأقوالها فى التحقيق !

وقبل ذلك بيومين سقطت مادة حارقة على اثنين من المسجونين الذين يعملون فى مصنع الصابون بالليمان ، فاحترقا وماتا على الفور .

ولم يكلف أحد نفسه بأن يحقق ليعلم بأن الاشتراطات الصحية غير متوافرة فى المصنع .

ومن المفارقات الغريبة أنه لو وقع هذا الحادث فى أى مصنع خارج السجن لدفع المصنع تعويضا لأسرة المقتولين ، ماعدا الليمان ، فان لوائح السجن تقول أن مصلحة السجون غير مسئولة عن الذين يقتلون فى أثناء عملهم كمسجونين فى الليمان ! .

أننى أقرأ فى الصحف الانجليزية كل يوم مقالات وتحقيقات عن السجون والاهتمام بها والبحث عن شكاوى المسجونين ، ومما يؤسف له أن الصحف المصرية ممنوعة من التحدث فى هذا الموضوع الا اذا كان الحديث عن عبقرية مدير مصلحة السجون وابداء الاعجاب بالزيتون والصابون اللذين تصنعهما السجون وتهديهما الى بعض الصحفيين !

من رأيى أنه لايمكن اصلاح السجون الا اذا أصبح مدير مصلحة السجون هو أحد مستشارى محكمة الاستئناف ، ينتدب لهذا العمل ، بإعتبار أن المصلحة

تنفذ الحكم الذى أصدره القضاء . ومن رأيى أن يكون مدير السجن هو أحد القضاة . بل أننى أعترض على أن تكون السجون تابعة لوزارة الداخلية ، بل أرى أن تكون تابعة لوزارة العدل ، وأن يكون الحراس من المشرفين الاجتماعيين ، وأن تكون مهمة الجنود مقصورة على حراسة الاسوار من الخارج . أن الذى يجب أن يعلمه

الناس أن مدير مصلحة السجون فى عهود الاستبداد هو طرطور ، وأن ضابطا برتبة ملازم أول فى المباحث العامة يستطيع أن يعطى الأوامر الى سيادة اللواء مدير المصلحة ! .

وأن المباحث العامة هى التى تحكم السجون التى يوجد فيها مسجونون سياسيون ، حتى أنه فى بعض السجون لايمكن نقل مسجون سياسى من زنزانة الى زنزانة أخرى الا بعد استئذان ضابط صغير فى المباحث العامة . وهكذا لاتنتهى سيطرة وزارة الداخلية على المسجون السياسى بالحكم عليه ، بل يبقى طوال فترة سجنه تحت رحمة وزير الداخلية . يستبد به ويتعنت معه ويضيق عليه الخناق كما يهوى ويشاء ! .

السجون فى بلادنا بأنظمتها الحالية هى جرائم يومية ترتكب بقرار وزارى .

ومن سخرية القدر أن وزير الداخلية الذى أصدر لائحة السجون الظالمة التى تطبق الأن على المسجونين هو عباس رضوان ، وهو الأن مسجون فى السجن تطبق عليه نفس اللائحة غير الانسانية التى أقرها .

وحياة المسجون الفقير فى السجن هى جزء من الجحيم . . علبة السجائر البلمونت هى جواز المرر دخول الجنة . يجب أن يدفع المسجون سجائر ليفتح الحارس له باب الزنزانة فى موعده . وإلا فإن السجان ينسى أن يفتح الباب ، ويجب أن يدفع المسجون سجائر للسجان لكيلا يغلق عليه باب الزنزانة قبل موعده . ويجب أن يدفع سجائر للكهربائى لكى تضاء زنزانته بالنور . فاذا لم يدفع لعب الكهربائى فى الاسلاك وانطفأ النور . ويجب أن يدفع سجائر

للممرض لكى يعرضه على الطبيب ويجب أن يدفع سجائر لرئيس الممرضين ليصرف له دواء . ويجب أن يدفع لمن يحمل له الطعام ليتسلم نصيبه كاملا والا لاعطاه قطعة من العظم أو طبقا من الفول مخلوطا بالسوس والطين . ويجب أن يدفع لمن يأتى له بخطابه والا فانه يخفيه ، ويجب أن يدفع لمن سيستلم الخطاب الذى يرسله الى أهله . ويجب أن يدفع للنوبتجى ليحمل جردل البول ويفرغه ، ويجب أن يدفع سجائر للحلاق الذى يحلق لحيته ، والا أصبحت له لحية مهيبة ! ويجب أن يدفع سجائر لحارس الليل حتى لايدق على باب زنزانته كل خمس دقائق ليسأله هل هو نائم أم متيقظ ؟ ويجب أن يدفع سجائر ليحتفظ بالبرش الذى ينام عليه .

وحدث فى هذا الأسبوع أن بعض المسجونين المعدمين وجدوا أن حياتهم فى السجن لاتطاق بغير سجائر . وأهلهم لايستطيعون أن يرسلوا لهم نقودا لشراء سجائر . وضاقت الدنيا بهم . وسرق بعض المسجونين سجائر من زملائهم ، فجاءوا بالمتهمين ومدوهم ، وراحوا يضربونهم ضربا مبرحا . كان صوت صراخهم يمزق قلبى ويحطم أعصابى . هذه الطريقة الوحشية فى سجوننا يجب أن تتوقف ومن الغريب أن ولاة الأمور يعتبرون هذه القسوة دليلا على الحزم ، وهذه الوحشية دليلا على القوة ، أن صوت الكرابيج لايرتفع الا اذا صمت صوت الشعب . وأنا أعتقد أن سبب انتشار الضرب فى السجون وفى أقسام الشرطة ، وفى غرف التحقيق سببه هو الحكم الفردى . الحاكم الفرد عادة ينعزل عن العالم . ونحن عندما نكون وحدنا نخاف . وهذا الخوف هو الذى يجعل الحاكم يقسو ويشتد ويضرب بالكرباج !

* * *

أرجو أن تعذرنى اذا وجدت خطابى مقبضا . هذا شعور طبيعى بالنسبة لنوع الحياة التى أعيشها فى السجن . عندما تتحطم جميع الجسور بينك وبين العالم . عندما تتمزق جميع العلاقات . عندما تنهدم كل الاحلام . عندما يرثيك الناس على قيد الحياة . عندما تصبح الاعلام مماسح تنظف فيها أحذية الحكام . عندما

ترفع أحذية الظالمين كالرايات ! عندما يصبح كوب الماء البارد الذى تشربه فى الصيف الحار مشكلة عويصة تستدعى التفكير والتدبير والمغامرة . عندما تشرب , فنجان القهوة وكأنك تسرق البنك الأهلى . . عندما تصبح أطول رحلة تقطعها فى حياتك هى نزولك من الطابق الرابع فى السجن الى الطابق الأول . عندما تزورك أسرتك مرة كل شهر لبضع دقائق . عندما تعرف أن عليك أن تنافق السجان الذى يسجنك ، وتسترضيه بدلا من أن تلعنه ، وتطيع أوامره بدلا من أن تثور عليه . عندما تصبح حياتك كلها هى الطعام الذى تأكله عندما تشعر أن الذين رفعتهم فوق رأسك داسوك بالأقدام . والذين دافعت عنهم أتهموك . والذين أحببتهم كرهوك ، والذين أنقذتهم من الهزيمة ألقوا بك الى هاوية العار . عندما يحدث للانسان كل هذا يفقد القدرة على الرؤية . يفقد القدرة على الحكم على الأشياء . ومع ذلك فأننى أحاول دائما أن أخرج رأسى من الوحل الذى أغوص فيه . أرفع رأسى لأرى الدنيا كما هى !

المظالم التى أراها حولى تجعلنى أشعر بالعجز من هولها ومن كثرتها كيف يمكن انصاف كل هؤلاء المظلومين ؟ هذه ليست مهمة فرد بل هو واجب شعب . . المظالم فى بلادنا تراكمت فوق بعضها البعض حتى أصبح الظلم هو القاعدة والعدل هو الاستثناء !

لايوجد فى الدنيا كلها بلد تدفع فيه رشوة لتنال حقك . المفروض ان من يدفع الرشوة يدفعها لكى يحصل على أكثر من حقه . وعندنا أصبحت الرشوة كورقة التمغة يجب أن تلصق بكل طلب ! .

ولا أوافق الذين يقولون أن القيم الاخلاقية انهارت فى بلادنا نتيجة الهزيمة ، بل أننى أرى العكس ، فان الهزيمة نتيجة أنهيار القيم الأخلاقية .

ولقد كان الرئيس جمال عبد الناصر يقول لى فى أول الثورة « لاأريد فراعنة يستبدون ولا أريد أرانب يخافون » !

ولكنه تحول الى فرعون ، وحكم الفرد لايكتفى بفرعون واحد ، بل يتفرع

منه فراعين . فنحن نجد أن فى كل ركن من أركان بلادنا فرعونا أو نصف فرعون أو ربع فرعون وأصبحنا كلنا أرانب ! .

وفي رأيي أن الطغيان هو الذى يحطم القيم العالية ، وينشر الاخلاق الفاسدة ينشر الجبن والكذب والنفاق والانانية والقسوة والغدر والملق والحسد والحقد . فهذه صفات الظلام ومواليد الظالمين ! .

وأعتقد أن الشورى أى الديموقراطية سوف تعيد لنا بعض مافقدناه في الظلام ، كالشهامة والفروسية والصدق والشجاعة والحب والصراحة والقناعة . .

وسوف يحدث هذا عندما لايبقى فى مصر فراعنة يستبدون . .

وعندئذ سوف تختفى الأرانب . .

لأن الأرانب هى ظل فرعون ! .

فى هذا الكتاب

كتب المؤلف

أمريكا الضاحكة ـ حياة طالب مفلس فى أمريكا .
الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت) .
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٣ ـ (نفدت) .
الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٤ ـ (نفدت) .
فاطمة . .
مثلتها للسينما أم كلثوم وأنور وجدى سنة ١٩٤٧ .
عمالقة وأقزام :
ساسة مصر قبل الثورة .
سنة ١٩٥١ ـ (نفدت) .
ليالى فاروق :
قصة حياة الملك السابق .
الجزء الأول سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت) .
الجزء الثانى سنة ١٩٥٤ ـ (نفدت) .
معبودة الجماهير :
الطبعة الأولى سنة ١٩٦١ ـ (نفدت) .
مثلها للسينما : عبد الحليم حافظ وشادية .
صاحبة الجلالة فى الزنزانة :
قصة الصحافة المصرية فى الاغلال والصراع بين الصحافة والطغيان .
الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤ ـ (نفدت) .
الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ ـ (نفدت) .
الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٥ ـ (نفدت) .
سنة أولى سجن :

الطبعة الاولى سبتمبر ١٩٧٤ ـ (نفدت) .
الطبعة الثانية ديسمبر ١٩٧٤ ـ (نفدت) .
الطبعة الثالثة يناير ١٩٧٥ ـ (نفدت) .
الطبعة الرابعة فبراير ١٩٧٥ ـ (نفدت) .
الطبعة الخامسة مايو ١٩٧٥ ـ (نفدت) .
الكتاب الممنوع :
أسرار ثورة ١٩١٩
الجزء الأول من الطبعة الأولى ١٩٧٤ ـ (نفدت) .
الطبعة الثانية ١٩٧٥
الجزء الثانى سنة ١٩٧٥
سنة أولى حب :
يناير سنة ١٩٧٥
ست الحسن :
الطبعة الأولى ١٩٧٦
من واحد الى عشرة :
١٩٧٧
سنة ثانية سجن
الطبعة الخامسة ١٩٨٩
من عشرة لعشرين : ١٩٨٧

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٩ / ٨٣٨٢

وروى لى الهضيبى سرا خطيرا وهو أن عبد الرحمن السندى رئيس الجهاز السرى للاخوان المسلمين زاره فى بيته بعد قيام الثورة بفترة غير قصيرة ، وأخبره ان الرئيس جمال عبد الناصر استدعاه إلى بيته فى منشية البكرى ، وطلب منه أن يسافر إلى ايطاليا ، ومعه عدد من زملائه ويقتلوا الملك فاروق .

وأنه أعطاه الاسلحة اللازمة والمبلغ الكافى لمصاريف الاقامة والسفر .

فقال عبد الرحمن السندى : لا استطيع ان اقوم بهذه المهمة قبل أن استأذن المرشد العام .

فقال الرئيس عبد الناصر : يمكنك ان تستأذنه كما تشاء .
واستطرد الاستاذ الهضيبى وقال لى :

ـ قلت لعبد الرحمن السندى بالحرف الواحد : لا تقتله ! انك اذا قتلته فكأنك قتلت مسلما بلا جريمة . افهم ان نقاتل اعداءنا ونحن فى معركة . اما أن نقتلهم بعد ان استسلموا فهذا ضد الشرع والدين ، والملك فاروق استسلم للثورة ، وتنازل عن العرش . وترك البلاد ، ولم يعد خطرا على مصر فلماذا تقتلونه الآن . . أنا أرفض الموافقة على جريمة قتل .

وذهب السندى وابلغ حديثى الى عبدالناصر ، واعاد له الاسلحة والفلوس .

وقال لى الأستاذ الهضيبى : أنا لاأنتظر خيرا من هؤلاء القوم . أنى لم أسمع أن طاغية أصبح رحيما ، وأن ظالما أصبح عادلا ، وأن الشياطين يصبحون فجأة ملائكة ! إنهم لو مضوا فى تحقيقات التعذيب فسوف يحاكمون أنفسهم وسوف يحكمون على أنفسهم .

فهل تتصور أن الضمائر التى ماتت ممكن أن تعود الى الحياة ! أنا أ
هذا الذى يقال عن الاتجاه الى تحسين الأحوال هو مسرحية يراد بها ا
قلت : ومن الذى ينقذ البلد مما هى فيه ؟

قال الأستاذ الهضيبى : ان ماوصلنا إليه هو أسوأ مما يستطيع أى
ينقذه . . إن الله وحده هو الذى يستطيع أن ين
نحن فيه .

مطابع الأهرام بكورنيش النيل